



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة الملك عبد العزيز
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الدراسات العليا
قسم التاريخ

العثمانيون الإمام الفاسم بن محمد بن علي في اليمن

١٠٠٦هـ / ١٥٩٨ - ١٠٢٩هـ / ١٦٢٠م

٠٠٦٢٦٨



بحث مقدم
لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث

بإشراف الأستاذ الدكتور محمد عبد اللطيف البجراوي

بحث الطالبة أمة بحلي وصفي المدرع

٢٨٢

١٤٠٠/٩٩هـ - ١٩٨٠/٧٩م

شکر و قنار

يسرنى وأنا أقدم رسالتي هذه عن موضوع :

” العثمانيون والامام القاسم بن محمد ”

للحصول على درجة الماجستير ، أن أحمد الله سبحانه وتعالى على توفيقه لى ، وتيسير السبل أمامى ، وأن أتقدم بالشكر الى كل من مسد يد العون والتوجيه والارشاد ، وسهل لى الحصول على المراجع التى استعنت بها وحققت الفائدة المرجوة منها ، ولا يسعنى ازا شكرى الا أن أدعو الله لكل من قدم لى يد الخير بحسن الجزاء ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال * كلن الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه * .

والله ولى التوفيق .

الفترة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم القائل : " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " ، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين .

أما بعد :

كانت رغبتي وأنا فى السنة الثانية منهجية أن أقدم بحثاً عن وطنى المملكة العربية السعودية ، وخاصة عن منطقة الحجاز ، اعتقاداً منى أنها لم تتلحقها من بحث الباحثين ، واخترت الموضوع بالفعل ، وكان عنوانه " الحالة الاقتصادية لبلاد الحجاز فى العصر العثمانى " وأرسلت به إلى مجلس الكلية للموافقة عليه ومناقشته ، ولكن فى ضوء فكرة التنسيق ومراعاة احتياجات القسم ، فقد اختير لى موضوع آخر وهو ((العثمانيون والإمام القاسم بن محمد ابن علي)) ففكرت ملياً . . وقد أسعدنى هذا الاقتراح لأن هذه الفترة بالذات ، فترة خطيرة فى تاريخ اليمن بصفة خاصة ، وتاريخ الجزيرة العربية بصفة عامة ، وذلك يرجع لأهمية الفراغ الرئيسى من وراء مد السيطرة العثمانية على اليمن حينذاك ، وهوا اتخاذها قاعدة أمامية لصد الفوز البرتغالى عن الحرمين الشريفين ، والدفاع عن البحر الأحمر .

وقد أعجبت بهذا البحث الذى اقترحته على الجامعة للحصول على درجة الماجستير لأسباب عدة ، منها : أنه برغم أهمية الإمام القاسم بن محمد واتصال أحداث دولته بتاريخنا الحديث فإن أحدا لم يتعرض له بالبحث بصورة لائقة به كمؤسس دولة لها أهميتها فى التاريخ الحديث ، وظلت سيرته فى سببات

يكتنفها كثير من الغموض ويجهل تاريخه الكثيرون ، وان ما كتب عنه - هو قليل جدا - لم تكن سوى إشارات عنه فقط ، عدا المخطوطة التي تحدثت عن سيرته وهذه ليست في متناول الجميع ، وليست بالسهلة التي يتسنى لكل شخص قراءتها .

يضاف لذلك أنه عند ما يشار إلى اسم الإمام القاسم بن محمد ، فإنه كثيرا ما يظن أنه " محمد بن القاسم " فاتح الهند في العصر الوسيط الإسلامي ، لذا كان من واجبي كباحث أن أظهر هذه الشخصية الهامة المغمورة وما لها من دور عظيم في تاريخ اليمن ، فرغم عزلة اليمن المعروفة في تلك الفترة فأنني أؤمن بأن تاريخه لا ينفصل عن تاريخ الجهات المجاورة من الجزيرة العربية ، ثم أنني إحدى بنات شبه الجزيرة العربية ، تلك الجزيرة التي لم تأخذ حقها من الباحثين في البحث والتنقيب عن تاريخها المغمور ، وخاصة اليمن ، فإن الفكرة الشائعة في العصر الحديث عنها أنها من الدول المتخلفة رغم مالها من ماضٍ مجيد وحضارة شامخة .

ولست أريد أن أذكر أن هذا البحث جديد على الدراسات الجامعية ، ولكنني أذكر أن اتجاهي لهذا البحث نتج عن ملاحظتي لحاجة المكتبة العربية للمؤلفات المنهجية ، والأبحاث العلمية الجادة التي تشمل تاريخ اليمن ، وخاصة في عهد الإمام القاسم بن محمد والدولة العثمانية ، وماله من دور عظيم في تأسيس الدولة القاسمية التي استطاعت أن تحكم اليمن وتخرج العثمانيين منها ، وفي رسالتي هذه تناولت أوضاع اليمن السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

فالبحت فى هذا الموضوع قد أفادنى كثيرا ، انه تمكنت من الاتصال
بترأثنا الثقافى العريض الذى لم ينشر بعد ، وقادتنى هذه الدراسة إلى
التعرف على المخطوطات العربية وأنواعها وأهميتها ، وكيفية الاستعانة بها ،
إلى غير ذلك مما لم تيسر لى إلا حاطة به من قبل ، وفى هذا المجال تجدر
الإشارة إلى أمر هام كان له أثره فى تيسير ما يعترض الباحث من صعوبات إذا
الإطلاع على هذا النوع من المراجع ، وهو المخطوطات كما كان له أثره كذلك
فى تيسير دراسة تلك الفترة ، إذ أن استاذى المشرف طلب منى قبل البدء
فى الرسالة الإطلاع على مخطوطة " النبذة الشيرة فى سيرة الإمام القاسم بن محمد "
لمؤلفها الجرmozى ، تحت إشراف سيادته ، فساعدنى ذلك على التعرف على
المخطوطات من ناحية ، وعلى ملامح موضوع الرسالة من ناحية أخرى ، لا اتصال
هذه المخطوطة بالموضوع اتصالا مباشرا .

ولم يكن الأمر سهلا أمامى عندما بدأت البحث ، إذ قامت عدة صعوبات
تمثلت فى قلة المراجع والمصادر وعدم توفرها فى المكتبات من جهة ، ويرجع
بعضها الآخر إلى الموضوع نفسه لأنه لم يكن لدى الفكرة الواضحة عن الإمام
القاسم نفسه ، أعف إلى ذلك أن المراجع التى حصلت عليها بعد جهد
ومشقة ، كانت مختلفة فى أنواعها ، وفى تنوع اهتماماتها ، وإن يكن هذا من
ناحية أخرى ، عامل قوة فى هذه المراجع ، إذا جاز لنا أن نقوم بتقييمها فى
هذا المجال .

فمجموعة المراجع تضم القديم الذى عاصر موضوع الرسالة ، كما تضم كتب
المحدثين ، وكلا النوعين يحتاج إلى نظرة خاصة عند الرجوع إليه والأخذ منه ،
فالمراجع القديمة التى عاصرت الأحداث تميزت بأصالتها وغزارة مادتها وقربها من

تلك الأحداث غير أن هذا لا ينفي اشتغالها على كثير من التفاصيل المطولة والآراء المناهضة ، والاضطراب والتناقض ، وهذا التناقض بين إيجابيات هذا النوع من المراجع ، وبين سلبياته كان يحتمنى على التريث والحذر عند استخراج المادة التاريخية اللازمة ، كما كان يلزمنى القيام بتمحيص المعلومة ومقارنتها بغيرها ، وذلك ببطء وتروشد يد يد حتى أستطيع فى نهاية الأمر أن أرسم خطوطا مستقيمة لأجزاء الرسالة ، وكتب المحدثين لها أيضا حسناتها وسيئاتها فمن حسناتها أنها أكثر تنظيما ودقة من كتب الأقدمين ، كما أنها تقدم تفسيرات وتحليلات ، فى بعض الأحيان ، غير أن هذه الكتب تقصر عن تقديم المادة التاريخية الكافية ، بل وإنها تقدم دراساتها بوجهة نظر خاصة ، قد تكون مفرضة فى كثير من الأحيان ، مما كان يدفعنى إلى الوقوف أمامها بحذر وتيقظ عند الرجوع إليها .

وبالإضافة إلى الفروق المختلفة بين مراجع الرسالة فإن مؤلفيها ينتسبون إلى جنسيات ومدارس متنوعة ، ولذلك فقد كان لكل منهم نافذته الخاصة التى ينظر منها إلى الأحداث ، ويتضح ذلك إذا نظرنا إلى الخلافات التى ظهرت بين مؤلفي المخطوطات التى رجعنا إليها والتى سوف أتحدث عنها بشيء من التفصيل فى ملحق خاص فى نهاية الرسالة .

وعلى مدار هذا البحث اتبعت منهجا علميا محددا تمثل فى محاولتى المستمرة لارجاع تفاصيل الموضوع لأصولها الأولى وجذورها المتفرعة ، وهذا ما جعلنى أحاول معرفة طبيعة البيئة اليمنية ، التى شاعت فيها ضروب مختلفة من المذاهب والاتجاهات ، وجدت لزاما على أن أقوم بدراستها والتعرف على نظرياتها التى اتخذت أساسا لنظم الحكم فى اليمن ، وأثرت تأثيرا عميقا فى تاريخه الحديث .

كما حاولت أن أعرف أبعاد الصلة التي تربط الأحداث الجارية داخل اليمن بالتغيرات التي كانت تطرأ على الأوضاع القائمة في عاصمة الدولة العثمانية ، بل وبالتطورات التي كانت توجه الأحداث العالمية في ذلك الحين ، إيماناً مني بأن التاريخ الحديث والمعاصر يختلف عن العصور التاريخية السابقة بأنه تاريخ أكثر عالمية وشمولا .

وقد بذلت جهدي لتخليص نفسي أثناء كتابة هذا البحث من عوامل الرضا أو السخط ونوازع الحب أو الكره ، حتى تكون كلمتي في الموضوعات التي طرقتها موضوعية خالصة ، مبعثها الضوء الذي تجمع أمانى من حقائق أكدتها وثائق واضحة ودعمتها مصادر دقيقة واثبتتها المقارنة والتحليل .

وكيفما كان الأمر ، فقد قسمت الرسالة إلى تمهيد وخمسة فصول ، وقد خصصت التمهيد لدراسة الأوضاع التي كانت عليها اليمن قبل ظهور دعوة الإمام القاسم بن محمد ، وكانت إرهابا لهذه الدعوة ، كما أنني خصصت الجزء الأول من هذا التمهيد للتحديث عن المذهب الزيدى ونشأته لما له من دور خطير في حياة أهل اليمن ، فعلى أساس نظرياته قام حكم الأئمة في اليمن وكان سببا في إثارة الاضطرابات التي سادت اليمن في عهد الإمام القاسم بن محمد الذي نحن بصدده الحديث عنه .

وفي الفصل الأول من الرسالة ، قدمت تفصيلات واضحة عن نشأة الإمام القاسم لما لهذه النشأة من أثر على الإمام القاسم ، فجعلته مؤسس أول دولة زيدية استطاعت أن تخرج العثمانيين سنة ١٦٣٥ م ويكون لها الدور الرئيسي في تاريخ اليمن حينذاك .

كما قدمت تفصيلات عن ظهور دعوته سنة ١٠٠٦ هـ وما واجهه من صعاب ومشاكل لأن الأمر لم يكن سهلاً أمامه ، فقد صادفته كثير من الانتكاسات والعقبات التي أوضحتها في الفصل الأول والثاني والثالث وقد وقفت الدولة العثمانية تحاربه بشتى الوسائل واستعملت في ذلك الأمراء اليمينيين المواليين لها للإيقاع به ، بالإضافة الى مواقف بعض الأمراء اليمينيين المناوئين لدعوته مثل الأمير عبد الرحيم بن عبد الرحمن ، وهذه الدعوة قد مرت بأربع نهضات كما ذهب إليه صاحب سيرة الإمام القاسم - الجرmozى في مخطوطه ان قال : " للإمام أربع نهضات : الأولى من الدعوة الى خروجه من شهارة الى برط ، والثانية من خروجه من برط الى انعقاد الصلح بينه وبين سنان ثم جعفر باشا والثالثة خروجه على جعفر باشا بعد موت ابراهيم باشا ، والرابعة خروجه على محمد باشا ويعقبها وفاته " (١)

ومن الغريب أن خطة البحث قد وضعت قبل الإطلاع على هذا المخطوط وجرى فيها تحديد النقاط الهامة بما اتضح بعد ذلك أنه يتمشى تماماً مع وجهة نظر الجرmozى .

وقد التزمت هذا التقسيم في الفصول ، الأول ، والثاني والثالث والرابع وذلك لدقة هذا التقسيم عند عرض الأحداث ، وأغفت فصلاً خاصاً هو الفصل الخامس عن الحالة في الأستانة لكي أحاول أن أربط بين التغيرات التي كانت تطرأ على الأوضاع القائمة في عاصمة الدولة العثمانية والأحداث الجارية في اليمن ، ثم ختمت الرسالة بالتحليل والنتائج التي توصلت إليها ، خلال

(١) المطهر بن محمد الجرmozى - النبذة المشيرة في سيرة الإمام القاسم مخطوط ص ١٣٦

اطلاعى على مصادر ومراجع الرسالة ، ولذلك أهمية عظيمة ، فهى زبدة الموضوع كله .

وقد حرصت فى دراسة هذه الفصول الخمسة على ألا أقف عند ذكر الأحداث السياسية وتطورها ، لأننى فهمت التاريخ على أنه العلم الشامل ، ولذلك عنيت أيضا بالنتائج الاجتماعية والاقتصادية والعلمية ، واتبعت أسلوب التحليل التاريخى ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، كنت أجد نفسى أحيانا مضطرة إلى تفصيل بعض الأحداث والوقوف عندها أكثر من غيرها ، ولقد كان ذلك راجعا إلى طبيعة موضوع الرسالة من ناحية ، وإلى أنه كان من الموضوعات التى لم تدرس من قبل دراسة علمية حديثة ، ولذلك كان على أن أهتم مثلا بتصوير خريطة جغرافية لليمن معاصرة للموضوع ، لانه من الملاحظ أن أكثر من كتب عن اليمن ، أهمل بوضع الخرائط التى تبين مواضع البلاد .

وانى لا يسعنى هنا الا أن أقدم مخلصه جزيل الشكر إلى استاذى المشرف الدكتور محمد عبد اللطيف البحراوى لما غمرنى به من أفضال كثيرة ، فقد شرفنى بالاشراف على رسالتى للحصول على درجة الماجستير ، كما أشكر سيادته على إرشاداته وتوجيهاته العلمية السديدة .

وأخيرا فانى أرجو أن أكون قد تمكنت من خدمة تاريخنا العربى الحديث بهذا البحث المتواضع .

والله ولى التوفيق .
أميرة المداح

التعريض

- أ - نبذة عن الإمامة الزيدية .
- ب - إنهاء إمامة أولاد المطهرين شرف الدين .
وأسر الإمام الحسن .
- ج - فترة الاستقراة .

ساعد المذهب الزيدى على خلق وحدة بشرية مترابطة فى تاريخ اليمن منذ ظهوره ، فقد قامت بعض الدول القوية على أساسه ، واستطاعت أن تمتد نفوذها على مناطق واسعة فى جنوب الجزيرة العربية وأن تنتشر الأمن والاستقرار هناك ، وظهرت أهمية هذا المذهب فى فترة الحكم العثمانى الأول وما يليها ، إذ كان هو التنظيم القوى الوحيد الذى اصطدم به العثمانيون فى اليمن ، وكان الصراع الدموى بين السادة اليمنيين الساعين لإقامة الإمامة وبين العثمانيين ، حتى فى الوقت الذى سيطر فيه العثمانيون على العاصمة اليمنية صنعاء ، فإن ذلك لم يعطهم سيطرة فعلية على اليمن بأكمله ، فقد ظلت الإمامة الزيدية فى الشمال ^(١) ، وكانت صعدة حصنها الحصين ، تواصل جهودها وتؤكد حقها فى الحكم .

وسوف نرى أن الدولة القاسمية التى وضع أساسها الإمام القاسم ابن محمد ، تعتبر بحق من أحسن الأمثلة للعصبية التى أشار إليها ابن خلدون فى مقدمته المشهورة بأنها ضرورة لقيام الدول ، والتى ربط بينها وبين قوة الدولة ^(٢) ، ولكن يجب القول أن العصبية الزيدية لم تكن دائما عاملا ايجابيا فى قيام تنظيم سياسى فى اليمن فحسب ، بل كانت أيضا عاملا سلبيا ، وعامل اضطراب ، وهذا ما دفع هانز هلفرتز Hans Helfrits الى القول بأن " أهم أسباب اضطرابات اليمن أيام الحكم العثمانى هو تعلق اليمنيين بفكرة

(١) الشمال : اليمن الأعلى .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٨٠

الإمامة ، فالذهب ييسح بطبيعته فرصة التنازع بين أبناء بيت عليّ على الإمامة ، فيظهر العديد من الادعاء وتزويد الغوضى والاضطراب طالما كانت السلطنة العليا ضعيفة ^(١) . ولكي نتحدث عن الزيدية وورثها الكبير بشي من الدقة والعمق يجب أولا أن نتعرض لمبادئها وأصولها .

فالزيدية هي إحدى فرق الشيعة ، والشيعة لغة هم الصحبة والتابع ، وهم في عرف الفقهاء والمتكلمين أتباع عليّ ومنه ^(٢) .

ويمكن القول أن الشيعة نشأت ابتداء في عهد الخليفة عثمان (رضي الله عنه) . ويلاحظ أنها اتخذت أرض العراق إحدى مستقراتها الرئيسية فإذا كانت المدينة ، ومكة ، وسائر مدن الحجاز مهدا للسنة والحديث ، والشام مهدا للأمية ، فقد كان العراق موطن التشيع ، ولقد تضافرت عدة أسباب جعلت من العراق كذلك ، فالإمام علي بن أبي طالب أقام به مدة خلافته وفيه التقى بالناس ، ورأوا فيه ما آثارتقد يرههم ، وإلى هذا أشار ابن أبي الحديد عند حديثه عن الأسباب التي جعلت العراق وجعلت من سكانه أهل بصروتدقيسق ولذلك لن يكون عجيبا حين نرى الإمام القاسم يفكر في اللجوء الى العراق حين تعرضت حركته للخطر في مرتفعات اليمن ^(٣) .

(١) السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث ص ٢٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٥

(٣) أبوزهرة : الامام زيد ص ١٠٨

والشيعة جميعا متفقون على أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ، بل إن الإمام يتولى بالتعيين ، وهم يستدلون على ذلك بنصوص يؤولونها على مقتضى مذهبهم .^(١)

ومن الشيعة من يرى أن هذه النصوص تدل على عليّ وتشخصه ، وأن الإمامة تنتقل منه إلى من بعده ، وهؤلاء هم الإمامية ، وهم يتبرءون من الشيخين ، حيث أنهم لم يقدّموا عليا ويأيعوه ، ومنهم من يقول إن هذه الأدلة إنما اقتضت تعيين عليّ بالوصف لا بالشخص ، والناس مقصرون حيث لم يضعوا الوصف موضعه وهؤلاء هم الزيدية ، وهم لا يتبرءون من الشيخين ، لأنهم يجوزون إمامة المفضل مع وجود الأفضل ، ثم اختلفوا في نقلها بعد عليّ ، فمنهم من ساقها في ولد فاطمة بالنص عليهم واحدا بعد واحد وهؤلاء يسمون الإمامية ، نسبة إلى مقالهم باشتراط معرفة الإمام وتعيينه ، ومنهم من ساقها في ولد فاطمة لكنه بالاختيار من الشيوخ .

وقد ساق الزيدية الإمامة على مذهبهم فيها ، وأنها باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص ، فقالوا : بالإمامة لعليّ ثم ابنه الحسن ، ثم أخيه الحسين ، ثم ابنه عليّ زين العابدين ، ثم لابنه زيد بن عليّ ، وهو صاحب هذا المذهب وخرج بالكوفة داعيا إلى الإمامة فقتل ، بعد أن أوصى إلى محمد بن عبد الله ابن حسن بن الحسن السبط ، ويقال له النفس الزكية وهو محمد بن القاسم بن عليّ أخو زيد ابن عليّ ، فخرج هذا في الطالقان في أيام المعتصم وقال آخرون

من الزيدية إن الإمام بعد محمد بن عبد الله هو أخوه إدريس الذي فر إلى
المغرب ومات هناك ، وكان من عقبه ملوك المغرب .^(١)

أما الإمامية ، فساقوا الإمامة من عليّ الرضا إلى ابنه الحسن بوصية ،
ثم إلى أخيه الحسين ، ثم إلى ابنه زين العابدين ، ثم ابنه محمد الباقر ، ثم
إلى ابنه جعفر الصادق ، ومن هنا إلى ابنه موسى الكاظم ، وهم الاثنا عشرية
لوقوفهم عند الثاني عشر من الأئمة ، وقولهم بنفيته إلى آخر الزمان ، ومنهم من
نقل الإمامة إلى اسماعيل ، ثم ابنه المكتوم وهو أول الأئمة المستورين ، لأن الإمام
عندهم قد لا يكون له شوكة فيستتر ويسمى هؤلاء تارة بالاسماعيلية ، نسبة إلى
قولهم بإمامة اسماعيل ، ويسمون أيضا بالباطنية .^(٢)

ومؤسس المذهب الزيدي هو الإمام الوالي السعيد زيد بن علي بن الحسن
ابن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم جميعا) .

ولد زيد رضي الله عنه سنة ٨٠ هـ ، ولم يذكر العلماء تاريخ مولده ، ولكن
جل الروايات تدل على أنه قتل شهيدا في الميدان (للدفاع عن الحق) سنة
١٢٢ هـ ، وأجمع المؤرخون على أن سنه يوم مقتله لا تتجاوز الثانية والأربعين ،
ويقال أن أمه كانت من السند ، أهداها لأبيه المختار الثقفي ، وكانت
ذات تأمل وفكر وزهد ، وذكاء وعلم واسع .^(٣)

(١) هارولد . ف . يعقوب - ملوك شبه جزيرة العرب ص ١٢٨

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٥٨

(٣) أبو زهرة - الإمام زيد ص ٢٢

أما مؤسس المذهب الزيدى فى اليمن ، فهو الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى ، ولد فى سنة ٢٤٥ هـ بجبل الرس من جبال المدينة المنورة قرب ذى الحليفة ، حيث كان أبوه وجداه وأهله وذووه ، يعيشون هناك ، بعيدين عن التيارات المذهبية ، وعن أعين الرقباء ، وخفية عن الدولة العباسية ، وكان جده القاسم بن إبراهيم قد خرج إلى اليمن متكرراً ، ثم عاد إلى المدينة ، فنشأ الهادى نشأة تقوى وصلاح ، وعفاف ودين ، ثم انتقل إلى العراق ، فتتلمذ على أبى القاسم البلخى ، ثم عاد من العراق إلى الرس ، وقد امتلأ أفكاراً عن حياة العراق وترفها وعيشة أهلها وحضارتها ، وبهرته قصور الخلفاء العباسيين وما يتمتعون به ، وهم الذين لم يكتفوا بسلب الخلافة فحسب فى رأيه ، بل وتناولوهم بالقتل والتشريد ، فثار فيه نغمة الانتقام وحرارة الثأر ، وقد ذهب إلى آمل بفارس حيث كان قد رحل من أقاربه إلى هناك محمد بن زيد ، واستعان بالناصر الاطروشى ، وتزعم الاثنان حركة المقاومة ضد العباسيين ، ورأى الهادى أن يشترك فى المعارك ، فارتحل إلى آمل ببلاد فارس ، ولكنه سرعان ما اصطدم بخيبة الأمل ، فعاد أدراجه ، ولكن اليأس لم يخامره ، فارتحل إلى اليمن سنة ٢٨٠ هـ ، ودخل صنعاء وتعسرف على أهلها ، ولكنه لم يجد الضالة المنشودة ، إذ لم يكن الوقت قد حان لبث دعوته ولكنه بذر البذرة الأولى . (١)

تركت الرحلة الأولى للهادى فى نفوس أهل اليمن أثراً بعيداً فأوفدوا فى موسم سنة ٢٨٣ هـ وفداً حمل رسائل من زعمائهم يستدعونه ويتعهدون بنصرته ،

ويقبلون كل شرط يطلبه منهم ، فاستجاب لرغبتهم ، ووصل خولان ٦ صفر سنة ٢٨٤ هـ ودخل في صراع مع قبائل خولان وهمدان والقرامطة وبني يعفر .^(١)

وبعد أن استقر في صعدة جمع أهلها وما جاورها على حكم واحد ، وحقق قدرا من الأمن بين ربوعها ، وسار الهادي في حكم ما تحت يده من البلاد اليمنية على سنة العدل ، مما جعل الأهليين يرون فيه مظهرا لحكم الاسلام ، ولذلك سار أهل اليمن وراءه طائعين لا كارهين ، ولا مجبرين^(٢) ، وظلت تلك الحال إلى أن وافاه الأجل يوم الأحد ١٠ ذي الحجة سنة ٢٩٨ هـ عن ثلاثة وخمسين سنة .

أدى ذلك إلى انقسام أهل اليمن إلى قسمين : شيعة زيديين ، وسنة شافعيين ، وساد المذهب الأول في الجبال والمرتفعات ، وتركز حول صعدة بينما ساد المذهب الثاني في الجهات المنخفضة ، أي في تهامة ، وتركز حول زبيد ، وشبت بين المذهبين حروب وصراعات ، ومع أن المذهب السني كان يتلقى عوناً خارجياً تمثل في سيطرة الأيوبيين ثم العثمانيين من بعدهم ، وقام ملك تركزي في زبيد ضد الإمامة الزيدية ، فإن الإمامة لم تخضع ولم تلق سلاحها ولم يكن خضوعها في فترات معينة خضوعاً طبيعياً أو سلمياً ، لأنها لم تكن تلبيث أن تشعل الحرب ثلوا الحرب حتى انتهى الأمر بالقضاء التام على كل العوامل

(١) ابن ديب - قرعة العيون ص ١٦٨ ، ١٧١

(٢) أبو زهرقة الامام زيد ص ٢٩٨

المناوثة لها ، وهذه النهاية ، هي التي وضع أساسها الإمام القاسم بن محمد ،
الذى نحن بصدد التأريخ له ، ولذلك جاء دوره فى تاريخ اليمن وفى شبه الجزيرة
العربية جد خطير .^(١)

لذلك يمكن القول بأن فكرة تعليل استمرار اضطرابات اليمن فى العهد
العثمانى بتعلق اليمنيين بالإمامة الزيدية ، هي فكرة صحيحة إلى حد بعيد .
ومن المعروف أن الإمام الهادى الرسى قد اعتمد ، بعد أن استقر له الأمر ،
على رؤساء قبيلة همدان ، لتوطيد اقدامه فى المنطقة الشمالية ، وقد ساعدت
ظروف المنطقة الجبلية الشمالية ، بامكانياتها الطبيعية المحدودة على انتشار
هذا المذهب هناك ، وسوف نرى ، فيما هوأت ، أن بعض القبائل كانت
تشارك فى حروب الأئمة من أجل الحصول على الأسلاب والغنائم ، وكانت قبائل أخرى
تدخل فى طاعة الإمام حتى يشد ساعدها فى خروجها على جيرانها ، وفى بعض
الأيام كانت إحدى القبائل تغرى أحد الأئمة على إعلان دعوته من إقليمها حتى
يكون لها السطوة والنفوذ عند نجاح هذه الدعوة .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ظهور المذهب الزيدى فى شمال اليمن ،
قد أدى إلى ازدياد هجرة أسر الاشراف إلى هذه الجهات ، واتخاذها موطناً
لهم ، وأدى هذا بدوره إلى اغناء المذهب بالكثير ممن ينطبق عليهم شروط الإمامة
ولذلك تمكن المذهب من البقاء فى اليمن بالرغم مما تعرض له من أخطار طموال
العصور الوسطى والحديثة .

أما شروط الإمامة في المذهب الزيدي فأهمها أن يكون الإمام مكلفاً ،
ذكراً ، حراً ، مجتهداً ، علوياً ، فاطمياً ، عدلاً ، سخيماً ، ورعاً ، سليم العقل ،
سليم الحواس ، سليم الأطراف ، صاحب رأى وتدبير ، مقداماً فارساً .

وأهم هذه الشروط كما يبدو لنا ، وفي نطاق موضوع البحث ، هو قول
الزيدية أن الإمامة بعد الحسن والحسين شورى في ولديهما ، فمن خرج منهم
شاهراً سيفه ، داعياً إلى دينه وكان عالماً ورعاً فهو إمام ، فالزيدية تنفي الوراثة
والاجتهاد عندهم هو العلم ، واقعلم هو التفقه في الدين ، والحديث والفقه
واللغة والعلوم الكونية ، وكان شرط الإمامة بالسيف سبباً في فتح الباب للحسن
والحسين على السواء ، فشروط الإمامة عند الزيدية خير كبير لولا شرط السيف
الذي أنزلوه منزلة الشورى والمبايعة ، ولو إنهم انتخبوا الإمام ويايموه على طريقة
المصاحبة (رضوان الله عليهم) لجاء اختيار الإمام هادئاً ، ولكنهم جعلوا
الإمامة غنيمة لمن يأخذها بالسيف (١) .

وكان هذا هو السبب الأكبر في الفتن والحروب ، وعدم الاستقرار فسي
تلك البلاد ، واشتراط الإمام زيد أن يخرج الإمام داعياً لنفسه معناه أنه هجر
مبدأ البقية ، الذي كان قد التزمه آل البيت بعد مقتل الإمام الحسين ، كما
أجاز الزيدية خروج إمامين يستجمعان هذه الخصال في قطرين ، ويكون كل
واحد منهما واجب الطاعة ، وذلك لا تساع الدولة الإسلامية ، وأجازوا أيضاً أمراً
هما كما أشرنا ، وهو أن الإمام ليس من الضروري أن يكون أفضل الموجودين ،

بل يجوز أن يكون المفضل إماماً ، والأفضل قائماً فيرجع إليه في الأحكام ، ويحكم بحكمه في القضايا . (١)

أجمعت الزيدية على أن معرفة الإمام على واجبة على كل مكلف ، أما بالنسبة لمن تقدمه من الخلفاء الثلاثة ، فزيدية اليمن لا تنكر عليهم شيئاً من ذلك لجواز قيام المفضل مع وجود الأفضل للمصلحة ، ولبيعة الإمام على لهم ، ومنهم من يوقف تخطئتهم على علمهم أى أنهم إذا كانوا غير عالمين باستحقاقه دونهم بعد التحرى ، فلا اثم عليهم وإن أخطأوا ، لأن كل مجتهد مصيب ، وهذا هو قول الإمام القاسم بن محمد في كتابه الأساس . (٢)

اننا نلاحظ أن الزيدية ليست سلالة واحدة متصلة ، ولكنها محدودة في بيت معين ، وهم لا يأخذون بما نستطيع أن نسميه الانتخاب والا اختيار للحاكم ، وإن كانوا يحصرونه داخل نطاق محدود ، ولكن هذه المبادئ نفسها تسمح بوجود ثغرة في بنائها الأساسي ، وسمحت بتأويلات وتفسيرات كثيرة كان الفرض منها اختيار الأصلح من بين هؤلاء الأفراد لإمامة الزيديين ، ولكن هذا الشرط نفسه كان عوناً لبعض الطامعين منهم في الخروج على الإمام القائم بالأمر وهذا ما جعل بعض المؤرخين^(٣) يشيرون دون ادراك كامل لحقيقة هذا الشرط أن الإمامة عندهم غنيمة لمن يأخذها بالسيف . (٤)

(١) السيد مصطفى سالم - تكوين اليمن الحديث ص ٢٧

(٢) الشرفي - اللألى المضيئة ص ١٢٣

(٣) منهم أمين الريحاني في كتابه - طوك العرب

(٤) السيد مصطفى سالم - تكوين اليمن الحديث ص ٢٨

وقد أدى هذا المبدأ دون شك إلى قيام كثير من الفتن والاضطرابات منذ دخول المذهب الزيدى إلى اليمن ، ومعنى تعدد الإمامة هو انقسام البلاد إلى أقسام متصارعة .

والزيدية ثلاث فرق هي : الجارودية والسليمانية ، ولا داعى للدخول فى تفاصيل كثيرة عن هذه الفرق ، والذي يهمنا من ذلك فيما يتعلق بموضوع بحثنا هو أن الزيدية أعدل هذه الفرق لأنهم يرون أن علياً أحق بالخلافة من أبى بكر وعمر ولكنه أما وقد اجتمع أكثر الصحابة على بيعته أبى بكر وعمر ، فلا بد أن يعترف بامامتها ، لأن الصحابة إذ ذاك قد رأوا الظروف المحيطة بهم .

وإذا كان الإمام زيد (رضى الله عنه) لا يفرض إمامة الأفضل دائماً ، ولا يفرض أن الخلافة تجىء بالوراثة أو الألباء ، فإنه لا يمكن أن يفرض عصمة الأئمة إذ أن فرض عصمة الأئمة من الخطأ أساسه أن يكون توليهم من النبى (صلى الله عليه وسلم) ، والنبى صلى الله عليه وسلم ما كان يتصرف إلا بوحى يوحى إليه ، وما كان من المعقول أن يختار النبى صلى الله عليه وسلم لهم بأمر من ربه إماماً يجرى عليه الخطأ فى أحكامه .^(١)

أوجب الشيعة على الإمام سبعة واجبات هي : إقامة ~~الجماعات~~ والحدود ، ونصب الحكام ، وتنفيذ الأحكام ونصب الولاة للمصالح والأيتام ، وغزو الكفار ، وأخذ الحقوق كرها ، وتسهيل الحجاب حتى يتصل به الضعفاء ^{كمين} والمسائل لقضاء حوائجهم ، وتقريب أهل الفضل وتعظيمهم واستشارتهم ، وتعهد الضعفاء

والمصالح ، والا يتنحى ما وجد ناصرا من المسلمين لا من غيرهم ، وأن يؤمّر على السرية أمرا صالحا لها ، وأن يدعو الكفار إلى الاسلام قبل مقاتلتهم وتقديم دعاة البغاة إلى الطاعة فإن أبوا أوجب الحرب ان ظن الغلبة .^(١)

تشعب المذهب الزيدى نتيجة اعتناق أناس له فى العراق وفى الجزيرة العربية ، وفى خراسان ، وكثيرين فى اليمن ، اذ أن كل اقليم قد صبغ المذهب بصبغته فى السياسة ، وفى الفقه ، حتى صار يظن أن الزيدية مذاهب وليسست مذاهبا واحدا قد استقامت أصوله وتفرعت فروعها ، واذا كانت الزيدية قد اختلفت فى السياسة فهى فى الفقه أكثر اختلافا .

ان باب الاجتهاد فى المذهب الزيدى مفتوح ولم يغلق ، وقد كان مفتوحا فى الأصول كما هو فى الفروع ، وكتبهم تشتمل على آراء الأئمة ، وقد تبين من البحث أنها آراء جمعت ما بين آراء علماء السنة وعلماء الشيعة .

وقد تبين لنا أن المذهب الزيدى يقوم على عنصرين هامين ، وهما دعائتان يركز عليهما ، وقد بذل الزيدية اهتماما كبيرا فى دراسة علوم هذين الأصلين ولهم فيهما أبحاث مستفيضة :

أولاهما : علم أصول الدين ويسمى عندهم علم الكلام ، أو علم التوحيد والعدل ، ويعتبرونه كما قال الإمام القاسم بن محمد فى كتابه الأساس أنه " من أجل العلوم قدرا ، وأعظمها حظا ، وأكبرها خطرا ، وأعماها وجوبها ، وأولاها ايثارا ، وأولها صدرا " .

(١) أحمد حسين شرف الدين - تاريخ اليمن الثقافى ج ٤ ص ١٦١

والدعامة الثانية : هى علم أصول الفقه ، وقد عرفه القاضى محمد بن يحيى مهران فى مقدمة كتابه الكافى بقوله : " أصول الفقه هو علم بأصول يتوصل بها الى استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية " .^(١)

فلا جتهاد معناه فى اللغة بذل الجهد فى الوصول إلى أمر من الأمور ، ويعرفه علماء الأصول فى الاصطلاح بأنه بذل الفقيه وسعيه فى استنباط الأحكام العملية واستخراجها من أدلتها التفصيلية كالاستدلالات على تحريم الربا قليلة وكثيره ، وقد عرف علماء الزيدية الاجتهاد الاصطلاحى بأنه بذل الجهد فى تعرف الحكم من جهة الاستدلال ، فكل تعرف لأمر شرعى عن طريق الاستدلال سواء أكان عقليا أم كان شرعيا فهو اجتهاد ، وشروطه : العلم بالعربية ، وبالقرآن والسنة ومعرفة مواضع الاجماع والعلم بالقياس وطرائقه ، ومعرفة مقاصد الأحكام الشرعية ، وصحة الفهم ، وحسن التقدير ، وصحة النية وسلامة الاعتقاد^(٢) .

وبذلك يتميز المذهب الزيدى عن باقى المذاهب الشيعية أنه ليس مذهباً مغلقاً بل ان باب الاجتهاد فيه مفتوح ، وقد أدى هذا على مر العصور الى ظهور عدد من الأئمة المجتهدين الذين أثروا المذهب بمؤلفاتهم المطولة ، وآرائهم الجديدة ، وفى أواسط القرن التاسع الهجرى ظهرت مجموعة من العلماء المحصلين والمخرجين الذين قاموا بدراسة كتاب المنار للعلامة صالح بن مهدى والبحر الزخار ، وهذان لم يقتصرا على فقه الزيدية فحسب ، وانما شملوا الفقه الاسلامى عامة وأدلة كل حكم فيه ، وعلى غرارهما وضعوا الأساس بقواعد المذاهب

(١) أحمد حسين شرف الدين ، تاريخ اليمن الثقافى ج ٤ ص ١٣٤

(٢) أبوزهرة - الامام زيد ص ٤٥٣

عملا بما تقرر لديهم من أقوال الأئمة واجتهاداتهم وفتاويهم وتقاريراتهم فـسـى جميع أبواب الفقه ، وجعلوا المذهب المختار كما قال الإمام القاسم بن محمد : ما انطبقت عليه تلك القواعد والأصول من مسائل الفروع ، فما كان من أقوال الأئمة المتقدمين كزيد بن علي والصادق ، والباقر وأمثالهم وكذا الهادي ، والناصر ، ويحيى بن حمزة ، وعبد الله بن حمزة ، وغيرهم ملائما لتلك القواعد جعلوه مذهباً وسموه : اختيارات المذهب الزيدى ، ويجمع هذه الاختيارات كتاب شرح الأزهار ، ويتضمن أيضاً اختيارات المذاهب والسفرى الإسلامية الأخرى .^(١)

ولذلك كان من واجبي فى بحثى هذا ألا أتعرض للإمام القاسم بن محمد بالطريقة التقليدية ، وهى الاقتصار على دوره السياسى ، بل اتضح من البحث أن لسه دوراً فى غاية الأهمية فى تطوير المذهب الزيدى ، وفى مجال العلم والفقه أيضاً ، لأنه لم يكن لزيدية اليمن حتى القرن العاشر الهجرى فقها محدد أو معين لذاته وإنما كان عبارة عن مجموعة ضخمة من الموسوعات العلمية التى تضمن الآراء والاجتهادات والترجيحات ، التى كان يستنبطها كل مجتهد من الأدلة الشرعية والعقلية ، كنتيجة لأبحاثهم العميقة ودراساتهم الشاملة كمذاهب الإسلام ، ومن المعروف أن الزيدية لم ينتسبوا لمذهب الإمام زيد الالمتابعين لهم فى مسائل خاصة تتعلق بأصول الدين ، أما الفقه وأصوله فمنهم من يوافق فيه ، ومنهم من يخالفه ، إلا أنهم جميعاً وعلى الإطلاق لم يخالفوه فى وجوب الاجتهاد ويرجعون إليه الفضل فى فتح بابه وإتارة سبيله ، وعلى الجملة فإن

(١) أحمد حسين شرف الدين - تاريخ اليمن الثقافى ج ٤ ص ٢١٢

المذهب الزيدى مذهب يقوم على أساس البحث والاجتهاد وفى كل ما يتعلق بالأحكام الشرعية . وأهم المؤلفات التى تبين هذه الاجتهادات كتاب الاعتصام للإمام القاسم بن محمد ، الذى يبدى فيه رأيه فى مسائل فقهية ، وكذلك كتاب التجريد للمؤيد بالله .

ويعتبر المذهب الزيدى أكثر المذاهب الشيعية اعتدالا وأقربها إلى مذهب أهل السنة والجماعة ، وأهم ما يميزه عن بقية مذاهب الشيعة عدم المبالغة فى تقدس عليّ ، كما فعل الغلاة من غيرهم من الشيعة ، وقد ترتب على هذا أن مسائل الخلاف بين علماء الزيدية وأهل السنة جاءت يسيرة ، إذ اقترنت بمسائل الخلاف بين بعض المذاهب الأخرى ، وهذا هو معنى أن المذهب الزيدى هو أقرب المذاهب لأهل السنة ، وإننا تتبعنا تلك المسائل الخلافية فإننا نجد أن معظمها يدور حول المسائل الفرعية الظنية ، كما هو واضح فى أصول الفقه ، والمسائل الخلافية نفسها قد أثارت نقاشات حادة بين علماء الزيدية أنفسهم .

ويحدثنا السيد العلامة محمد بن اسماعيل فى كتاب المسائل المرضية فى بيان اتفاق أهل السنة والزيدية ، والذى أورد فيه عددا من مسائل الخلاف بين المذهبين ، أن هنالك اتفاقا بين الفريقين فى أصل المسائل ، بل إنه ليس ثمة ما يصح إطلاق كلمة خلاف عليه غير ما ولدته الاجتهادات الخاطئة من جهة أو أوجدته التعصبات المذهبية من جهة أخرى .^(١)

(١) أحمد حسين شرف الدين - تاريخ اليمن الثقافى ج ٤ ص ٢١٠ ، ٢١٤

سبقت الإشارة إلى أن اليمن بعد دخول الهادى إليها انقسمت إلى زيدية وسنية ، وبذلك لم تنعم باستقرار في عهد من العهود التي تتابعت عليها ، ومنيت البلاد بنظام مزدوج عجيب ، لم يصب به جزء آخر من الجزيرة العربية فان الدعاة لم ينفكوا طوال هذه العهود عن نشر دعوتهم ونتيجة لذلك وجد في اليمن نظام الملك ونظام الإمامة ، فكان الملك له مناطق نفوذه وله أجناده وإمام له مناطق نفوذه أخرى وله أيضا أتباعه ، ثم تظل القوتان في عراك مستمر وكر وفر دون الوصول إلى نتائج حاسمة وسريعة ، وحتى الإمامة نفسها كثيرا ما انقسمت على نفسها ومنيت البلاد بأكثر من إمام واحد وحروب مستمرة وقودها الأئمة المتنازعون ، وعلى ذلك فان ثنائية السلطة التي سيعرف بها العصر العثماني في غرب الجزيرة العربية حيث كانت توجد الإمامة في اليمن إلى جانب والى العثماني ، كما يوجد نظام الشرافة أو حكم الأشراف في الحجاز إلى جانب وجود والى العثماني أيضا ، وهذه الثنائية في كل منهما هي العامل الفعال في تشكيل تاريخ اليمن وتاريخ الحجاز .

وكان الإمام المظهر بن شرف الدين أكثر الأئمة مقاومة للحكم العثماني ، فقد دخل في كثير من الحروب مع الدولة العثمانية ، وفي سنة ٩٧٥ هـ كانت اليمن في أشد حالات الاضطراب وسقط والى مراد باشا قتيلا واستولى الإمام المظهر على صنعاء .^(١)

وبعد وفاة المظهر وجد الأشراف الطامعين في الحكم بموته متفلسا

(١) أحمد السعيد - معجم الاسرات الحاكمة ج ١ ص ٢١٧

للوصول إليه ، وسط عدد من الأشراف في القسم الأعلى من اليمن سلطتهم على ما تحت أيديهم ، وصار كل منهم لا يعترف بالآخر ولا يرتبط معه بشيء رابط ، واتاح ذلك للقبائل فرصة التمرد والخلاف على الولاة أنفسهم ، وقامت حروب بين الأمراء والقبائل في مناطق عديدة وبين الأمراء فيما بينهم ، واضطربت الأمور وقام مع ذلك دعاة آخرون من الأشراف ، منهم السيد علي بن إبراهيم من أولاد القاسم الرسي ، وكان محتسبا ^(١) ، وعرف بالعابد والسيد محمد بن إبراهيم من أولاد القاسم الرسي ، وكان محتسبا أيضا ، وعرف بالعالم ، وكانت دعوتهما معا في بلاد الشرف من بلاد حجة ، ويظهر أنهما تلازما في الدعوة وسرعان ما تخليا عن الدعوة وانتهى أمرهما ، ثم دعا الحسن بن علي بن داود ابن الحسن بن الإمام علي بن المؤيد جبريل في سنة ٩٨٦ هـ وتلقب بالناصر ، كانت دعوته في النصف من رمضان من الهجر من بلاد الأهنوم ، وكانت له فطنة في اقتباس العلوم وتحصيل منطوقها ، درس المختصرات وأحاط بشروحها في أكثر الأوقات حتى في أيام اشتغاله بالجهاد في دعوته في أقطار اليمن وملك عدة حصون وكانت قبائل الأهنوم وعذر في وقته أهل قوة وكثرة وعدة وسلاح ممن البنادق وغيرها ، وكانوا على خلاف مع أولاد المطهر ، فأطاعوه طاعة صادقة ، وحشهم على ذلك ، وأرسل رسله بالرسائل إلى كل عالم فاضل وكتب إلى لطف الله ابن المطهر وهو في ذي مرمر " فأجاب بغير المراد فاضطربت على أولاد المطهر البلاد واهتز لتلك الدعوة الجبال والوهاد " ^(٢) وكتب إلى محمد بن شمس الدين

(١) محتسبا : من اكتفى بالله عن غيره .

(٢) الكبسى : اللطائف السنوية ص ١٠٩

فلم يجب عليه ، وكتب إلى علي يحيى فكانت معه الأجابة والدخول فى طاعته ،
وسلمت إليه عدة حصون . (١)

اكتفى الحسن بن داود من الأمراء آل شرف الدين بالاعتراف به فى
أول الأمر ، ولم يحاول مد نفوذ إلى مناطق نفوذهم فى بلاد حجة وغيرها ، كما
عمل الإمام على إبقاء بعض أبناء المطهر فى مراكزهم أملا فى تعاونهم معه ، رغم
أن معارضة الأهالى لهؤلاء الحكام كانت من الأسباب التى جعلتهم يلتفون
حول الإمام الحسن .

لكن الحال لم يلبث أن تبدل بين الإمام الحسن وأبناء المطهر إلى
خلاف وعداء سافرين أديا إلى نشوب حروب بينهما ، ما كانت تخبوا آثارها حتى
تضطرب من جديد ، وسفكت فيها دماء كثيرة من الزيديين ، فان القوة الزيدية
أصبحت منقسمة ، واستمر هذا الحال حتى جاء الوالى العثمانى الوزير حسن
باشا سنة ٩٩٨ هـ / ١٥٨٠ م . (٢)

إن دعوة الإمام الحسن هنا كشفت عن مدى ضعف الأمراء الزيديين وعن
تخلى الأهالى عنهم واستيائهم من حكوماتهم ، وهذا ما لمسَه حسن باشا الذى
تولى أمر اليمنيين فاستغل هذه الأوضاع للتخلص منهم جميعا ، ومد سيطرته
إلى المناطق الشمالية .

وفى سنة ٩٩٠ هـ / ١٥٨٢ م أُرُفِد حسن باشا فتح الحرب على آل المطهر
والسيد أحمد بن الحسين المؤيدى صاحب صعدة ، وقد اتبع خطة سياسية

(١) الشرفى - اللالىء المضيفة ص ٦٧

(٢) محمد الحداد - تاريخ اليمن السياسى ص ٣٢٣

محكمة لتفتيت الجبهة اليمنية التي تقف ضده ، فعمل على منع اتصال عناصر هذه الجبهة أو التعاون بين قواتها ، وما ساعد على ذلك ضعف هذه الجبهة في حد ذاتها ، وضعف عناصرها ، فبعد أن استولى على حصن ظفار وتحصينه لمدينة عمران ، أرسل قواته في وقت واحد إلى على يحيى ولطف الله ، وفي نفس الوقت أرسل قوات أخرى في ظفار أمام قوات أحمد بن الحسين صاحب صعدة وذلك لإشغال كل منهم عن مساعدة الآخر .

كما فعل نفس الشيء مع على يحيى بعد أن حاصر كلا من ثلا ، ومُدع فسي وقت واحد ليضطر على يحيى من توزيع جيوشه بين الحصنين فلا تقوى على مجابهة الجيوش العثمانية ، وقد ركز حسن باشا حصاره على حصن مُدع لأنه أكثر توسطاً بين ممتلكات باقي الأمراء ، فقد حظ الأمير الكخيا سنان على حصن مُدع ، وحاصره من الجهات الأربع ، ورغم ذلك فقد استمر حصار حصن مدع حوالى ثمانية أشهر ولم يتم تسليمه للعثمانيين إلا بعد عقد الصلح مع على يحيى ، وذلك يرجع لدفاع المحاصرين عن الحصن .^(١)

ولما دخلت سنة ٩٩٢ هـ / ١٥٨٤ م نقض الباشا حسن الصلح الذى بينه وبين على يحيى من غير سبب ، فوجه العساكر إلى مسور وأمر محمد بن شمس الدين صاحب كوكبان بان يشن الغارات من جهته ، وكان ذلك ضمن الخطة التى اتبعها حسن باشا لتفتيت الجبهة اليمنية ، وتمثل فى ضرب الزعماء الزيديين بعضهم ببعض مستغلاً فى ذلك إثارة الخلافات القديمة من جهة ، واغرائهم لتحقيق اطماعهم على حساب الأمراء الآخرين من جهة أخرى ، وكانت

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح - مخطوط ص ٧١

ظروف اليمن في ذلك الوقت تساعد حسن باشا على تنفيذ تلك الخطة ، نظرا لكثرة الخلافات والمنازعات بين الأمراء الزيديين بعد وفاة المطهر كما سبق التنويه عن ذلك .

كان في حصن مسور " ولاية ورتيه " ^(١) من عهد المطهر بن الإمام ، ثم جعل على يحيى على هذه الرتبة ابن أخيه محمد بن الهادي بن المطهر ، ولما كان هناك خلاف بين علي يحيى ومحمد بن الهادي ، علم به حسن باشا فاستغله وأرسل لمحمد بن الهادي يخبره بان يفتك بعلي يحيى على أن يكون له حصن مسور ملاده ، وتم الأمر على ذلك ، ولم يشعر علي يحيى الا وجيوش السلطنة على مسور .

كما أننا نلاحظ الدور الذي قام به محمد بن شمس الدين حاكم كوكبان في إضعاف المنطقة الشمالية أمام العثمانيين ، فقد نجح في أن يجسّد ب عبد الرحمن بن المطهر حاكم حجة ، ثم أخيه غوث الدين حاكم ظفار إلى صفوف حسن باشا بعد أن كانا قد وقفا إلى جانب أخيهما علي يحيى عند بدايئة حصار مدع . وقد رحب حسن باشا بتقريب هذين الأميرين ، بعد أن أغرى عبد الرحمن بن مطهر إن هو ارتبط به فانه يساعده على استرداد أملاكه من أيدي علي يحيى التي كان قد ضمها إلى ممتلكاته في السابق .

كما عمل أحمد بن شمس الدين علي تقريب عبد الله بن المطهر الذي كان يقيم عنده في كوكبان بعد قيام النزاع بينه وبين الإمام الحسن .

(١) رتبته : مجموعة من العسكر تحت امرة رئيس لهم .

وكذلك اتخذ حسن باشا وسيلة أخرى فى تنفيذ تلك الخطة لكى يملورها فى الوقوف أمام الأمراء الزيديين الذين تصدوا له ، فقد تعمد الا يسمح لأحد من هؤلاء بأن يعتبر نفسه مثالا للآخرين ، أو يتحدث باسمهم . فبعد أن نجح فى الفصل بينهم وانشغال كل منهم فى حماية ممتلكاته ، أجبر على يحيى على عقد الصلح معه وعلى أن يكون هذا الصلح خاصا به دون أن يتضمن باقى حلفائيه مثل أخيه لطف الله ، وأحمد بن الحسين ^(١) وهذا ما شجع لطف الله على المجاهرة بعدائه للعثمانيين بعد أن رأى قيام التحالف بين الأمراء فى الشمال والدولة العثمانية ، وهم أحمد بن الحسين وعلى يحيى وعبد الرحمن وغوث الدين فسحب جيوشه التى كانت تقف إلى جانب العثمانيين أثناء حصار محمد بن ناصر فى حصن ظفار ، وبدأ فى تأليب القبائل ضدهم .

ويرجع موقف لطف الله بن المطهر هذا لقرب ممتلكاته من صنعاء العاصمة وبالتالي يصبح قادرا على تهديد طرق مواصلات العثمانيين للمنطقة الشمالية مما دفع حسن باشا إلى إعلان الحرب ضده ، مستعينا ببعض قبائل خـولان المقربين للطف الله بعد أن أغراهم بالمال والوعود للتخلي عن لطف الله الذى كان قد استطاع أن يحرك تلك القبائل ضد العثمانيين ويجعلهم يقطعون طرق مواصلاتهم وتموينهم .

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح (مخطوط) ج ٢ ص ٩٠

فقد تخلت تلك القبائل عن لطف الله وأوقعت به الهزائم ، واحتلست
أحد حصونه .

وظل الحال كذلك إلى أن عقد الصلح مع لطف الله في سنة ٩٩١ هـ =
١٥٨٣ م بعد أن يئس من مساعدة أخيه على يحيى الذى كان قد عقد الصلح
بدوره مع حسن باشا على أن ينتزع ممتلكات أخيه لطف الله من بين يديه حتى
يبعد خطورته عن صنعاء ، وكان ذلك ما نص عليه فى صلحه معه .

وهذه الخطوة مهدت الطريق أمام حسن باشا من التوجه إلى صنعاء ،
فقام بإرسال قوة كبيرة تحت قيادة الأمير الكخيا سنان لمهاجمة أحمد بن الحسين
الذى كان قد تحصن بجبل الشرفة جنوبى صنعاء حيث دارت الحرب بين
الطرفين ، وانتهت بمقتل أحمد بن الحسين وبهزيمة جيشه .

أدت هذه الهزيمة إلى سقوط صنعاء وما يليها شمالا حتى نجران فى
أيدي العثمانيين ، إذ فرت حينذاك بقايا أسرة أحمد بن الحسين لا تلوى
على شىء ، إلى حصن أم ليلى القريب من صنعاء ، وتحصنت به ^(١) فأرسل الكخيا
سنان قوة صغيرة لا خضاع هذا الحصن وتفرغ هو لا خضاع باقى المنطقة الشمالية ،
وبذلك تحقق أقصى اتساع للسيطرة العثمانية فى اليمن فى ذلك الوقت .

بعد ذلك تفرغ حسن باشا للقضاء على الإمام الحسن بن داود .

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٢ ص ٩٠ (مخطوط)

فبعد أن التجأ أحد أبناء أحمد بن الحسين إلى الإمام بالأهـنوم ، أعانـه
الإمام ببعض أتباعه الذين ساعدوه على مناوشة العثمانيين حول حصن أم ليلـى
الأن سنان الكخيا استطاع أن يقضى عليهم فأرسل حسن باشا ليقرر الصلح بينه
وبين الإمام كما فعل مع على يحيى ولطف الله من قبل ، إلا أن الإمام لم يقبل
بهذا الصلح واستعد لمقاطعة الأمير سنان ، فلم يشعر الإمام إلا بجنود العثمانيين
قد توسطوا جبل الأهـنوم من خلفه ، فأمر أصحابه بالرجوع إلى حصن القـدوم
حيث حاصره الكخيا سنان ، وكان ذلك الموضع قليل الماء ، فبعد ثلاثة أيام
جرت المخاطبة في خروج الإمام وتسليم نفسه إلى الأمير سنان على أن يقيم في صنعاء
مع بعض أتباعه فلما وصل إلى صنعاء أودع في السجن ومعه الشيخ و هان المذرى
والفقيه محمد بن يحيى سلامة وذلك في رمضان سنة ٩٩٣هـ = ١٥٨٥ م (١)

وفي العام التالي أى سنة ٩٩٤هـ = ١٥٨٦ م اتخذ حسن باشا خطوته
الأخيرة ضد أبناء المطهر وغيرهم ، للتخلص منهم وذلك بعد أن أنهك قواهم
تماما وبعد أن تأكد من عدم مساندة الأهالى لهم ، وعدم مساعدة أى واحد منهم
للآخر ، فقد دعا حسن باشا لطف الله بن المطهر بالمجى إليه من الشرف لمفاو
فجاء إليه وكان معه أخوه حفظ الله ، وجاء أيضا على يحيى من أجل أن يحصل
على عهد بالأمان من حسن باشا ، وكان غوث الدين وهو أخ لطف الله محاصرا ،
وكان يأمل في الحصول على الأمان أيضا وبالإمارة على الشرف . (٢)

(١) يحيى بن الحسين - أبناء أبناء الزمن ص ١٤٠ ، ١٤١ (مخطوطة)

(٢) الشرفى - اللالى المضيفة ص ٩٩ (مخطوطة)

فلما وصلوا عنده اصطحب حسن باشا الأمير لطف الله بن المطهر مدعيها
أنه لا يريد الا مجرد الطواف في الشرف وصعدة (١) ، واصطحب كذلك أولاد المطهر
الآخرين حتى استقر في (الرقعة) (٢) .

وفي اليوم الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٩٩٤ هـ = ١٥٨٦ م طلب الأمير
الكخيا سنان أولاد المطهر وكافة الأمراء والأعوان والأشراف إلى خيمته ، فلمّا
استقربهم المقام أخرج أوامر شريفه من الحضرة السلطانية ، تتضمن القبض على
أولاد المطهر: لطف الله - علي يحيى - حفظ الله - غوث الدين ، وارسالهم
إلى الأستانة ، ثم أمر حسن باشا بإيداعهم سجن صنعا الذي كان مشهورا
حينذاك باسم الدار الحمراء .

وبعد عدة أشهر أي في ١٥ شوال سنة ٩٩٤ هـ = ١٥٨٦ م أمر حسن
باشا بارسال أبناء المطهر إلى ميناء المخا ومعهم الإمام الحسن وأحد أتباعه
وهو الشيخ وهان العذري ، ومحمد بن الهادي بن المطهر ، ثم أرسلهم من
هناك إلى استانبول ، وذلك في عهد السلطان مراد الثالث فلما وصلوا إلى
الأستانة أودعوا في (يَدَى قَلَه) (٣) فأقاموا بها إلى أن وافقتهم المنية جميعا .

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٤١ (مخطوطة)

، عيسى بن لطف الله - روح الروح ص ٧٣ (مخطوطة)

(٢) الرقة = الأرض التي ينصب عنها الماء ، ومن الواضح من سياق المعنى
أن الرقة موضع باليمن ، خلاف الرقة المشهورة بالعراق .

(٣) يَدَى قَلَه - هي قلعة مشهورة في وسط استانبول .

يروى أن (الإمام) القاسم بن محمد كان يومئذ في صحبه الإمام الحسن ابن عيسى ، ووصل معه إلى ميناء المخا ، فمنع الأمير الكخيا سنان (الإمام) من السير مع الراحلين ، فرجع وهو ذلك اليوم فرد من أفراد الناس . ثم لما وصل صنعاء سكن بها وجلس في مسجد داود للقراءة والدرس . (٢)

كان القضاء على أولاد المطهر والإمام الحسن ونفيهم إلى الأستانة ارهاصا لدعوة الإمام القاسم بن محمد وإخلاؤه للطريق أمام دعوته .

وكان نفي أولاد المطهر إلى الأستانة من أهم العوامل التي أدت إلى هدوء الأحوال في المنطقة الشمالية لبضع سنوات ، أي إلى ظهور (الإمام) القاسم ابن محمد سنة ١٠٠٦ هـ = ١٥٩٧ م .

ويتضح من هذا العرض أن موقف أولاد المطهر والأمراء اليمنيين كان سبب ما وصلوا إليه من اختلاف في الرأي وتفريق كلمتهم ، فمنهم من حارب أخاه ومنهم من مال إلى العثمانيين ، ومنهم من ثار على الإمام الحسن بن علي المؤيد وحاربه ، لذلك ضعف أمرهم وتفرق شملهم ، وكيفما كان الأمر فبعد أسر أولاد المطهر والإمام الحسن ، استقرت الأمور لحسن باشا ، أو بمعنى آخر توطدت السيطرة العثمانية في اليمن ، لأن الاستقرار في اليمن يعني تحقيق سيطرة الحكم العثماني فيها ، إلى جانب تحقيق الهدوء في ربوع البلاد ، وهما أمران لم يتحققا تماما في اليمن قبل ذلك ، وقد تضافرت عدة عوامل لجعل هذه الفترة

تتميز عن غيرها من فترات الحكم العثماني في اليمن ، وفي جعلها تتصف بالهدوء ،
والاستقرار بالنسبة للفترات السابقة ، فمن ناحية بدأت هذه الفترة بداية قوية ،
لأنها كانت تستند على جهود حسن باشا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ولي الحكم
في اليمن في هذه الفترة ولاية أقوى ، استطاعوا أن يحافظوا على النتائج الحاسمة
التي أحرزها حسن باشا والكخيا سنان ، بالإضافة إلى ظروف اليمن الداخلية ،
التي سببتها كثرة الحروب ، ووفاة المطهر ، وعدم وجود شخصية قوية تستطيع
مناوأة الحكم العثماني ، بل خلفه أبناء ضعاف تنازعوا الأمر فيما بينهم ، فضعف
شأنهم وسهل على العثمانيين القضاء عليهم واحدا تلو الآخر .

ففي إقليم الحجرة مثلا وإقليم ريمه ويافع قامت عدة انتفاضات ضد الحكم
العثماني ، وذلك بعد ترحيل أولاد المطهر إلى الأستانة ، وقد استمرت هذه
الحروب لمدة طويلة وأخذت الكثير من جهد حسن باشا وسنان الكخيا ، واستمرت
هذه الحروب في يافع لمدة أربع سنوات متوالية ، حتى استطاع سنان القضاء
عليها وذلك يرجع لعدة أسباب منها : أن هذه المناطق جبلية يسهل على
الأهالي الالتجاء إلى قمم الجبال للتحصن بها ، بالإضافة إلى أن العثمانيين
استعملوا الشدة والقسوة في القضاء على هذه الانتفاضات ، فان الكخيا سنان
الذي اعتمد عليه حسن باشا في هذه الحروب قتل الألوف من الأهالي ، وهدم
القرى ، وجمع الرهائن بأعداد غفيرة تعد بالمئات ، والآلاف ، كما كان يعتمد
أحيانا " أن تكون الرهينة مثلثة العدد زوجة وبنتا وذكر من الولد " (١) ذلك

(١) ال وزعي : إلا حسان في دخول اليمن في ظل عدالة آل عثمان ص ٢٢٤
(مخطوط)

امعانا في اذلال الأهالي وفي كسر شوكتهم ، ولكن هذه القسوة كانت سبباً
في تضاعف استبسال الأهالي والدفاع عن أنفسهم ، مما أدى الى اطالة مدة
هذه الحروب .

ورغم ذلك كله فقد استطاع سنان الكخيا القنماء على تلك الحروب جميعها
واستطاع أن يفتح اليمن بأسره في سنة ٩٩٩ هـ = ١٥٩١ م وبذلك سكتت عين
حسن باشا الفتن وساعدته الأقدار ودانت له الأقطار وشرع في تقليل العسكر^(١)
ولما دخل سنان الكخيا الى صنعاء في شعبان سنة ١٠٠٠ هـ = ١٥٩٢ م أنعم
عليه حسن باشا وعلى قادته وجنوده بالخلع والترقيات الوفيرة .^(٢)

يقول العرشي " استقرت الأمور للوزير حسن وهدأت النواذب وانقطعت
الأشغال من الزمان " .^(٣)

ومما يدل على هذا الهدوء أيضاً قول أحد المعاصرين لهذه الأحداث
وهو يحيى بن الحسين في مخطوطته أنباء أبناء الزمن " وفي سنة ١٠٠٠ هـ سكن
المعارضي للوزير حسن ، وجرت أوامره وأقلامه في جميع قطر اليمن ، واستراح الناس
وسكنت الفتن ومال الناس الى الوزير حسن باشا ، وبذل العطاء والصدقات من
الدراهم والخلع وفي سنة ١٠٠٥ هـ تم بناء البكيرية^(٤) ، في مدينة صنعاء اليمن
التي اعتنا بإنشائها الوزير حسن " .^(٥)

(١) المحبى = خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادى عشر ج ٢ ص ٧٥

(٢) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٢ ص ٩٢ (مخطوط)

(٣) العرشى بلوغ المرام في شرح مسك الختام ص ٦٥

(٤) البكيرية - مدرسة في صنعاء نسبة الى منولى بنائها وهو بكير أغا

(٥) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٤٢ (مخطوط)

ويمكن أن نرجع الفضل في هدوء هذه الفترة بالذات إلى السياسة التي اتبعها حسن باشا ، الذي يعتبره بعض المؤرخين ، أنه فاتح اليمن الثاني ، فان قوة شخصية حسن باشا وطول خبرته جعلته يتمكن من حزم الأمر في اليمن ، فقد كان حسن باشا أحد ماليك السلطان مراد الثالث الخاصة ، ان دخل في خدمته منذ أن كان وليا للعهد فأتاح له هذا فرصة التقلب في المناصب المختلفة ، وقد تولى حسن باشا أمر اليمن وهو في الرابعة والأربعين من عمره كذلك مساندة الدولة العثمانية لحسن باشا في اليمن في هذه الفترة رغم ما كانت تعانيه الدولة في مركزها من اضطرابات ، الا أنها كانت ما تزال تشعر باهمية اليمن بالنسبة للعالم الاسلامي ، هذا بالإضافة إلى ضعف الأحوال اليمنية الداخلية وانهيار الأحوال الاقتصادية ، فقد افتقدت اليمن في هذه الفترة الشخصية القوية التي تستطيع أن يجتمع حولها أهل اليمن ، فقد عمل حسن باشا على التخلص من العناصر القوية من أبناء المطهر وغيرهم من الأمراء ، ومد النفوذ العثماني المباشر إلى المنطقة الشمالية أي إلى صعدة ونجran شمالا ، كما اهتم بتقريب اليمنيين إليه ، ونشر العدل بينهم ، كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وذلك مع استخدامهم في الوظائف المختلفة ، وتقديم الهدايا والمرتبات إلى رؤساء وشيوخ القبائل ، وخاصة في الشمال ، وكذلك اهتم باقامة المنشآت العمرانية المختلفة ، مثل بناء أو تعمير المساجد ، أو حفر الآبار والقنوات لتوصيل المياه ، أو تجديد حفرها ، أو بناء المحطات التجارية ، وتمهيد الطرق وتأمينها ، الا أنه وجه الضربات العنيفة لكل انتفاضة في أقاليم اليمن المختلفة .

وجد ير بالذكر أنه وان كان حسن باشا قد نجح في توطيد الحكم في اليمن

وحقق الاستقرار فقد كان ذلك فى السواحل والمدن والمراكز والحصون الهامة ، أما فى المناطق البعيدة عن هذه المراكز وخاصة الجبلية ، فقد كانت لا تخضع الا لرؤسائها المحليين ، وهم شيوخ القبائل .

لذلك ظلت علاقة حسن باشا بهذه المناطق أما علاقة عدائية ، وأما علاقة ودية نتيجة تقديم الهدايا والمرتببات إلى هؤلاء الشيوخ أو ادخالهم فى خدمة الجيوش العثمانية ، لذلك لم يكن غريبا أن تظهر فى هذه الفترة بعض الحركات التى تقف فى وجه حسن باشا والدولة العثمانية .

ففى سنة ٩٩٤ هـ = ١٥٨١م ظهرت دعوة الإمام عبد الله بن على بن الحسن بن أمير المؤمنين فى الشرف الأعلى بعد أسر الإمام الحسن وتملك الجهات الصعدية شمالا بعيدا عن صنعاء خوفا من سنان الكخيا ، ولما أظهر دعوته لم يكن لها كبير أثر .^(١)

فلما سمع بدعوة الإمام القاسم بن محمد سنة ١٠٠٦ هـ سار إليه وأعلن أنه معاضد له ضد العثمانيين .

لذا لم تهدأ اليمن تماما ، رغم نجاح حسن باشا إلى حد كبير فى تهدئة الأحوال ، والقضاء على أى حركة مناوئة له فى هذه الفترة ، وذلك يرجع إلى طبيعة اليمن الجبلية من جهة ، وإلى ارتفاع شأن الأئمة الزيديين على يد المطهر وخاصة بعد أن استطاع أن يمد سيطرته حتى عدن ، وبناء على تركيز المذهب

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٤١

الزيدى وانتشاره فى شمال اليمن ، وسبب العقيدة الزيدية التى أشرنا اليها من قبل ، فانه كان لابد من ظهور إمام ، لذلك لم يكن غريبا أن يظهر الإمام القاسم بن محمد ويعلن إمامته ، فى فترة خلا اليمن فيها من الأئمة ، واستطاع أن يقود الزيدية اليمنية ويقف فى وجه الحكم العثمانى ، إلى أن استطاع أحد أبنائه من اخراجهم من اليمن سنة ١٦٣٥ م وهذا ما سنوضحه فى الفصول التالية ، ان شاء الله .

الفصل الأول الإمام القاسم

- أ - نسب الإمام القاسم ونشأته وظهور دعوت سنة ١٠٠٦ هـ .
- ب - عروب الإمام في الكوفة الأولى مع حسن باشا .
- ج - استقرار الإمام في الودعة سنة ١٠٠٨ هـ وبقية عروب الكوفة الأولى
- د - اشتداد الحصار على شراة سنة ١٠٠٩ هـ وفروج الإمام إلى برط

يعتبر الإمام القاسم من أهم الشخصيات اليمنية التي ظهرت في بداية القرن السابع عشر الميلادي ، نظرا لقوة شخصيته ووزارة علمه ، ولدوره الكبير في تاريخ اليمن ، لذلك لا بد من التعرف أولا على نسبه ونشأته التي كان لها أكبر الأثر في تكوين هذه الشخصية التي نحن بصدد الكلام عنها .

هو الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد بن أحمد بن الأمير الحسين بن علي بن يحيى بن محمد بن الإمام يوسف الأصغر ، الطقب بالاشل بن الإمام الداعي إلى الله الناصر لدين الله أحمد بن طباطبا بن اسماعيل الديهاج ^(١) بن ابراهيم بن الحسن بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ^(٢)

يكنى أبا محمد ، وقد ولد في ١٢ صفر سنة ٩٦٧ هـ = ١٥٥٩ م بالشا هل من بلاد الشرف ، وكان والده محمد بن علي يسكن جهات بني مديحة ، من بلاد الشرف الأسفل وفيها تزوج أم الإمام القاسم .

كان والده يعمل في عسكر المطهر بن شرف الدين ، وقد خاض معنه حروبا كثيرة ضد الباشا سنان الأعظم . ^(٣)

(١) الديهاج = شرف النفس وحسن البشرة
(٢) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ٤ (مخطوط)
(٣) المحبي - خلاصة الأثر ج ٣ ص ٣٩٣

فقد رأى الإمام القاسم منذ صغره هذه الحروب ، ورأى فى أبيه المجاهد الشجاع الذى وقف يقاتل للدفاع عن مذهبه الزيدى ، وأرضه اليمنية ، رغم نزاهة السبب الذى أتى بالعثمانيين إلى أرض اليمن ، غير أن الزيديين كانوا يرون فيهم المفتصبين لأراضيهم ، المخالفين لعقيدتهم الزيدية .

ولما بلغ الإمام القاسم سن العاشرة قرأ القرآن الكريم ، وكانت فيه فطنة وفصاحة ، وقد أخذ العلم عن كبار علماء المذهب ، كما اتصل بالإمام الحسن بن على بن داود ، وظل ملازماً له حتى نفى الأخير إلى الأستانة .

ومن أشياخه أيضاً السيد أمير الدين عبد الله بن نهشل بن المطهر ، وينتهى نسبه إلى يحيى بن الحسين ، وقد أخذ عنه جل العلماء والإمام القاسم وأولاده من بعده ، والسيد الحسن بن شرف الدين ، والسيد عز الدين بن على ابن عبد الله .

أما علماء عصره فمنهم السيد عامر بن على ، عم الإمام الذى أجاب دعوة ابن أخيه وخاض معه معارك كثيرة ، وبذل أمواله وروحه فى سبيل نصرته .

ومنهم السيد ابراهيم بن المهدي بن على بن جحاف ، وولده المهدي ، وهو أحد شيوخ الإمام المؤيد ، والسيد محمد بن عبد الله الطقب عشب ، والسيد الحسين بن على بن ابراهيم الجحافى القاسمى ، وغيرهم كثير .

أما نشأته : فقد نشأ معروفا بالطهارة وقوة القلب والبطش ، ويقال عنه أنه كان لا يروعه شيء ما يروع الصبيان ^(١) ، وقد توسمت فيه عمته أم الغيث بنت علي النبوغ والفتنة والتفهم ، فخافت عليه ، وأرسلت في طلبه في الرغيل غربي مسور ، وكانت متزوجة من السيد أحمد بن الحسن الخطيب ، وكان من أهل الجاه واليسار مع العلم الكثير ، فأتى الإمام قراءة القرآن ، وتعلم أصول الدين وكان يقرأ معه عمه عامر بن علي ، فنشأ في بيئة كلها تقى وصلاح مما انعكس على شخصيته ، فقد ذكر الشرفي في مخطوطته اللآلئ المضئية عن نشأته قوله :
 " نشأ نشأة التابعين من سلفه عليهم السلام في الحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " . ^(٢)

وبالفعل عندما أصبح إماما أبطل كثيرا من البدع السائدة ، كالتبرك بالأشجار وغيرها ، وأقام الحدود ، ففي سنة ١٠١٧ م تقريبا كانت هناك شجرة بالقرب من شام مور يقصدها البدو من شمال اليمن للزيارة والتبرك وتقديسهم الذبائح ، ويعتقدون فيها ، فجمع الإمام العسكر ، ثم قصدها فقطعها بعسد الإقامة عندها ثلاثة أيام ، وجمع حطبها وأحرقها ^(٣) .

وسنرى في الخطابات الموجهة لأولاده الكثير من الوصايا ، التي تدل على مدى تمسكه بأهداب الدين ، فقد أورد الجرموزي مؤلف سيرته الكثير منها ،

-
- (١) الجرموزي - النبذة المشيرة ع ٤ (مخطوط)
 (٢) الشرفي - اللآلئ المضئية ع ١٤٨ (مخطوط)
 (٣) الجرموزي - النبذة المشيرة ع ١٩٥ (مخطوط)

ففى رسالة موجهة لولده محمد وهو فى شهارة قوله : " انى أوصيك أن لا تترك درس القرآن يوما واحدا ، ولو فى كل يوم جزئين أو جزء واحد لا تترك ذلك أبدا ، وعليك بصلاة الجماعة فانها من الواجبات ، ولا يغرك قول من يقول انها سنة ، عليك بملازمة العلم وطلبه فانه من أكبر الفرائض ، واستعن على ذلك بتقوى الله سبحانه ، لأن الله يقول ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، والفرقان هو الفهم والفطنة . . . " ^(١) الى آخر هذه الوصية التى يظهر فيها أثر النشأة الصالحة وانعكاسها على المجتمع وتربية الجيل فى المستقبل ، وهناك الكثير من الأمثلة التى تعكس شخصية الإمام ، وأثر التربية الاسلامية فيه ، وردت فى الخاتمة عند التعرض لتحليل شخصية الإمام القاسم .

أما صفات الإمام : كان وسيط القامة ، معتدليا ، الى السمن أقرب ، واسع الجبهة ، عظيم العينين كبير السنتين أسمر اللون ، واسع الفم ، أشم الأنف طويل اللحية ، عظيمها ، ضخم الذراعين أشعرهما ، فصيح العبارة سريــــــــع استحضار الأدلة ، كثير الحلم ، يصبر على المكاره ، ويتحمل العظام ، كثير الورع .

أما علمه : فمما لا يفتقر الى بيان ، والدليل على ذلك كثرة مؤلفاته ، ان يعتبره بعض المؤرخين أنه مجدد فى المذهب الزيدى ، وصاحب المذهب المختار ^(٢) وسنتعرض لهذه المؤلفات لنعرف مناسباتها ، ونظريات فى المذهب الزيدى .

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٤٢ (مخطوط)

(٢) أحمد حسين شرف الدين - تاريخ اليمن الثقافى ج ٤ ص ٢١٢

أما ملبسه : فكان يلبس المتين من الثياب في أغلب وقته ، ولباسه عبارة عن قميص قصير أسود اللون مشقوق من الأمام وسروال أسود . (١)

أشرنا إلى أنه بعد أسر الإمام الحسن بن داود ونفيه إلى الأستانة أصبح مكان الإمامة خاليا ، ولم تكن هناك شخصية تناهض العثمانيين ، فأخذ أصحاب الرأي من الزيدية في التفكير فيمن يتولى هذا الأمر الشاق ، نظرا لوجود والي عثماني قوى هو الباشا حسن وكتخداه سنان ، وتعاليم المذهب سبب الزيدى التي أشرنا إليها هي التي ساعدت هؤلاء على التفكير في اختيار شخصية قوية للخروج على العثمانيين ، فإن المذهب يبيح الخروج على السلطة القائمة إذا كان هناك ما يبرر ذلك ، مثل فساد هذه السلطة أو اضطراب أحوالها ، وأن يخرج أحد هؤلاء الأشراف جاهرا بامامته ، حاملا سيفه ، مدافعا عن هذه الإمامة ، ومن ثم وقع اختيارهم على الإمام القاسم بن محمد ، لما رأوا فيه من جديته وتقديره للمسئولية التي رغبوا في القائها على عاتقه .

وقد أظهر الإمام تردده في قبول الإمامة ، وينقل لنا قوله أحد المعاصرين وصاحب سيرته الجرموزي فيقول " كانت الإمامة ما تعرض في فكرى لما أرى من شرارة الخلق وقوة سلطان الترك على الأرض " (٢)

وكان ممن أشار عليه بالقيام السيد على بن إبراهيم صاحب الشاهل والسيد صالح بن عبد الله بن داود العرياني القاسمي ، وقد أنشأ هذا الأخير

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ع ١٥٨ (مخطوط)

(٢) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ٤٢ (مخطوط)

قصيدة حث فيها الإمام على القيام ، مطلعها :

ضاع الوفا وضاعت بعده الهمم والدين ضاع وضاع المجد والكرم
(١) أحكامهم في أمور الدين منيعها آراؤهم وكتاب الله بينهم

وبعد هذا الالتحام منهم قبل الإمام هذا الأمر ، فأخذ يتنقل من مكان إلى آخر من بلاد الشرف ، ثم دخل صنعاء متخفياً ، يقرأ القرآن ويدعو الأعوان ، في مسجد داود ، وكان العثمانيون قد شعروا بخطورته قبل ظهور أمانته ، فأخذوا يجتهدون في التجسس عليه ومطاردته ومذل الأموال الكثيرة في سبيل ذلك ، وقد استعملوا التنجيم والمنجمين ليدلوهم على معرفة مكانه .^(٢)

وقد ظل الإمام عدة سنوات متخفياً ، يطوف الأقاليم الشمالية حاثاً الأهالي على الانضمام إليه ، عاكفاً على العلم والدرس والتأليف^(٣) ، وكان تارة يختفى عند ما يشتد به الخوف مع جماعة من خالصي أصحابه الذين يأخذون عنه العلم إلى فلاة من الأرض بحيث تنقطع أخباره عن الناس ولا يدرون أين هو ، فتمضي أيام على ذلك ولا يشعر العثمانيون إلا وهو في البلاد اليمنية قد استولى على مواضع ، وما زال هكذا مع الإقدام والصبر لا يقدر عليه أحد ، حتى أنه كان في بعض الأوقات لا يجد هو وأصحابه ما يأكلون عند اختفائهم ، فيأكلون من نبات الأرض ، وقد يكابد الشدائد فلا يظن أحد أنه لا يعود بعد ذلك إلى مناجزة العثمانيين ، وإن هو قد وشب على بعض المواضع .^(٤)

(١) الشرفي - اللآليء المضيئة ص ١٤٦ (مخطوط)

(٢) الشرفي - اللآليء المضيئة ص ١٤٨ (مخطوط)

(٣) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ٤٦

(٤) الشوكاني - البدر الطالع ج ٢ ص ٤٨



انطلاق دعوة الإمام القاسم في سنة ١٠٠٠ هـ من جبل جديده قاره

وكان أول ظهور دعوة للقاسم بن محمد من جبل جديد قاره ، إحدى قرى إقليم الشرف جنوبى (صعدة) ^(١) وذلك فى ٦ صفر سنة ١٠٠٦ هـ = ١٥٩٧ م ، وإن كان هناك من يذكر أن الإمام القاسم قد دعا لنفسه فى خلال شهر المحرم من نفس السنة ، ولكنه لم يستطع أن يجاهر بدعوته إلا فى أوائل شهر صفر ، بعد أن ساندته أحد مشايخ هذه المنطقة وهو الشيخ أبو زيد بن سراح شيخ بنى سنحان ، وقد أشار عليه اتباعه أن تكون دعوته من بنى سنحان لما فيه من نصرة القبائل ، ولما لموقعها من أهمية ، ففيها جبال حصينة ، ولبعدها عن مركز العثمانيين ، وسهولة الخروج منها والدخول إليها ، فاستصوب الإمام هذا رأى ، ووصل إلى هناك معه ستة من الرجال فى ضيافة أبو زيد ، لكن الشيخ أبو زيد كره القيام والدعوة من بلده ، ورجح للإمام أن يطلع إلى جبل قاره ، فوصل إلى موضع يسمى وادى الحمر بالقرب من جبل قمر ، وبايعه الناس ، وأول من بايعه من الناس رجل من مشايخ قاره يسمى الشيخ عبد الله بن مسعود ، وكان باسم الوجه وافر اللحية فتبعه الإمام به ، وتبعه بقية الناس الذين حضروا ذلك الجمع ، وكانوا حوالى أربعين رجلا ، وقد أمد الشيخ زيد الإمام ببندقيتين وبازود ورصاص ، إذ أن البنادق فى تلك المدة لم تكن متوفرة إلا مع أرباب الدولة ، وقرب إليه فرسا ليركب عليه فسأل عن اسمه فقبل له الفتح ، فأنشراح فؤاده بهذا الاسم ، وبذلك ظهرت دعوته من جبل قاره ^(٢) ، وقد اعتمد الإمام فى بث دعوته على الخطابات والرسائل المطولة والكتب الكثيرة التى كان يرسلها إلى الأفراد والجماعات ، والتى كان يوجهها إلى المسلمين عامة ، وهذه الخطابات كانت تحمل إلى الأهالى

(١) تاريخ دولة الترك ، ص ٦ ، (مخطوط) ، المؤلف مجهول .

(٢) الشرفى - اللالى المضيفة ص ١٤٧

المبادئ التي يدعو إليها ، والتي كانت تتلخص في عدم الخضوع للعثمانيين نظرا لفساد حكمهم وخروجهم على مبادئ الدين ، فقد جاء في أحداها " أما بعد فاننا نحمد الله الذي لا اله الا هو ، انا ندعوكم إلى جهاد أعداء الله الذين ظلموا العباد ، وأظهروا في الأرض الفساد ، وشربوا الخمر ، ونكحوا الذكور ، واستباحوا دماء المسلمين المحترمين من المؤمنين ، فقتلوا الأطفال والنساء ، ومن لا يحمل سلاحا من الضعفاء والمساكين ، وانتم تعلمون فلك ولا تجهلون " (١) ، وهذا النص يوضح رأي الامام في العثمانيين ، ويظهر نظرته وكأنهم ليسوا على دين الاسلام ، ويحث الهمنيين على ضرورة الوقوف في وجههم ، وعدم الخضوع لهم حتى لا يتهموا باشتراكهم معهم في الاثم ، وذلك يتضح أيضا من خطاب آخر " ولا تخلصوا لأنفسكم في مداراتهم ، فانا نعلم أنه ليسوا بمداراتكم بالمال ما استقامت لهم راية أبدا فذلك منكم معاونة على لاثمهم وظلمهم " (٢)

وقد وجدت دعوة الامام القاسم استجابة كبيرة لدى الكثيرين من أهالي اليمن الذين رأوا فيها تعبيرا عن تذمرهم من سياسة العثمانيين وتصرفاتهم ، وذلك رغم تقاعس أغلب هؤلاء الأهالي عن الوقوف إلى جانب الامام القاسم خوفا من بطش العثمانيين بهم .

فما لا شك فيه أن دعوة الامام القاسم قد لاقت نجاحا عظيما وانصارا

(١) الجرmozى - النبذة المشيرة ص ٨
 (٢) الجرmozى - النبذة المشيرة ص ٤٤

انضموا إليها ، وذلك يرجع إلى سوء تصرف بعض الولاة والجند العثمانيين ، مما كان يشير في نفوس اليمنيين الضيق والتذمر ، فقد أتى هؤلاء ببعض التصرفات التي تسمى إلى سمعتهم الدينية ، رغم أنهم أتوا إلى اليمن لحماية الأراضى المقدسة من البرتغاليين الكفرة ، ويضاف إلى ذلك شدة وطأة العثمانيين فى اليمن ، رغم أن معنى الولاة قد حققوا لها بعض الاستقرار ، مثل حسن باشا كما ذكرت سابقا ، إلا أن هذا الاستقرار كان يعتمد على الشدة والقوة العسكرية أكثر من الناحية السياسية ، كما أنهم لم يقوموا باصلاحات شاملة تجذب اليمنيين إلى حكمهم ، وكان الأجدربهم أن يعملوا على كسب قلوب اليمنيين ، وأن يفهموا ما تميز به اليمنيون من ظروف طبيعية ومشرية خاصة ، وكذلك الظروف الاقتصادية التي نتجت عن الحصار البحرى البرتغالى ، ولو تفهم العثمانيون تلك الظروف وعاملوهم على ضوءها لتغير تاريخ اليمن . . ، لكنهم بالعكس أرهقوهم بدفع أموال أدت إلى تذمر اليمنيين منهم ، إذ أنهم تحملوا الخراج الذى كان يرسل إلى استانبول سنويا ، وكان الوالى العثمانى يستعمل القوة والقسوة فى جمع هذه الأموال المقررة على الأهالى ، وقد أشار الجرموزى إلى ذلك بقوله "أما المال فلهم فى أخذه سطوة ، فقد يعذبون أهله العذاب العظيم ، مثل ضرب السيا قليلا وكثيرا ، وقد يجلدون بعضهم حتى يموت مع المشاهدة والكى بالنار وغير ذلك^(١)

وهكذا يتضح أن هذه الأسباب كلها مجتمعة أدت إلى تذمر اليمنيين من الحكم العثمانى ، وبالتالي استجابوا لآى دعوة معارضة لهذا الحكم ، وقد عبر أحد اليمنيين المعاصرين عن أسباب استجابة الأهالى لدعوة الإمام القاسم

فى وضوح وصراحة تدمية ، رغم انحيازه للعثمانيين حينذاك ، ومعارضته للإمام القاسم لأنه من آل شرف الدين ، فقد قال " وقد كان قبل الفتنة أطبق على العباد الجور ، وضعفت البرية ، واستهلك العمال أموال الرعية ، وقاست القبائل من الظلم أشد التعب والهول والنصب ، فمن أجل ذلك اشعلت القبائل نارها ، وحملت على جنوبيها أكفانها ، وأصدقت مع الإمام الحروب " (١)

فلا شك إذن أن وقوف الأهالى إلى جانب دعوة الإمام القاسم ، كان يرجع إلى التذمر العام الذى ساد اليمن فى تلك الفترة ، وقد ساعد على نجاح تلك الدعوة إلى جانب ذلك ، طبيعة اليمنيين أنفسهم وطبيعة مذهبهم الزيدى ، بالإضافة إلى قوة شخصية الإمام القاسم ، بهوجه خاص ، واصراره على مواصلة الجهاد وصبره على تحمل المشاق ، وكان عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن المطهر حاكم حجه وأقاليمها هو أول من حارب الإمام القاسم ، إذ قام بمهاجمته هو وجماعته عندما علم بتجمعهم لأول مرة فى جبل القارة . (٢)

وكان عبد الرحيم كذلك أول من أبلغ حسن باشا والى اليمن بقيام الإمام القاسم ، وذلك عندما فشل هجومه على الإمام للقبض عليه ، أو فى القضاء على جماعته . (٣)

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٣ ص ٣٥٣

(٢) الجرmozى - النبذة المشيرة ص ٤٧

(٣) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٢ ص ٩٢

وهذه البداية من جانب عبد الرحيم هي التي اشعلت الحرب ضد الإمام ، فقد اتخذ حسن باشا حينذاك الاستعدادات اللازمة للقضاء على هذه الدعوة منذ بداية ظهورها ، فأرسل الجيوش والمعدات الوفيرة إلى المناطق الشمالية المختلفة قبل أن تسقط في أيدي الإمام ، غير أن انتشار هذه الدعوة واستجابة القبائل لها ، كان أسرع من وصول الجيوش العثمانية إلى تلك المناطق ، فقد هاجمت القبائل القادة الذين أرسلهم حسن باشا إلى الأقاليم الشمالية ، والذين كانوا من الأمراء اليمنيين ، أي ممن دخلوا في خدمة العثمانيين مثل مطهر بن الشويح ، وعبد الله بن المعافا الذي تقدم إلى مقر امارته وهي مدينة السودة فحاصرت هذه القبائل بها حوالي سبعة أشهر حتى اضطر إلى تسليم نفسه للإمام . (١)

ومنذ ذلك الوقت بدأت الحروب بين الإمام القاسم والوالي حسن باشا والى اليمن العثماني في تلك الفترة ، وهي التي أسميناها حروب الكسرة الأولى ، أو النهضة الأولى .

تحالف بعض الأمراء اليمنيين مع الوالي العثماني حسن باشا ، وخاصة من بيت آل شرف الدين مثل محمد بن شمس الدين صاحب كوكبان ، وعبد الرحيم ابن عبد الرحمن حاكم حجه ، ومطهر بن الشويح ، وعبد الله بن المعافا حكم السود ضد الإمام ، فقد جمعت هؤلاء جميعا المصلحة التي تدعم أواصر هذا التحالف ، وتبقى عليه ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن هؤلاء الأمراء قد رأوا أنه

من الأفضل الوقوف إلى جانب العثمانيين خيرا من الوقوف ضدهم ، ربما لأنهم تفهموا مهمة العثمانيين الحقيقية ، أو للحفاظ على الامتيازات التي أعطتها لهم الدولة العثمانية ، أو لتفهمهم لموقفهم من عدم قدرتهم للوقوف في وجه العثمانيين ، أو لغيرتهم من قيام الإمام ، وكان أول لقاء بين العثمانيين وأصحاب الإمام في حصن وشجه بجانب القارة ، ودام الحصار على هذا الحصن ثلاثة أيام ، وصلى الإمام الجمعة في قارة سنة ١٠٦٠ هـ = ١٥٩٧ م وأمر كل الناس بالجهاد ، وتجمعت قوات العثمانيين في الشرف وحجة وعلى رأسها أحمد الزماري وبعض من أصحاب عبد الرحيم بن عبد الرحمن وأحمد بن محمد بن شمس الدين وكذلك توجه ابن المعافا من صنعاء للقاء الإمام في قارة ، ولما علم الإمام بالامر ، أرسل إلى أصحابه الذين في وشجة فوصلوا إليه ، وأشار عليه بعض أتباعه بعدم المبيت في جبل جديد قارة ، لأنه طريق ضيق يسهل للعدو الوصول إليه ، وبالفعل وصل العثمانيون في صباح اليوم الثاني ، وانهزم أصحاب الإمام وانحاز الإمام إلى جهات الأودية ، وبعد هذه الهزيمة وقع في قلوب القبائل الخوف من انقلاب العدو عليهم فعزم الإمام على دخول بلاد المشرق حيث يستطيع أن يستجمع قواه ويجمع حوله القبائل ، وأمر أصحابه الذين معه أن يذهبوا إلى الشيخ أبو زيد بن سراح حيث كان قد ترك ولده محمد هناك ، ورحل الإمام إلى جهات برط ومشاركة البعيدة ، وبقي نحو شهرين ينتظر الفرج من الله سبحانه . (١)

في هذه الاثناء علم قرا جمعه نائب الباشا في صعدة بوجود الإمام فلى برط ، فبذل للشيخ عبيد الله البرطى مالا جزيلا لكي يقبض على الإمام ، فاحضر

الشيخ عبيد ذلك المال إلى الإمام وأخبره الخبر ، وأرجع المال إلى قراجمعه ، فشكره الإمام على حسن صنيعه .^(١)

يتضح من هذه الحادثة مدى تخوف العثمانيين من الإمام القاسم ، فقد فعلوا شتى الطرق للقبض عليه دون طائل ، رغم قوة الدولة العثمانية بالنسبة للإمام فان تخوف القبائل من العثمانيين في أول قيامه ، كان يحد من انضمام القبائل إليه .

وفي هذه الأثناء أي سنة ١٠٠٦ هـ = ١٥٩٧ م أجاب أهل الخيمة دعوة الإمام القاسم ، وكان قائدهم الفقيه يوسف الحماطي ، فنهض الكخيا سنان إلى حضور ، وكان الحماطي قد كتب إلى الإمام يخبره بطاعة أهل الخيمة ، ويستمد منه العون ، فبعث إليه عمه السيد عامر بن علي بن محمد ، والسيد محمد بن علي بن الحسين بن شمس الدين ابن الإمام المهدي أحمد بن يحيى ، وهو المعروف بالقراع ، ففوض الفقيه يوسف الحماطي الأمر إلى السيد عامر ، واجتمع الناس إليه وأطاعوه ، واستقر في الحيمة ، فقابلهم العثمانيون بالخييل والرجال ، وكان قائدهم الأمير ابراهيم طويل والشيخ عبد الله الرماح في محل يسمى السلف والتقى بهم السيد عامر ومعه أهل الحيمة في جبل البوزين^(٢) ووقعت بينهم وقعة عظيمة ، واتصل السيد محمد القراع ببعض أصحاب الرماح ، فمالوا إليه ، وحملوا على العثمانيين فقتلوا قائدهم الأمير ابراهيم طويل ، واستولوا على خزائنهم ، وطلب الشيخ عبد الله الرماح الأمان لنفسه ومن بقى معه ،

(١) يحيى بن الحسين / غاية الاماني ح ٢ ص ٧٧٣

(٢) البوزان : موضع في سرو مدحج - الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٩٧

فأمنه السيد عامر ، وخرج بمن معه وكانوا زهاء ألف وخمسمائة راجل ونحو سبعين فارسا ، ثم تقدم السيد عامر إلى جبل بيت خولان ، فقصد الكخيـ سنان ، ومن انضم إليه من قبائل سحان وخولان ، وهمدان ، ووقعت بين الطرفين وقعة شديدة قتل من أصحاب السيد عامر سبعين رجلا ، واستولى سنان على قرية بيت خولان ، وبیت معدن ، ثم رجع السيد عامر إلى سنان في ذلك اليوم مرة ثانية ، وأبلوا بلاء حسنا ، وحمل الشيخ محمد بن ناصر صاحب الأحبوب ، فقتل من أصحاب الأمير سنان ، وكادوا يأسرونه ، فوصلت إليه نجدة من كوكبان ، فتأخر السيد عامر وأصحابه وتقدم سنان إلى جبل البوزين واشتدت وطأته على من ظفـ ربه من أهل الحيمة فجعل يقتل كل أسير أتى إليه به ، حتى لقد أتى إليه بطفلة صغيرة فأمر بسلخها بعد أن استجارت بأهل كوكبان فلم يجيروها . (١)

ثم ان الفقيه الحماطى تقدم إلى أنس ومنه إلى نمار بعد أن أشار عليه بعض أصحابه ، فلما استقر فيه جهز إليه الباشا عسكرا مع رجل يعرف بالواعظ ، كان في ابتداء أمره متنسكا ملازما للبقاء في جامع صنعاء ، ثم صار من أعوان السلطات العثمانية . (٢)

ولما بلغ الحماطى وصول الواعظ إلى قرب نمار ، خرج منه إلى محل قريب ، فقصد الواعظ وحصره في ذلك المحل ، حتى خرج إليه ، فأرسل به إلى صنعاء فأودع في السجن ، ولم يلبث أن مات ، وقتل ممن كان معه كالـ فقيه محمد بن عبد الله العياني من العيانة ، من بلاد الثلث أحد جبال حراز ، فسلخ جلده

(١) يحيى بن الحسين - غاية الاماني ج ٢ ص ٢٧٣ ،

، الجرmozى - النبذة المشيرة ص ٧١

(٢) الجرmozى - النبذة المشيرة ص ٧٤

دملى^(١) ، تبنا ، وقد حزن عليه الإمام القاسم كثيرا ورثاه في قصيدة مشهورة ، وكانت
هذه الواقعة في شهر جمادى الأولى سنة ١٠٠٦ هـ = ١٥٩٧ م^(٢) .

بعد هذه الوقائع أرسل الحاج أحمد بن دغيش إلى الإمام القاسم فلى
برط يخبره بما وقع ، ويستنهضه ، وقد خرج جند العثمانيين مع الأمير عبد الله
ابن المعافا في صنعاء إلى الهجر ، ثم تقدموا إلى وادعه وحشدوا قبائل الأهنوم ،
حتى بلغوا أربعة عشر ألفا ، ودخلوا الحصن فانتهبوه ، وهدموا بيوته ، فأغار
عليهم الأمير حسن بن ناصر العرياني بمن معه من أهل وادعه وشاطب ، وفلى
خلال ذلك وصل الإمام إلى شاطب ، فرجع أهل الأهنوم الذين كانوا مع
العثمانيين والأمير عبد الله بن المعافا من وادعه إلى بلادهم ، وأظهروا الدعاء
إلى الإمام والميل إليه ، وانضم إليهم أهل ظليمة وعذر ، ثم تقدم الإمام إلى المحرأ
ودخل في طاعته أهل الهجر ، وتقدم السيد إبراهيم بن جحاف ، والفقيه على
الشهارى بأمر الإمام بقبائل الأهنوم وعذر وظليمة إلى شاطب وجبل بنى حجاج
والموسم ، وكان في السودة عسكر العثمانيين ، فوقع بينهم وبين أصحاب الإمام
حرب في جبل بنى حجاج ، قتل من أصحاب الإمام ثلاثة أنفار ، ولم يزل أصحاب
الإمام يشنون عليهم الغارات حتى دخلوا في طاعة الإمام ، ولم يبق في حصن
السودة إلا الأمير عبد الله بن المعافا^(٣) .

(١) الموزعى - دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٣٢

(٢) تاريخ دولة الترك ص ٩ ، المؤلف مجهول .

(٣) الشرفى - اللآلىء المضئية ص ١٥٠

ولما استقر الإمام في الأهنوم بعث بالسيد عبد الله بن هادي الحيداني والقاضي حسن بن علي النساري وغيرهما بعسكر إلى بلاد الشرف ، فأجابهم أهل حجور ، وعاهم ، وطاعن ، فوقع بينهم وبين عسكر العثمانيين وأصحاب عبد الرحيم حرب في بلاد الشرف انهزم فيها العثمانيون ، وأصحاب عبد الرحيم ، وأخذ أصحاب الإمام أثقالهم وأدوات القتال ، وفتحوا حجّه ، إلى أن وصلوا جبل تيس ، ومنهم من تقدم إلى عفار ، وبعضهم أقام الحصار على عسكر العثمانيين في نعمان حجّه ، حتى خرجوا إليهم فبعثوا بهم إلى الإمام مأسورين .

وفي شهر شوال سنة ١٠٠٦ هـ = ١٥٩٧ م توجه أصحاب الإمام لحرب مَبِين ، وكان به عبد الرحيم بعد أن فسدت بلاد عليه ، فحاصروه في حصنه ولم يجد بدا من مواجهة الإمام ، فسار إليه ، فأكرمه الإمام ، ثم أخذ عليه العهد مع البيعة ، وأمره بالتقدم إلى جبل عيال يزيد لمحاربة سنان في عمران ، فأضمر في نفسه الخديعة للإمام ، وندم على متابعتة ، فراسل سنان سرا أنه يتنحى عن عمران ، ومتى دخلها بمن معه من أصحاب الإمام رجع إليه للقبض عليهم ، فعرف بمكيدته بعض أصحاب الإمام ، فأشار الإمام على بقية أصحابه بالتأخير ، فتأخروا عن عبد الرحيم ، وتقدم إلى عمران بخاصته وفات عبد الرحيم ما أراد .^(١)

وفي سنة ١٠٠٦ هـ = ١٥٩٧ م علم العثمانيون أن حصن ثلا ينقصه المؤن والسلاح وأهله يشكون من قلته ، فجهز سنان الكخيا جيشه ، فوقعت مناوشات خارج المدينة ، انهزم فيها أصحاب الإمام لقلة عددهم ، واستشهد نحو ثلاثين

(١) تاريخ دولة الترك - ص ٩ ، ١٠ ، المؤلف مجهول .

نفرا ، ودخل العثمانيون المدينة وأخذوا جميع ما فيها ، وانحاز السيد شرف الدين الخمرى- والى الإمام على ثلا- مع جماعة إلى الحصن وذهب السيد أحمد المحرابى ، وهو من أصحاب الإمام إلى الأهنوم عند الإمام ، فألزم الإمام جميع الناس بالجهاد فى ثلا ، وحضهم على ذلك ، ووقفت القبائل مع الإمام موقفا محمودا ، فسار السيد صالح عبد الله القاسمى العريانى فى عسكر كثيرة إلى حضور ، وسار السيد عبد الرحيم القدسى إلى حضور أيضا ، وأغار السيد شمس الدين أحمد الجونى والمشايخ بالقرب من ثلا وحاولوا دخول المدينة ، لكن العثمانيين ردوهم خارجها ، فلم يستطيعوا المقاومة نظرا لكثرة خيل العثمانيين ، ولم يكن مع أصحاب الإمام شىء من الخيل فانهزم أصحابه ، وقتل منهم جماعة ، ولما عاد أصحاب الإمام إلى نواحي (البون) طمع العثمانيون فى أخذ العسكر الموجودين بحضور ، فقصدهم فى اليوم الثانى ، وكان النصر لأصحاب الإمام حيث استمرت الحروب لمدة يومين لاقى العثمانيون فيها هزيمة كبيرة ، فلما وجد صاحب كوكبان ابن شمس الدين موقف العثمانيين أراد انقاذهم ، فعمل على أن يشغل أصحاب الإمام بمن قصدهم ، ثم يأتى هو من خلفهم فيقضى عليهم ، لكن النصر عقد لأصحاب الإمام ، حيث اتفق وصول ابن شمس الدين بنجدة لأصحاب الإمام بقيادة الحاج أحمد بن دغيش ، ف وقعت بينهم مناوشة ، كان النصر فيهم لأصحاب الإمام ، وبعد هذا النصر رفع الحصار عن حصن ثلا ، ودخلته المؤمن والبارود والرصاص .^(١)

(١) الجرموزى- النبذة المشيرة ص ٧٣ ،
الشرقى - اللآلىء المضئية ص ١٥٧

استطاع الإمام في هذه الأثناء فتح كثير من المعاقل كالظاهر وشهارة
والسودة ، وخرج بن المعافا إلى الإمام ، ولم يبق في يد العثمانيين من المدن
إلا صنعاء وصعدة ، ومن البلاد اليمن الأسفل وتهامة .

وكانت هناك حروب عديدة خاضها الإمام في هذه النهضة الأولى ، اكتفيت
بذكر أهمها وكان النصر في أغلبها له ، فقد نجح الإمام القاسم في بسط سيطرته
خلال عدة شهور على الحصون والأقاليم الممتدة من صعدة شمالا إلى صنعاء
جنوبا ، وذلك ما عدا هاتين المدينتين لأنهما تعرضتا لحصار قوات الإمام
وهجماتهما ، وما عدا بعض الحصون الهامة الأخرى ، مثل حصن كوكبان حيث
يوجد أحمد بن محمد بن شمس الدين ، وحصن الطويلة لوجود باقي أسرة الإمام
شرف الدين فيه ، وكذلك حصن ذي مرمر لقربه من صنعاء .

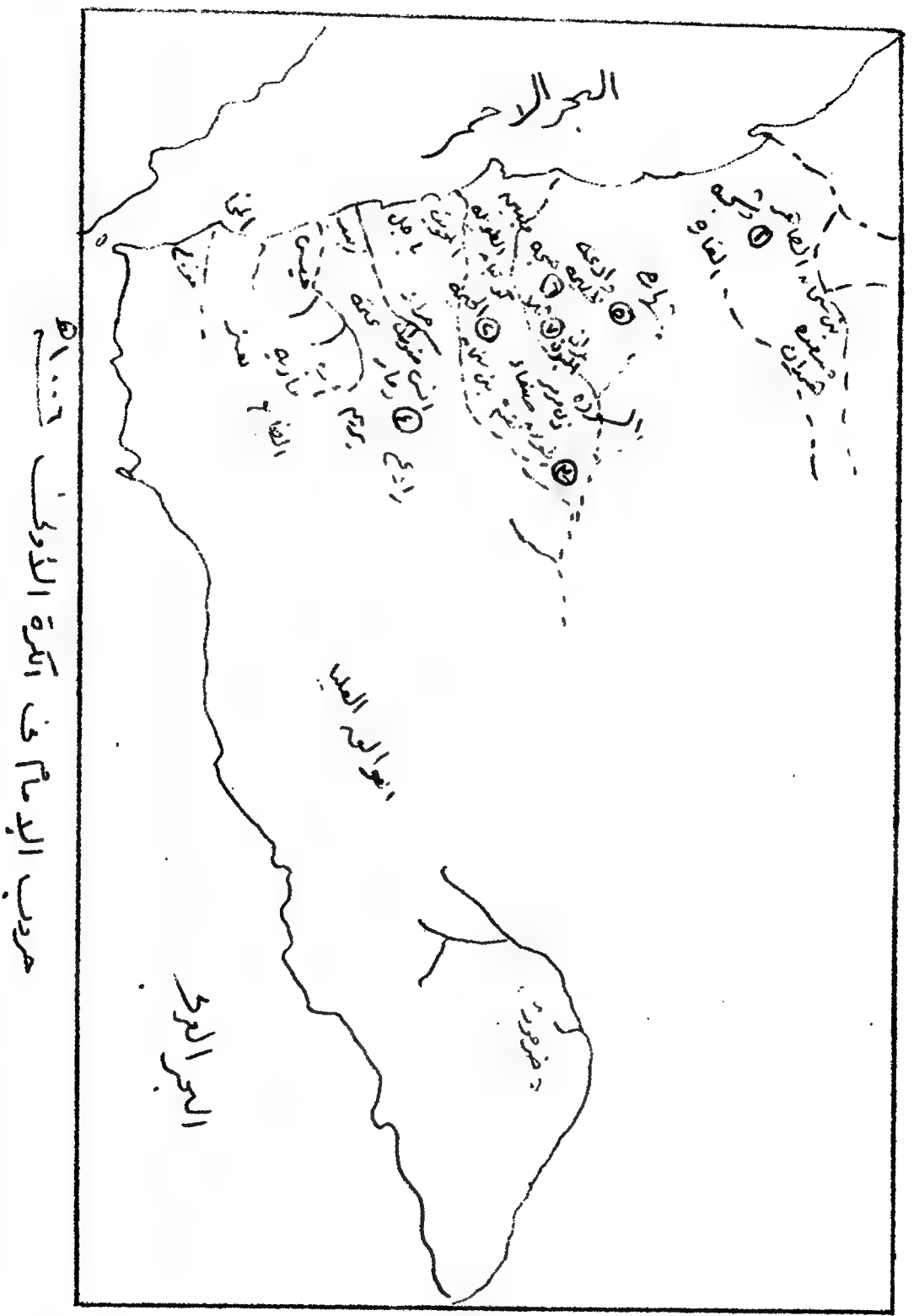
كانت انتصارات الإمام موضع الدهشة للجميع حتى قيل انه " كان من
العجائب ان أصحابه اذا توجهوا على حصن فتحوه في أقرب مدة " (١) ليس هذا
فحسب ، ولكن صنعاء نفسها في هذه الفترة تعرضت لهجمات الإمام وأصحابه ،
فقد كانوا يشددون الهجوم عليها أحيانا من الخارج " حتى ان الرمي بالبنادق
كان يصل إلى قصر حسن باشا " (٢) كما كانوا يتسللون إلى داخلها أحيانا أخرى
فيهاجمون حاميتها ، ويستولون على بعض أسلحتها وذخائرها ثم يفرون منها

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٢ ص ٩٤

(٢) الجر موسى - النبذة المشيرة ص ٦٤

(١) في آخر الليل إلى جبل نغم المشرف عليها ويختفون به .

انه يمكن القول أن انتصارات الإمام القاسم السريعة كانت تعبيرا عن مدى استجابة الأهالي لدعوته ، وتذمرهم من الحكم العثماني ، خاصة في المنطقة الشمالية حيث كانت جل فتوحاته فيها ، رغم قلة الأسلحة النارية لديهم ، لأن الولاة العثمانيين في هذه الفترة كانوا يعطون على جمع الأسلحة على اختلاف أنواعها وخاصة النارية من أيدي الأهالي لاضعاف قدرتهم على الحرب ، لذلك كانت البنادق في تلك المدة قليلة مع القبائل ، ولا تكاد توجد الا مع أرباب الدولة ، الا أن هذه القبائل استطاعت أن تعوض هذا النقص في الأسلحة مما غنمته أثناء انتصاراتهم مع الإمام .



مدرسة الإمام في مكة المكرمة ١٤٠٠ هـ

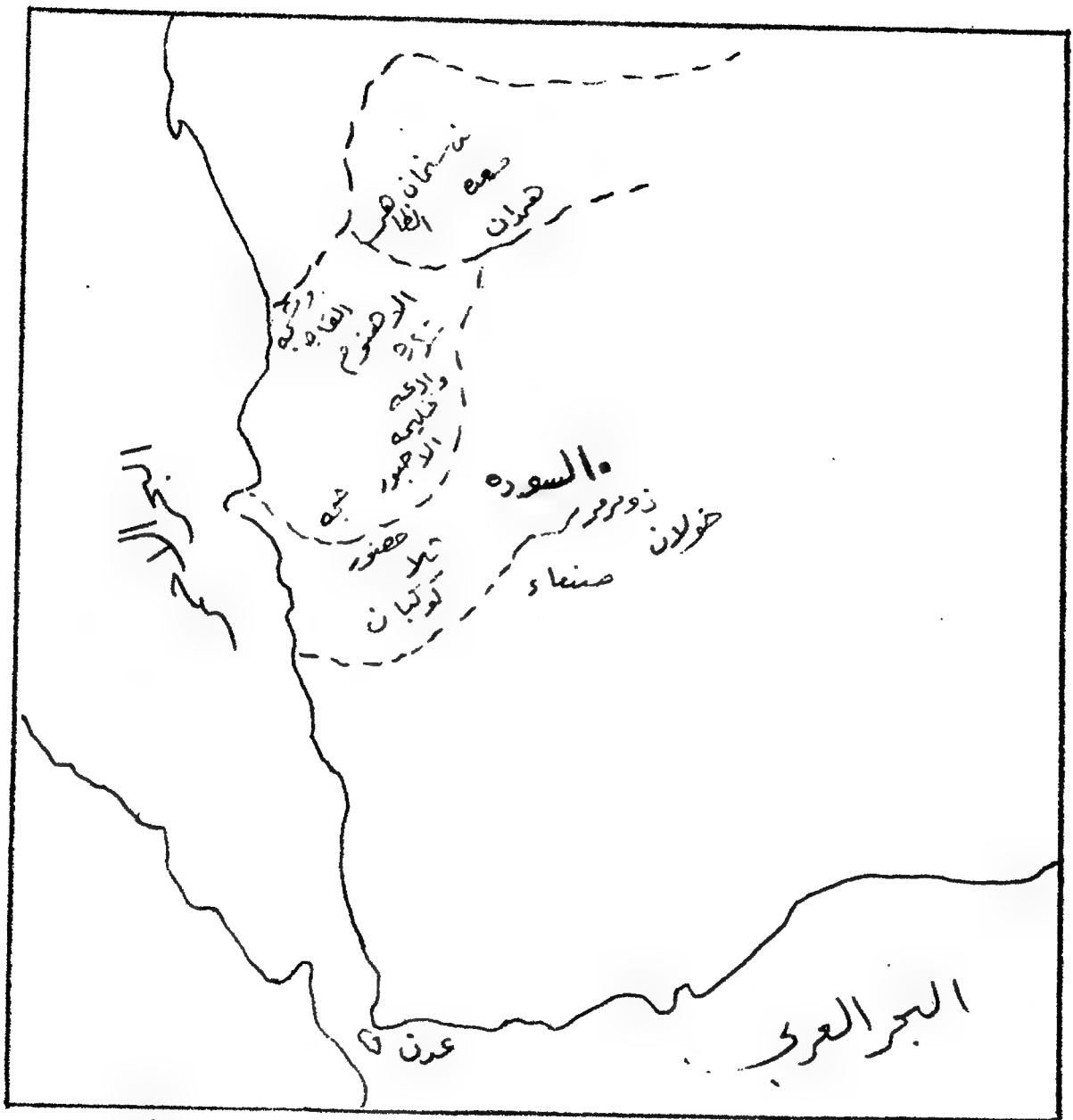
ولما بلغ الامام توجه الجيوش العثمانية على السيد عامر عم الامام في جبل تيس وهو يومئذ بحبور ، وكان ابن المعافا عنده ، رأى أنه من الأفضل الانتقال إلى السّودة لقرب موقعها من السيد عامر ليمده بالنجدة ، زد على ذلك أنها تقع على ذروة جبل وتطل على وادي أخرف ، وعصمان الشهيرين بالزراعة في حاشد^(١) فوجودها على ذروة جبل يجعل التحصن بها أسهل من المنطقة السهلية ، ومن هذا الموقع يستطيع أن يخرج ولده محمد من مدع ، وكان ذلك رأى أصحابه أيضا ، وعلى ذلك تقدم الامام إلى السّودة في شهر صفر سنة ١٠٠٧ هـ = ١٥٩٨ م^(٢) وفي هذه الأثناء توجه الكخيا سنان إلى ثلا لمحاصرة السيد الحسن بن شرف الدين الكحلاني ، عامل الامام ، ولما وصل إلى ثلا ، وتقدم لاعانة الأمير أحمد ابن محمد واستفتاح بلاده ، فوقف في الود أطراف جبل الطلع ، وتأخر أصحاب الامام المحاصرون لحصن الطويلة ، فتوجه سنان لمحاصرة من في مدع ، ولم يزل يستميل القبائل بالمال ، وكانت تلك طريقة يستعملها العثمانيون لاستمالة القبائل إليهم ، فكانوا يميلون ، نظرا لفرهم وقلة موارد هم ، ثم وجه الكخيا سنان عساكره إلى بيت عداقة^(٣) ووقع بينهم وبين أصحاب الامام حرب قتل فيه قائدا أصحاب الامام ، وقطعت رأساهما وهما السيدان الأخوان أحمد بن محمد المحرابي وأخيه على ، وخرج من في مدع بأمان ، وبعد أيام طلب السيد الحسن ابن شرف الدين الخروج من ثلا على يد الأمير أحمد بن محمد حاكم كوكبان فخرج السيد الحسن ، أما محمد بن الامام فقد رجع إلى أبيه سالما .

(١) حسين بن علي لويس - اليمن الكبرى ص ٨١

(٢) الشرفى - اللآلئ المضيئة ص ١٧٥ ،

الجرموزى - النبذة المشيرة ص ٨٠

(٣) هو جبل يقع شمال وادي نخلة .



استقرار الإمام في السورة ١٠٧

وفى خلال بقاء الإمام فى السَّودَة ، توجه السيد عامر إلى الإمام ، فأمره بالتقدم إلى خُولان ، فسار إليه على طريق نهم ثم إلى بلاد أنس ومنها إلى الحيمه ثم قصد بأهل الحيمه إلى جبل تيس فاستفتحته وضيق على الأمير أحمد بن محمد سالكه ، فنهض الأمير أحمد إلى الطويله ، حتى وصل السيد عامر إلى المحويت ولبث فيه يومين ، ثم رجع إلى العُدِينَه فتزوج فيها ، وحاصر أصحاب الأمير أحمد بن محمد ، حتى كاد أصحابه يستولون على المحصورين ، فوجه الأمير أحمد الشيخ صالح الرواس وبعض النقباء فى عسكر لتخليص المحصورين ، فمروا بالعدنيه ، ولعلم لهم أن السيد عامر فيها ، والتقت بهم امرأة أخبرتهم بوجوده ، فمروا عليه وأحاطوا به من كل جانب ، ولم يكن لديه من أصحابه الا القليل ، وبقيتهم فى رد مان ، وكان بعض أصحابه قد أشاروا عليه بالانتقال عن ذلك المكان ، ولكنه لم يستمع للنصيحة ، ولم يجد السيد عامر بدا من الخروج إلى أصحاب أحمد بن محمد ، فقبضوا عليه وأخذوه أسيرا ، فلما علم أصحاب السيد عامر بذلك انهزموا ، وقتل منهم نحو ستين نفرا ، وتقدم الشيخ صالح الرواس بالسيد عامر إلى الأمير أحمد بن محمد فأرسل بهم إلى سنان وهو فى خمير ، فقتل الأسارى ، وسلخ جلد السيد عامر وهو حي ، وقد فت قتلته فى عضد الإمام القاسم ورثاه بقصيدة طويلة . (١)

رغم هذه القسوة التى استعملها العثمانيون مع الإمام القاسم للقضاء على دعوته بشتى الطرق ، سواء الحربية منها أو النفسية ، وذلك بقتل وسلخ جلد عمه ومطاردة رسله إلى القبائل المختلفة ، حيث قبضوا عليهم ونكلوا بهم

ليكونوا عبرة لغيرهم ، وذلك كما حدث مع العياني الذي كان يتنقل في الأقاليم الممتدة بين شهارة وصنعاء ، فقد سلخوا جلده هو الآخر حيا ، وكذلك الحال مع الحماطي الذي كان ينشر الدعوة في زمار ، ان مات بعد وضعه في سجن صنعاء بقليل ^(١) ، رغم ذلك لم يثن ذلك الإمام عن دعوته بل استمر فيها بمصر و صبر .

بيد أن اقتضارات الإمام السريعة وتهديده لصنعاء نفسها ، أشارت زعر حسن باشا الذي سارع بطلب النجدة من مصر واستانبول ، فأرسلت السلطنة إلى واليها في مصر بتجهيز الامدادات اللازمة لارسالها إلى اليمن على وجه السرعة ، كما استدعى أيضا على باشا من الحبشة .

وقد صور لنا أحد المعاصرين حالة اليمن في تلك الفترة بقوله " وصل المقام الاكلى والأعلى والأفضلى الباشا على الشهير بالجزايرى إلى أرض اليمن معينا فيها للوزير حسن ، فانه استدعاه من إقليم الحبشة حين صارت أحوال اليمن مرتعشة " ^(٢) .

وقد اختار حسن باشا على باشا بالذات من إقليم الحبشة لمعرفة وجهات اليمن ، ان ترجع هذه المعرفة إلى أيام والده الذي كان ذو ثراء ومال عند العثمانيين فاقرض الوزير حسن الأكبر مالا كثيرا في عهد السلطان مراد بن سليم

(١) الموزعى - الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٣١ ،

الكبرى - اللطائف السنوية ص ١٢٢

(٢) الموزعى - الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٢

ابن سليمان ، مما أوجب خروجه إلى بلاد اليمن واستقر في ذي جبله ، وكان معه ولده عليّ ، فتربى باليمن ، ولما مات والده حفظ منزلته وثروته ، وطمع في الرياسة ، فتنازل لحسن باشا بشيء من المال مقابل منحه إقليم ريمه بعد أن يفتحه ، وكانت تلك البلاد منيعة ذات حصون قوية ، وذلك في عهد المتوكل على الله شرف الدين ، وفي خلال هذه المدة كان في مدينة وصاب أمير عثمانى متوليا عليها من جهة الوزير حسن ، فارتكب المنكرات فجمع أهل وصاب العسكر وقتلوه بعد حروب شديدة ، ولما خرج على باشا بجموع كبيرة امتنع أهل وصاب وحفظوا بلادهم نحو أربعة أشهر ، حتى دخلها عنوة وقتل أكثر أهلها ، حتى أنه كان يرى في الأسواق الرؤوس على الشجر ، ثم بعد ذلك استطاع دخول ريمه ، وسموه أميرا سنجقا ، ثم كثر ماله من التجارة ، فخاف الوزير حسن — أن يمتد سلطانه إلى جهات المغارب أي إلى جهات الساحل ، فأعطاه لقب الباشا على وولاه صعدة وبلادها إلى جيزان أي شمال البلاد ، ثم أعطاه الشرفين وما إليها ، وبلاد عفار وشاطب ، فعظم أمره أيضا في تلك المناطق ، فخافه الباشا حسن ، فأرسل للسلطان في الأستانة باخراج الباشا على اخراجا جميلا من اليمن خوفا من استقلاله بها ، بعد امتداد قوته في أكثر أقاليمه ، فولاه السلطان بلاد الحبشة ليستكفي شره ويبعده عن اليمن ، فلما استقر في الحبشة ، وحدثت هذه التطورات في اليمن استدعوه مددا لهم ^(١) ، وكان وصوله في شهر رجب سنة ١٠٠٧ هـ = ١٥٩٩ م وقد وعده حسن باشا بولاية اليمن الأسفل وما يستفتح من بلاد الإمام ^(٢) ، فوقف على باشا في القنين - وهو موضع في جبل

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ٨٦

(٢) الشرفى - اللآلىء المضيئة ص ١٨٩

السراه باليمن - وكتب إلى سنان ان يلقاه إلى بلاد خولان ، فدخل سنان من قبلى بلاد خولان ، والباشا على من جنوبها ، فوقع الفتح واشتد غيظ سنان على أهلها ، خصوصا الفقهاء ، فانه شدد فى ظلمهم اعتقادا منه أنهم هم الذين يحرزون الرعية على طاعة الإمام ، فخرج الفقهاء إلى بدده ، واضطر بعضهم إلى تغيير زيه ، ثم رجع على باشا إلى زمار ، ورجع سنان إلى صنعاء .

وفى سنة ١٠٠٨ هـ = ١٦٠٠ م رجع الباشا على لفتح اقليم ريمه وكان محبا لها لانها أول ولاياته ، وبها جميع أمواله ، فاستأذن الوزير حسن فى رجوعه إليها ، فعينه حسن باشا حاكما لاقليمى وصاب وريمه ، اللذان كانا قد انضما إلى جانب الإمام ، فنهض إليها بجيش جرار ، فلما أراد أن يهبط إلى بلاد الجعفرية وإلى جبل ظلم ، وكانت جنوده تتقدمه وهو فى مؤخرتهم ، كمن له الشيخ سعيد صبر وأولاده واخواته وخواصه فى مكان تحيط به الأشجار ، فلما وصل آخر العسكر وتحققوا من شخصيته رموه بالبنادق فقتلوه ، وقيل رماه أحدهم بحجر فى رأسه فمات ، فلم يشعر جنده بذلك حتى أخبروهم بقتله ، فضعفوا وتفرقوا ، فنزلت القبائل وأخذت أسلحتهم ، واستولوا على أموال الباشا على ، وكان قتله فى يوم السبت ٢٣ صفر سنة ١٠٠٩ هـ = ١٦٠٠ م .^(١)

لقد استطاع على باشا ان يخضع بعض الأقاليم التابعة للإمام بعد جهود مضنية إلى حظيرة الدولة العثمانية ، الا أن نهايته كانت على يد أحد زعماء هذه الأقاليم فلاقى حتفه هناك .

(١) الكبسى - اللطائف السنية ص ١٢٣ ،
الموزعى - الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٣٤

ولما بلغ سنان مقتل الباشا على رجع من غزو الحيمة إلى صنعاء ، وخرج الفقيه على بن يوسف الحمالي من الحيمة إلى أنس ، فاستدعاه أهل حصن مسار من نواحي حراز ، فسار إليهم ، ولما استقر في الحصن عظم على العثمانيين الأمر ، فأخذوا يبعثون العسكر لحربه حتى قتل منهم نحو ثمانمائة نفر في مدة الحصار .

كل هذه الأحداث والإمام مازال بالسّودة مستقرا فيها ، إلا أن سنان انتقل إلى شاطب لفتحها ، وأخذ يعمل على استمالة أهل خمر ، فبذل لهم الذهب الأحمر المغشوش واستمالهم إليه ، فلما تقدم لحرب أصحاب الإمام كانت المواقع خالية فدخل العثمانيون بلاد شاطب ، ودارت الحرب مع جماعة في جبل بنى حجاج من أصحاب الإمام إلا أنهم انهزموا واستشهد منهم جماعة ، والباقي ذهبوا إلى حصن السّودة ، فانتقل سنان إلى الصرارة ، ثم قدم عسكره إلى السّودة ، فتأهب الإمام لقتالهم ، لكنه أدرك من ابن المعافا الميل إلى سنان وكانت له يد في دخوله السّودة .

كان الإمام قد خرج من حصن السّودة ، ثم رجع ليأخذ شيئا منه فمنعه ابن المعافا ، فقال الإمام : هذا أمر عقد بليل ، وفهم الحيلة من ابن المعافا وهم أحد أتباعه بقتل الإمام ففلت الرمح ، فخرج الإمام وليس عليه إلا قميصه وسلاحه وقد لبس عمامته ، وتقلد مصحفه وسيفه ، ووقف بجانب السّودة يرمى بالبندق في مكان يسمى الصّاية بالقرب من الموّسن ، حتى عاد إليه قلول المهزمين فتقدموا إلى ظليمة واستقروا في مكان يسمى الأبرق ، وقد تفرق الأعوان عن الإمام حتى لم يبق معه إلا ثلاثة من أصحابه الذين لا يفارقونه في سفر أو حضر ، واضطر

الإمام للذهاب إلى جهات الأهنوم .^(١)

أما أهل السودة فقد ضعفت عزائمهم بعد انهزام الإمام وأصحابه ، واضطربت أحوالهم ، وخافوا من بطش سنان الذي اشتهر بقسوته وشدته حتى أصبح ذكر اسمه يثير الرعب والذعر في قلوب اليمنيين .^(٢)

كان خروج الإمام من السودة ودخول الأتراك إليها في صفر سنة ١٠٠٨ هـ = ١٦٠٠ م^(٣) وقد ذكر بعض المؤرخين أن خروجه كان سنة ١٠٠٧ هـ = ١٥٩٩ م ولكن الأرجح هو التاريخ الأول .

ان انتصارات الإمام القاسم المتتالية في المنطقة الشمالية ، أجبرت بعض القواد اليمنيين على الدخول في طاعة الإمام ، مثل عبد الرحيم بن عبد الرحمن وعبد الله بن المعافا ، وقد بقي أمر هؤلاء الأمراء على ولائهم للعثمانيين طول قوة الإمام وسيطرته ، ثم تأكد هذا الولاء أو بدأ يظهر على حقيقته عندما انحسرت هذه السيطرة ، وهذا ما اتضح من موقف عبد الرحيم ، ثم عبد الله بن المعافا ، فقد انتهز عبد الرحيم أقرب فرصة للافلات من يد الإمام ، واللجوء إلى حسن باشا والكخيا سنان ، بعد أن دخل في طاعة الإمام وولاه قيادة قواته لفتح عمران ، وانقلب كذلك عبد الله بن المعافا على الإمام أثناء انكماش سيطرته ، وتوالى انتصارات سنان في المنطقة الشمالية ، فلم يسمح للإمام باللجوء إلى حصن

(١) الشرفي - اللاكبي المضيئة ص ١٨٠ ، الجرموزي - النبذة المشيرة ص ١٢٢ .

(٢) الموزعي - الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٣٢

(٣) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٢ ص ٨١

السودة ومنعه من الدخول ، فاتجه الإمام عندئذ إلى حصن شهارة بالأهـنوم بعد أن تأكد من خيانة ابن المعافا له .

أصبح الموقف جلياً أمام نظر الإمام القاسم ، فقد أدرك أن هذه الحروب لم تكن ضد جبهة واحدة فقط بل ضد جبهتين : الأولى أو العنصر الرئيسى ما كان منها ضد العثمانيين ، والثانية : الأمراء اليمينيين المتعاونين مع الجبهة الأولى ، وقد عبر الإمام القاسم عن ادراكه لهذا الأمر فى أحد خطباته العامة الموجهة إلى اليمينيين كافة بقوله " وبعد فان الله قد أوجب عليكم قتل هؤلاء الأتراك وأعوانهم من العرب على أى حال ولو خفية فى الطرقات والمساجد والبيوت ، ومن ترك ذلك وهو يقدر عليه فهو عند الله من الهالكين " (١) .

لقد وقع اختيار الإمام لبلاد الأهـنوم للاستقرار فيها بعد خروجه من السودة ، لأنه رأى أن فى بقاءه مصلحة له ولأهل الأهـنوم نفسه ، فان أهل الأهـنوم كثيراً ما كانوا يلجأون للإمام فارين من بطش العثمانيين وأذاهم ، بالإضافة إلى بُعد الأهـنوم عن مركز الدولة فى صنعاء ، وبها جبال حصينة يستطيع أن يلجأ إليها اذا دامه الخطر ، كما أنه يعتقد أن جهات الأهـنوم اعرف بحقوق الأئمة وما يجب عليهم نحوهم ، فهم أسرع للاستجابة والمواالة من غيرهم ، هذا كان رأى الإمام ، أما اصحابه فقد رأوا الانتقال إلى جهة أخرى كجهات خولان مثلاً ، وذلك لما رآه من فشل أهل الأهـنوم وتفرق آرائهم ، وأنهم

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ٧

خافوا أن يعيل الناس إلى جانب العثمانيين ، لكن كانت وجهة نظر الإمام هي الأصوب في اختياره الأهنوم .^(١)

وقد نقل الجرموزى مؤلف سيرة الإمام القاسم هذا الحديث بين الإمام القاسم وابنه محمد المؤيد بالله عن استقراره في شهارة ببلاد الأهنوم ، قال له " يا ولدى لا يفرنكم اقبال الفتوح ، فتركوا شهارة وتستبدلون بها ، فقد حصل معي غلط وخطأ بالبقاء في السودة وترك الأهنوم في تلك المدة فأنا لم نتمكن من الخروج منها من غير ملا حمة " .^(٢)

وهكذا كان اختيار الإمام القاسم للأهنوم ولشهارة بالذات راجعا إلى أهمية موقعها الحصين ، إذ أنها تقع على قمة جبل بالا غافة إلى توفر المياه فيها ، فهي منبعه من جميع نواحيها ، وتنقسم إلى قسمين شهارة الأمير ، وشهارة الفيش كل منها في رأس جبل يفصل بينهما شطر طبيعي للجبل يبلغ عمقه نحو مائتي متر ، وهي تبعد عن صنعاء ١٣٠ كم ، وارتفاعها عن سطح البحر ثلاثة آلاف قدم^(٣) ، كل هذه الاعتبارات من حيث حصانة موقعها ، ووجود الجبال بها تجعل اليمنيين وخاصة أهل الشمال يتحصنون من أعدائهم داخلها لأنهم تعودوا الصعود والهبوط منها بسهولة بالا غافة إلى معرفتهم بمسالك هذه الجبال ، وذلك على عكس العثمانيين فان وعورة هذه المنطقة تحرمهم من

(١) الشرفى - اللآلىء المضيئة ص ١٨١

(٢) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٢١

(٣) عهد الله الثور - هذه هي اليمن ص ٣٩٥

استعمال معداتهم الحربية الثقيلة ، ان كان يصعب على الجنود نقلها من مكان الى آخر ، كما أن الفرسان يصعب على خيولهم تسلق تلك الجبال ، هذا بالإضافة الى بعدها عن صنعاء ، وتوفر المياه بها ، كل هذه الاعتبارات جعلت من شهارة حصن الإمام وأصحابه الحصين ، وجعلته يوصى ابنه باتخاذ مركزاً ، لدولته ، فهنا يظهر مدى عمق نظرة الإمام القاسم في اختياره للأماكن التي يتحصن بها أو يستقر فيها ، مما يدل على معرفته بفنون الحرب واختيار الأماكن الاستراتيجية في ذلك الوقت .

دخل الإمام شهارة واستقر فيها ، لكن العثمانيين لم يتركوه وشأنهم بل أرسلوا إليه الحملة طوالاً أخرى ، وشدوا على شهارة الحصار سنة ١٠٠٩ هـ ، وجعلوا عليها الحراس من العثمانيين والعرب ، وكان قائد العثمانيين ذوالفقار ومن العرب الأمير عبد الله بن يحيى بن عمرو بن المعافا ، بعد أن ولاه حسن باشا جميع بلاد الأهنوم ، وكان حصار شهارة ٣ شوال سنة ١٠٠٩ هـ = ١٦٠١ م (١)

طلع بن المعافا بجميع عسكره ومن معه من الأمراء إلى نجد خمر ، بعد أن ولاه جميع الأهنوم والشهارتان ، وجماعة من مشايخ الأهنوم انحازوا مع الإمام ، وفي ذلك اليوم وما بعده رتب عسكره حول شهارة فوقف هو في نجد بني خمر ، وجعل أميراً من العثمانيين يسمى رمضان فيما بين شهارة وبني خمر

فى عسكر كثير ووجه الأمير ذو الفقار إلى حميمة على شرق شهارة ، ثم رتب الأماكن
حول شهارة من جميع جوانبها ، لكي يظفروا بالإمام ، لكن دون طائل .^(١)

فى خلال ذلك وقعت عدة وقعت منها موقعة (المحافر) سنة ١٠١٠ هـ
= ١٦٠٢ م فقد جهز بن المعافا جيشا فى مكان يسمى المحافر شرق شهارة
وهى عبارة عن أكمة لأنه يعتقد أن حفظه لهذا المكان يمكنه من أهل شهارة
وقد بذل الأموال الطائلة للعسكر حتى يثبتوا فى أماكنهم ، وعمرؤا فى هذا المكان
أربعين موضعا ، وجلبوا أهل الأهنوم للعمارة ، فحملوا الأخشاب والأبواب من
كل مكان ولما استقروا فى المكان خرجت عليهم جماعة من أهل شهارة وأصحاب
الإمام نحو مائة نفر لتخريب المكان ، لكنهم لم يستطيعوا لقوة العثمانيين
وكثرتهم فى هذا المكان ، ورغم ذلك فأنهم حاربوهم وثبتوا فى أماكنهم يوما كاملا
من طلوع الفجر حتى الغروب ، وكان سلاحهم الحجارة ، وكان العثمانيون فى
تلك الأكمة ، وأصحاب الإمام من فوقهم يرمون بالحجارة فى الهواء^(٢) ، حتى
انتهت المعركة بقتل رئيسهم الأغا محمد ، فلما قتل ضعفت عزائمهم ، وتركوا
المكان ومابه من خيام يقدر عددها بنحو تسع خيام ، أخذها أصحاب الإمام
ونصبوها فى شهارة عند الإمام^(٣) ، وفى نفس العام ١٠١٠ هـ = ١٦٠٢ م عمل
ذو الفقار على قطع طريق الاتصال بين شهارة الفيش وشهارة الأمير فوقف فى مكان
يسمى الرحبة ، فاحتال حتى نصب مترسا^(٤) مرتفعا وحصنه بوضع من يحميه

(١) الشرقى - اللاكثى المضيئة ص ١٩٢

(٢) كالمفع الهاون الذى استعمله العثمانيين .

(٣) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٤٠

(٤) المترس = هو ما يستتر به من العدو كالحائط (المنجد)

من خاصته ، فلما علم الإمام بذلك اجتمع مع أهل الشهارتين ، وطلب منهم الاستعداد لقتال العثمانيين ، وأن يهبوا له أعمارهم في ذلك اليوم ، فكان له ما أراد ، واستعدوا لتخريب هذا المترس ، فنزل الإمام معهم حتى ركزهم بالقرب من حصن المنصورة ، فلما اكملوا التعبئة كبروا ، والتقى الفريقان فرماهم العثمانيون بالبنادق واخطط الرجال ودخان البنادق وشعاع النيران حتى صار الضوء كالشمس وقد حدث في ذلك الوقت خسوف القمر فأظلم المكان ، ورجع أصحاب الإمام بعد أن هزموا العثمانيين وأخربوا المتراس ولم تكن خسائرهم كبيرة . (١)

استمرت الحروب المتتالية على شهارة طول مدة الحصار ، فكان بعض أصحاب الإمام ينزلون على بعض مواقع العثمانيين فيأخذون ما فيها ، ويقتلون من يتعرض لهم ، وكانت الحرب سجالا . (٢)

ونظرا لطول مدة الحصار وقلة المؤن في شهارة اختفى الإمام في كهف بالقرب من المنصورة بشهارة ، وكان الحاج أحمد بن علي بن دغيش الغشمي يرسل السعاة سرا في البلاد الخاضعة للإمام ليجمع المؤن والزاد للإمام ويعطيها للحاج سالم الحكمي والحاج محمد بن زياد وهم من بلد قريبة من شهارة الفيش

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٤٠

(٢) الشرفى - اللآلىء المضيئة ص ١٩٣

ليصلوا بهذه المؤن للإمام وذلك لمعرفةهم بالطرق ، وكان للإمام بنزل إليهم ليأخذ ما معهم بعد التأكد منهم ، ولما طالت مدة الحصار وعانت شهارة من قلة المؤن أكثر فأكثر ، يئس الإمام من التفريغ عن شهارة ، فوجد أن الحل الوحيد هو خروجه منها ليسهل رفع الحصار عنها ودخول المؤن لأهلها ، وبعد أن شاور أصحابه في كيفية الخروج واجتمع رأيهم ، خرج الإمام في يوم ٣ شوال سنة ١٠١٠ هـ = ١٦٠٢ م وفرح أصحابه بذلك ، وصحب معه الفقيه على الشهاري والرئيس على بن وهان العذري ، وترك أبناءه محمد والحسن والحسين وعلى وأحمد ، وترك خطابا عند الشيخ إبراهيم بن المهدي الجحافي ليجيب عن مطالب أهل شهارة ، وما يحتاجون إليه .

وجد الإمام وأصحابه الكثير من المشاق في الخروج من شهارة إلى جهات هرط لشدة الحراسة على شهارة من قبل العثمانيين ، وصعوبة الهبوط في الليل لعسرها وطول مساحتها وعدم معرفة الطرق ليلا ، إذ كانوا يسرون ليلا ويختفون نهارا ، فلما وصلوا بلاد بني سفيان مها أمير من العثمانيين اختبأوا في مغارة عظيمة ، وكان هناك شيخان من نهم هما الشيخ سريع والشيخ سعيد عطوا على إخفاء الإمام في تلك المغارة ، وما جاء إليها أحد الا صرفاه ، وكان العثمانيون كلما اختفى الإمام عن أعينهم شددوا في الحراسة ، فكانوا يخرجون الخيل تطوف حول الأماكن لتستطلع أخبار الإمام ، ولما جاء الليل خرجوا إلى البطنة فسمعوا صوت الخيل فأختفوا حيث أمضوا ليلتهم ، وكان نعل الإمام قد سقط فقطع الطريق وهو حافي القدمين ، فشق عليه المشي ، حتى أنه قطع من ثيابه على أقدامه وأكمل سيره في الليلة الثانية حتى وصلوا حوث ،

وطلعوا الجبل الأسود من بلاد سفيان وأشعلوا للنار فوق الجبل لتدل من فسي شهارة أنهم وصلوا بأمان ، ففرح أهل شهارة بسلامة وصول الإمام ، وفرح ولده محمد وأظهرها البشرى ، ثم ارتحل الإمام إلى برط^(١) ، ولما وصل هناك احتضر بئرا ، وبنى مسجدا جعله مقرا لدعوته ، وسمى الموضع (الهجرة) وهو قريب من ذو محمد ، بطن من بطون برط ، والتف حوله بعض أتباعه من العلماء والفقهاء وقصده مريدوه من كل أنحاء البلاد لتلقى تعاليمه ، أولتسليمه الأموال والنذور التي يتبرع بها أتباعه .

بقى الإمام في برط بعض الوقت بعيدا عن متناول العثمانيين حتى أتاحت له الفرصة لإعلان الحرب ثانية ، غير أن إقامته هناك لم تكن آمنة تماما ، فقد تبرم بعض أهالي برط من إقامته بينهم خوفا من بطش العثمانيين بهم ، إذا امتدت أيديهم إلى بلادهم ، كما لم تكن إقامته آمنة كذلك لأن حاكم صعدة المسمى قرا جمعه وصل إلى الهجرة التي بناها الإمام ، مما اضطر الإمام إلى الخروج منها في القفار البعيدة ، ولما وصل العثمانيون خربوا الهجرة وهدموا المسجد ، واتجهوا إلى جهات برط للقبض على الإمام لكن لم يتم لهم ذلك ، فهم يبذلون الأموال الكثيرة للقبض عليه ، وجعلوه همهم وموضع قصدهم ، لظنهم أنهم إذا تمكنوا منه أطفئت نار الفتنة ، وقد بعثوا الجواسيس وأكثروا من الجند للبحث عنه ، لما ذاقوه من مرارة حربه منذ ظهور دعوته ، ولما عرفوا عنه

(١) برط = جبل متين واسع الاطراف في رأسه أودية زراعية ، وآبار جوفية يزرع فيه العنب ومن الشمال يشرف على نجران .



حصار سطر ١٠٠٩ هـ ، وفروج اليعاقبة من قبل البرط

من المهمة والصبر واقبال للرعية إليه ^(١) ، وقد حاول الإمام الاوتحال إلى نجران في لشمال أثناء وجوده في برط ، بعد أن والا به بعض أهلها ، لكن عند وصوله إليها حدثت حروباً استشهاد فيها بعض أصحابه ، لأن أهلها — الباطنية ، فلم يستقر بها لخوفه من خبت أهلها ومعارضتهم للأئمة فعاد إلى جهات برط ثانية . ^(٢)

خرج الإمام القاسم من شهارة كما ذكرنا وترك أمر الدفاع عن الحصن لابنه محمد الذي واصل الحرب والصبر في وجه العثمانيين ، لكن الإمام أثناء وجوده في برط عمل على إخراج أولاده على - الحسن - والحسين من شهارة ، فقد ارتدى بعض أصحابه ملابس الخطابين ليحتالوا على حراس العثمانيين ويستطيعوا دخول شهارة وإخراج أولاد الإمام ، وبالفعل تم لهم ذلك ، وقد حاولوا إخراج ابنه أحمد ومحمد في المرة الثانية لكن محمد أبى ذلك وقال "لقد وهبت نفسي لله سبحانه ، ولعن في شهارة المحروسة بالله مع المسلمين والعلماء والمستضعفين وأن الإمام لم يأمرني بذلك ، وفي بقائي سلامة لمن في شهارة" ^(٣)

لما علم العثمانيون بخروج الإمام وأولاده من شهارة ، اضطربت أحوالهم وهاجوا وضربوا غضبهم على القبائل ، وأخذوا منهم الرهائن وهدموا بيوتهم وخاصة

(١) الشرفى - اللالى المضيفة ص ١٩٥

(٢) الشرفى - اللالى المضيفة ص ١٩٥

(٣) الجرmozى - النبذة المشيرة ص ١٤٠

قبائل حاشد ومكيل ^(١) ، وأما أهل شهارة فقد صبروا بعد خروج الإمام وخاضوا عدة حروب كاد يذهب فيها ابن الإمام ، لكن العثمانيين وأعدائهم من آل شرف الدين كانوا مازالوا محاصرين لشهارة ، وقتل المؤمن أكثر فأكثر ، وأهل شهارة يعانون من شدة التعب ، فاضطر محمد بن الإمام إلى الموافقة على تسليم نفسه للعثمانيين ، فأرسل الفقيه صلاح بن عبد الله الشطبي إلى ابن المعافا بخطاب ، فما كان من ابن المعافا إلا أنه أرسل يستدعيه لتعام تسليم شهارة إلى أيدي أحمد بن محمد بن شمس الدين حاكم كوكهان ، وكان هو من جملة المحاصرين لشهارة وشرطوا أن تخرج القوات الإمامية من الحصن بأمان ومعها أسلحتها ، وأن يذهب الجنود إلى حيث يشاءون ، وهكذا تم تسليم الحصن للعثمانيين على هذه الشروط في أول شهر محرم سنة ١٠١١ هـ = ١٦٠٢ م ^(٢) ، وان كان قد ذكر في بعض المخطوطات أن خروج ولد الإمام ٢٧ ذي الحجة سنة ١٠١٠ ^(٣) ، وعلى أي حال فإن التاريخين متقاربين ، فيكون بذلك حصار شهارة حتى خرج الإمام منها أحد عشر شهرا وسبع وعشرين يوما ، ثم حفظها محمد بن الإمام سنة كاملة ^(٤) ، وقد وافق العثمانيون على هذه الشروط خوفا من انتقام الإمام القاسم رغم ضعف قوته حينذاك ، وحتى لا يثيرون الأهالي ضد هم إذا قتلوا محمدا بن الإمام أو نكلوا به .

-
- (١) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ١٣٦
 (٢) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ١٤٠
 (٣) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٤٧
 (٤) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ١٣٤

بذلك انتهت النهضة الأولى من دعوة الإمام القاسم ، والتي دامت خمس سنوات ، استطاع الإمام خلالها أن ييسط سيطرته على أغلب الأقاليم الشمالية وحصونها ، ثم عاد فحسر كل هذه المكتكات ولجأ الى برط ، واستعمل العثمانيون القسوة البالغة في مناهضة الإمام ، فقد طاردوا رسله في البلاد ونكّلوا بهم وجعلوهم عبرة لغيرهم ، وقتلوا عمه عامراً ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، واشتدوا في معاملة أتباعه وجيوشه عندما بدأت سيطرته في الانكماش ، فقد أخذوا ينكّلون بالأسرى ويقتلون بعضهم ، ويأخذون من بين قبائلهم الرهائن الكثيرة ، وقد أتت هذه السياسة أكلها في مناهضة الإمام حيث تقاعست بعض القبائل عن مناصرته ، عندما قرر إعلان الحرب من جديد على العثمانيين من برط ، وذلك كما فعلت قبائل وادعة الشام ، فقد رفضت الاستجابة لدعوته ، بل واستعدت لمحاربتة ، وذلك رغم أن هذه القبائل كانت من أهل السبق والمحبة له ، هذا بالإضافة إلى تعاون أمراء آل شرف الدين وغيرهم من الأمراء الزيديين الموالين للعثمانيين ، هذا التعاون القائم على المصلحة ، ومع ذلك فإن الإمام استعد من جديد ليخوض غمار الدعوة والحرب من برط ، وبدأت بذلك النهضة الثانية .

الفصل الثاني

ولاية سنان باشا سنة ١٠١٣هـ

النهضة الثانية

- أ - عرض الصلح على الإمام القاسم في ولاية سنان باشا سنة ١٠١٣هـ
- ب - التطورات في النهضة الثانية وفكرة رحيل الإمام للبصرة
- ج - انضمام الأمير عبد الرحيم بن عبد الرحمن للإمام وبقيّة التطورات
- د - عودة شرارة الإمام القاسم سنة ١٠١٥هـ ثم عقد الصلح مع سنان باشا قبيل رحيله .

ظل الإمام القاسم في برط لمدة سنتين ، يجمع الأعوان حوله ويتأهب لبدا الحرب على العثمانيين من جديد ، ومن هنا تبدأ النهضة الثانية من دعوته ، لكن أهل برط كانوا يكرهون بقاءه في بلادهم خوفا من سنان الذي أصبح واليا على اليمن بدلا من حسن باشا في سنة ١٠١٣هـ = ١٦٠٥م ، الذي ظلت ولايته على اليمن خمسة وعشرين سنة سنة ٩٨٨هـ إلى ١٠١٢هـ الموافق سنة ١٥٨٠م إلى ١٦٠٥م ، وفي آخر السنة لثانية عشرة بعد الألف وصلت الأوامر من السلطان أحمد الأول بتولية سنان ولايته في إقليم اليمن عوضا عن الوزير حسن ، وأعطى الوزير حسن ولاية مصر .^(١)

وجد سنان باشا أنه من الأفضل بعد هذه الحروب المضنية بينه وبين الإمام القاسم دون النيل منه ، بالإضافة إلى تألب الأهالي عليه ، واستعماله الشدة معهم ، أن يعقد صلحا مع الإمام ، ومن ثم اتفق مع الأمير أحمد بن محمد صاحب كوكبان على أن يرسلوا للإمام يعرضوا عليه الصلح وهو يومئذ في برط ، فأمر السيد الحسن بن شرف الدين الكحلاني - وكان في حبس كوكبان - أن يكتب إلى جهة برط ، ويعرف الإمام بشأن الصلح ، وما ينبغي من تسكين الفتنة ، على أن يقيم الإمام أينما أحب من الهجر ، ويجعل له جانب من البلاد ، مع كفايته هو وأولاده ، وكان هذا بمثابة تواطؤ بين الأمير أحمد بن محمد وسنان باشا ، لكي يقروا الإمام بأقطاعه أرضا حتى يترك هذا الأمر ، ظنا منهم أن هدفه

(١) الموزعي - الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ع ٤٤

من وراء تلك الدعوة والحروب المميتة هو السيادة والحكم ، لكن الإمام رفض هذا الأمر لأن ذلك لم يكن هدفه مبرراً هذه الحروب ، وقد أجاب الإمام على ذلك الخطاب بجواب طويل " وتحققنا ما ذكرتم ، أبقاكم الله ولم تذكروا في كتابكم تحقيق أحوالكم وأحوال أولادنا السادة ، مع أنه نقل إلينا حسن صنيع الأمير صفى الدين أحمد بن محمد بن شمس الدين ابن أمير المؤمنين ، من فعل المعروف الطائلى ، الذى جاء شكره على لسان كل قائل ، وورد به الرجال ، والركبان ، فالحمد يحسن إليه . . .

" أما ما ذكرتم أبقاكم الله من ترك الفتنة والميل إلى الراحة فمهيئات اترك قول الله تعالى " من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون " إلى أن قال : " وأما ما ذكرتم من اقطاع بلاد فانا أحق بها ، بلى ان يتركوا شهارة وبلادها ، ووادعه ، وبلاد خولان ، وجبيل رازح مع برط . ويهتد صلحا سنين معروفة طولها وقصرها إليهم ، فان ذلك مشروع ، فان يرضوا ، فقد رضينا ولا ننقض ان شاء الله تعالى عهدا ووافوا بالعهد ان العهد كان مسئولا ، والامير صفى الدين يضمن لنا وعلينا " (١).

وهكذا اشترط الإمام أن تكون له بلاد شهارة ، ووادة وخولان وجبيل رازح وبرط ويكون هذا الصلح لمدة معينة ، لكن سنان باشا لم يرض بهذه الشروط بل أراد أن يمنحه بعض تلك الأراضي ويجعل له اسم الإمارة ،

ويخضعه كباقي أمراء آل شرف الدين ، ولكن الإمام لم يرهض بذلك ، فما كان من سنان إلا أن أرسل للإمام مرة أخرى بواسطة محمد بن شمس الدين يهدده بأن يقبل بذلك ويتخلى عن هذا الأمر ، والآن سوف يعذب أولاده ويقتلهم ، فلم يكن من الإمام إلا أن رد عليه بقوله : " أما من عندكم من المأسورين فافعلوا بهم ما بدا لكم ، وأقسم بالله لا أبلغن في حركم ونكالكم كل مبلغ ، ولا زوجن لكم روغان الثعلب ، ولا ابن عليكم وثوب الأسد " (١) .

فقد وقع هذا الخطاب في قلوب العثمانيين موقعا عظيما هذ من قواعدهم وأيقنوا أن الإمام القاسم ليس بالشيء السهل الذي يستهان به ، أو تغريبه مباحج الحياة الدنيا ، فقد قدم أولاده فداء دعوته وتحقيق غايته .

وهنا نلاحظ أن الإمام هو الذي ألقى شروط الصلح على سنان ، مما يظهر لنا مدى تخوف العثمانيين منه ، ومدى ما وصل إليه من مكانة خلال خمس سنوات خاض فيها غمار الحرب ، ولما وجد سنان ذلك من الإمام لم يكسّر ————— المخاطبة معه في الصلح واستعد للقتال من جديد ، بعد أن أنهكه وأصحابه لمدة خمس سنوات كانت الحرب فيها سجالا .

ورغم ما كان الإمام يعانيه من شدة من أهل البلاد في برط ، ومن التنقل من مكان إلى آخر ، لم يقبل هذا العرض المغري ، ففي أيام بقاءه في بـــــــرط

(١) الشرفى - اللالكى المضيئة ص ١٩٧

ومعه أولاده وأصغرهم الحسين كانوا يعانون من شدة الجوع حتى إن الإمام كان يبكي وولده الحسين قد سقط من شدة الجوع ^(١) فلو كان هدفه السيادة أو الإمارة لقبل بعرض سنان فوراً .

وانتقاماً لرفض الإمام عرض سنان باشا ، توجه سنان إلى الحيمة ، والتقى به أحمد بن محمد صاحب كوكبان ليدخلوها عنوة ، وكان أهل الحيمة قد مالوا مع الفقيه على بن يوسف الحماطي ، وطلبوا منه التقدم إلى بلادهم والجهاد معهم فوصل إليهم واستخلف على حصن سار بعض أصحابه ، فلما وصل الحماطي إلى موضع يسمى (حدبني النمرى) من بلاد الحيمة ، ولم يكن أهل الحيمة راضين جميعاً عن وصوله ، ولذا بقي في موضعه ، فتوجه إليه من صنعاء النقيب سعدان بن عبيد - وهو أمير كبير في عسكر العثمانيين - فالتقوا في جبل الركسب عند حصن رُدْمان من بلاد حُضور ، وأرسل بن شمس الدين بعض أمرائه فنى جمع كبسير ليقابلوه من الشاحدية ويدخلوا الحيمة من أسفلها ، وكل هذه الجموع التقت بالحماطي ووقع القتال ، فلما رأى أهل الحيمة تلك الجموع انكسرت عزائمهم ، وخافوا على حريمهم وبيوتهم ، فلما أحس بذلك الحماطي وتخاذل أهل الحيمة مال إلى ناحية بعيدة في الليل ، ثم رجع إلى سار وواجه العثمانيين الموقف ، وقتلوا أكثر من ثمانية وعشرين رجلاً ، ودخل الجنود بلاد الحيمة ، وأسروا كثيراً من النساء المجتمعات في حصن العُمر ، فشفع فيهن الأمير أحمد بن محمد ابن شمس الدين عند النقيب سعدان ، وآل الأمر إلى أن أذن بدخول الحصن

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ع ١٤٩

بعد أن أعطوه العهد والميثاق على سلامة من فيه من الرجال والنساء والأطفال وكانوا زهاء سبعمائة شخص ، ولكن النقيب سعدان نكت بالعهد ، وأباح من في الحصن للعثمانيين ، فأسروا النساء والأطفال وهرب الرجال ، ثم سعى ابن شمس الدين فى إطلاق بعض المأسورين ، واختير من جملتهم أربعين شخصا كرهائن ، كل رهينة امرأة وطفل وطفلة وأطلق الباقون .^(١)

هذه المعاملة القاسية التى عاملوا بها أهالى البلاد زادت من كراهية أهل اليمن فى بقائهم تحت حكم العثمانيين ، فكانوا ينضمون إلى أى حركة مضادة لهذا الحكم ، لكن هدف العثمانيين من وراء ذلك كان إرهابهم ، لكسب لا ينضمون إلى الإمام القاسم ، وقد أتت هذه السياسة أكلها فى أول الأمر ، ولكن بعد الانتهاء من المعارك كانوا مايلبثون أن يرجعوا للانضمام للإمام ، وتشجيع دعوته والنصرة له للتخلص من الحكم العثمانى ، وقد اتخذ الإمام الجانب الدينى ولا اختلاف المذهبى بين الأهالى والعثمانيين سببا لجذب هذه القبائل إليه مرة ثانية .

ثم توجه سنان إلى حراز لحصار حصن مسار لوجود الحماطى به ، وبعد حصار دام ثلاثة أعوام وأربعة أشهر تسلم سنان الحصن ،^(٢) ووجه سنان باشا الأمير قراجمعه واليه على صعدة للتقدم إلى برط لمحاربة الإمام القاسم بن محمد ، فساروا إليه ، ولم يقدر أهل برط على منعهم ، وكان الإمام قد عزموضعا فى المحلات الخالية والققارات النائية وسكن فيه بأصحابه ، ولما بلغه سيرهم إليه ،

(١) الهرفى - اللائىء المضيفة ص ١٩٦

(٢) الجر موزى - النبذة المشيرة ص ١٤٧

تحويل عنه إلى محل بعيد عنه ، فوصل العثمانيون إلى محله الذي كان فيه فلم يجدوه ، فرجعوا إلى صعدة ، فلبثوا فيها مدة ، ثم عادوا إلى برط ، لكن أهل برط تغيروا على الإمام ، واشتد خوفهم من العثمانيين ، لأن العثمانيين كانوا يأخذون الرهائن منهم ويكتهونهم في ديوان عساكرهم ويوجهونهم إلى اليمسـ الأسفل مع أمير لهم يسمى أحمد الأخرم ، وكذلك كانوا يفعلوا مع باقي قبائل حاشد ويكيل لأن الأمير سعدان المبدلي قال لسنان " كل من كان في دفتر الامام فأنا زعيم بادخاله دفتر " (١)

وقرب الجند العثماني من المكان الذي كان فيه الإمام ، لكن السـنزاع دب بينهم مما فرق كلمتهم فرجعوا إلى صعدة .



مردب الحيمه وصعدة في النزهة الثانية

كان موقف أهل بربط ، وغزو قراجمعة صاحب صعدة للإمام ، من أهم الأسباب التي حملت الإمام على الخروج من بربط ، وقد رأى الإمام أنه من الأرجح الخروج إلى بلاد بنى سفيان فطلع الجبل الأسود أعلى من عيان ، لكن العثمانيين كانوا حريصين كل الحرص على توزيع الجنود على المحطات المختلفة ، للانقضاض على الإمام خاصة بعد تفرق أهل البلاد عنه لخوفهم من العثمانيين ، ولكثرة هزائمهم في هذه الفترة ، ووضعوا في بلاد حاشد وكييل فرقة من الجند وكذلك في خمر والصراره وعمران وذئبين ، ووادة ، والهجر من بلاد الأهنوم والسودة ، وبلاد ذئبان ، وتفرق العلماء والغضلاء في أطراف البلاد في غاية من التخفي .

فلما وصل الإمام إلى عيان رفض أهله نصرته ، وانضموا إلى بعضهم بعضا ، فلما وجد الإمام ذلك خرج إلى الشرق ووصل إلى أسفل بلاد خيار من بنى صريم .

يئس الإمام من تفرق الأهالي عنه ومنعه من دخول بلادهم ، لتخوفهم من العثمانيين ، وتوالت على الإمام الهزائم وترهب العثمانيين به من كل الجهات ، وشددوا في التجسس عليه وأرسلوا ضده الحملات من صعدة وكوكبان وغيرها ، واشتد الأمر على الإمام وكان يعتقد أن ما أصابه سببه عدم الجهاد وعدم الاستعداد لمنابهة العثمانيين ، وبقائه في بربط مدة دون حرب العثمانيين ، لكن ما الحيلة وقد تفرقت عنه جميع القبائل والعلماء ، ففكر في أن يرحل إلى البصرة سنة ١٠١٣ هـ = ١٦٠٦ م^(١) حتى يأتيه الفرج والنصر من الله .

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ع ١٤٨

ولا ندري لماذا وقع اختيار الإمام القاسم على البصرة بالذات ؟ ولكننا نرجح أن يكون هذا الاختيار راجعا إلى أن العراق هو مهد الشيعة حيث أقام به الخليفة علي بن أبي طالب مدة خلافته ، وحيث كثرت زيارات مؤسس المذهب الزيدى الإمام زيد إلى العراق ، وقد يكون تفكيره هداه إلى الذهاب للعراق لطلب العمون من الدولة الفارسية الشيعية ، حيث كان النزاع قائما ومستمرا بين الشيعة في العراق والدولة العثمانية السنية للسيطرة على العراق ، فكان التقائهما ، وكانت كل منهما تسعى لغرض زعامتها على العالم الاسلامي حينذاك ونحن نعرف تاريخيا أنه من ضمن الأسباب غير المباشرة لدخول العثمانيين اليمن هو مهاجمة الشيعة الصفويين من الجنوب ، حين عجزوا عن حسم الموقف معهم في العراق ، ومن محاربتهم من الشمال ، حيث الجليد وصعوبة الجبال الشاهقة وقسوة الجو .

وبعد خروج الإمام من برط الى بلاد خيار بنى صريم ذهب إلى شاطب ومنها إلى وادعه ، ولما وصل الإمام أطراف البلاد اضطربوا وخافوا العواقب لما قد أصابهم أيام استجابتهم له في أول الدعوة ، ومن أسر شايعهم الذين لهم الرياسة وحبسهم في الدار الحمراء ، وتككيل العثمانيين بهم ، ورغم أن أهل وادعة قد وعدوا الإمام بالنصر والقيام معه ، إلا أنهم بعد وصوله إلى المصنعه رموه بالبنادق ومنعوه من دخول بلادهم ، فأرسل الإمام الشيخ عبد الله بن سعيد الطير ليشعل النيران في بلدة العقيرة ، وهي أعلى من وادعة ، وقصد أعطى الإمام الشيخ عبد الله الطير نقودا فضية ليؤلف بها قلوب أهل العقيرة فتم له الأمر ، وكانت تلك الوسيلة لتأليف قلوب القبائل التي كانت تعاني من

الفقر وقلة المال بسبب الانهيار الاقتصادي للبلاط في تلك الفترة ، وكثرة الضرائب والأموال المفروضة عليهم من قبل العثمانيين فكان المال يفرحهم للانضمام إلى أى فريق .

لما رأى الامام النيران قال لأهل وادعة هؤلاء أهل المعيرة أقرب منكم إلى العدو وقد والونا ، فكان ذلك من أسباب صلاحهم ونصرتهم للإمام ، وكانت تلك طريقة (تكشيكية) من طرق الإمام القاسم في جذب القبائل ، فأجاب الإمام بعضهم على خوف وخطر وعضهم امتنع عن اجابته لشدة الحذر ، واستجاب للإمام ما يقرب من الألف وبايعوه ، وقد جمع الإمام أهل وادعة في قرية الصبيحات وتكلم فيهم وهدأ من روعهم وقال " ان كان لكم رهائن فاولادى أكثر وأصحابى رهائن فى كوكبان وهانا وأولادى بينكم - وأشار إلى أولاده الثلاثة - رهائن عندكم . . . ولا فارقت وادعة الا منصورا أو مقتولا ^(١) ، فقام أهل وادعة وتشاوروا فى الأمر ، وتم الرأى على نصرة الإمام ، وعاهدوه على ذلك ، وكان ذلك فى شهر جمادى الثانية سنة ١٠١٣ هـ - ١٦٠٦ م .

ثم كتب الإمام بعد ذلك إلى بنى جبر فأجابوه ، فوجه اليهم ولده الحسن والسيد على بن صلاح العثالى ، وكانت هذه أول مرة يخرج فيها إليهم الحسن وهو يومئذ ابن خمسة عشر سنة ، ولما وصل إلى نثمين ، وبلغ سنان بقاء الإمام فى وادعة ، وجه الأمير عبد الله بن المعافا إلى خمر ، والأمير درويش إلى الصرارة ، والأمير عبد الله بن المطهر إلى بلاد عبد الرحيم ، والأمير أحمد

الأخرم إلى نئين ، فلما رأى الحسن بن القاسم تلك الجموع رجع إلى مرقبة مختفيا ، وبقي فيها عشرين يوما ، ثم رجع إلى وادعه عند والده ، ودخل الأمير أحمد الأخرم نئين وغيرها وأخذ ما فيها فهرت قبائل بني جبر وتركوا بلادهم خالية .

وأما ابن المعافا فقصده وادعه ، فلقاه الشيخ عبد الله بن سعيد الطير وقبائل وادعه ، فهزمه أقبح هزيمة ، وقتل من أصحابه عدة ، وقطعت رؤوسهم .^(١)

كان لهذه الواقعة أهمية عظيمة في نفس الإمام ، إذ بعد انتصار أصحابه فيها تقوت عزيمته وعدل عن فكره في الرحيل إلى البصرة ، وانضم إليه بعض القبائل ونصروه ، وانضم إليه عبد الرحيم بن عبد الرحمن بعد نكثه العهد في أول الدعوة سنة ١٠٠٦ هـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الفصل الأول .

كانت هذه الهزيمة قاطعة لطمع العثمانيين ، فلم يعودوا لمحاربة وادعه بعد ذلك ،^(٢) وكان عبد الرحيم قد أرسل إلى الإمام في برط يعتذر ويتوب عما حدث منه بعد نكثه العهد والتفجير بأصحاب الإمام ، وأن مراده القيام مع الإمام ونصرته والنهوض بدعوته ، واحترام المواثيق والعهود ، ومكاتبته القبائل له وحشهم على نصرته ،^(٣) ومع هذا فقد تمهل عبد الرحيم في إعلان

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٤٨

(٢) الشرقى - اللآلئ المضيئة ص ١٩٧

(٣) الكبسى - اللطائف السنينة ص ١٢٥

انضمامه للإمام خوفاً من أن ينقلب عليه سنان باشا عندما تستتب له الأمور ففى
 اليمن نظراً لقوة العثمانيين وكثرة جنودهم وأموالهم وخيلهم بالنسبة لعبيد
 الرحيم^(١) ، فلما بلغه قيام أهل وادعة مع الإمام ، وانتصار أصحاب الإمام ففى
 نثيين ووادعة تقوى فى إعلان انضمامه للإمام ، وفرحت القبائل والإمام بذلك
 رغم ما كان يشتهر به عبد الرحيم من سوء الخلق ، لكن انضمامه قوى من شوكة
 الإمام ، لما لعبيد الرحيم من قوة وشدة بالإضافة إلى أن الإمام يكون قد كسب
 أميراً زيدياً تابعاً لأعدائه العثمانيين ، خاصة وأن نفوذ عبد الرحيم قد تقوى
 واتسع ففسى البلاد أثناء انشغال العثمانيين بمناهضة الإمام فى النهضة
 الأولى ، فالعثمانيون كانوا يعتمدون عليه إلى حد كبير .

وكان سنان باشا معروفاً بأنه لا يرضى بوجود شخصية قوية إلى جواره ،
 وكانت الوحشة بين عبد الرحيم وسنان باشا فى سنة ١٠١٤ هـ = ١٦٠٧ م ، وكان
 سببها أن الشيخ حسن بن عاطف الأهنومى كان فى شهارة عندما تسلمها
 العثمانيون فى النهضة الأولى ، وذهب هذا إلى محمد بن عبد الرحمن ثم إلى
 أخيه عبد الرحيم هرباً من سنان ، لما كان بينهم من ضغائن ، فأمنه عبد الرحيم
 عنده فى حجه ، لكن سنان أرسل فى طلبه ، فخاف عليه عبد الرحيم من سنان ،
 فأرسل له سنان عهداً أنه اذا وصل إليه سوف يعود سالماً ، فأرسله عبد الرحيم
 فقطله سنان ، فعظم ذلك على عبد الرحيم ، وتيقن من غد سنان به أو بغيره

(١) الشرفى - اللالى المضيفة ص ١٩٧

إذا تمكن منه ، ^(١) فاضمر عبد الرحيم في نفسه الخلاف ، وما أشعل نار هذا الخلاف والفتنة أكثر ، أن الشيخ ناصر البهيلة كان منحرفا عن الباشا سنان فرفع إلى مسامع عبد الرحيم أقوال طغفه ووشايات زادت من تلك الوحشة. ^(٢)

وقيل أن سبب الوحشة بين عبد الرحيم وسنان ، أنه بعد استيلاء عبد الرحيم على بلاد الشرف وحجه من الإمام في الكرة الأولى ، قد جعل العثمانيون اقليم الشرف وحجه له وكتبوا له عهدا بذلك ، وكان للشرف مكانة عظيمة عند العثمانيين ، لما يتحصل لهم منه من أموال طائلة من الخراج ، فخاف عبد الرحيم أن ينزع العثمانيون من يده هذا الاقليم ، فهم لا تطب أنفسهم بتركه ، وأنه لابد أن يأتي اليوم الذي يقاطونه من أجله ويخرجوه منه وذلك عظيم على نفسه ، فهو لا يستطيع مقاومة العثمانيين لما لهم من رجال وخيل ، ^(٣) وكان عبد الرحيم يعلم بمحبة الرعايا للإمام وميلهم إليه ، واسراعهم إلى جانبه ، لذلك لم يتردد في إعلان نصرته للإمام وخلافه مع سنان باشا .

لما علم سنان باشا بخروج عبد الرحيم عليه ، أظهر عدم الاهتمام لكنه هدد قائلا " ما غير عبد الرحيم الا على نفسه ، ولا أزال الا نعمته ، وسوف أملاها عليه خيلا وأوسع أصحابه أسرا وقتلا " ^(٤)

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٥٠

(٢) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٢ ص ٨٤

(٣) الشرفى - اللآلئ المضيئة ص ١٩٧

(٤) عيسى بن لطف الله - روح الروح ص ٨٤ ، الكيسى - اللطائف السنينة ص ١٢٥

وسرعان ما تحول التقارب بين الإمام القاسم وعبد الرحيم إلى خطبوات عملية ، فقد أمر عبد الرحيم بالدعاء للإمام القاسم في الأقاليم التابعة له ، وفي مقابل ذلك طالب الإمام أتباعه المنتشرين في تلك الأقاليم بالوقوف إلى جانب عبد الرحيم ، الذي كان يمثل سلطة العثمانيين في أقاليمه ، فتشجع هؤلاء على الاعلان عن أنفسهم دون خوف من العثمانيين ، وأودون خوف من عبد الرحيم نفسه ، وهو الذي كان يشتهر بالغلظة والشدّة ، وتشجع الإمام بدوره كذلك على إعلان الحرب ثانية على العثمانيين ، والانتقال من برط الى منطقة الظاهر التي تقع إلى الجنوب من صعدة لاثارة قبائلها ضد العثمانيين ، وذلك بعد أن ضاقت به بلاد برط وضاقت به الحال من القبائل وفكر في الرحيل إلى البصرة كما ذكرت قبل ذلك ، فكان انضمام عبد الرحيم للإمام واصحابه هو الذي أحدث هذا التغيير في الموقف .

وكما ذكرنا فإن عبد الرحيم بدأ خطواته العملية بأن أرسل أخاه أحمد بن عبد الرحمن إلى بلاد قراضه ولأعة ، فاستفتحها ، وجرد عسكرا إلى جزع وبلاد عفار ، وجهز أخاه مطهر بن عبد الرحمن إلى ظليمة والأهنوم وما والاها فاستفتحها .^(٢)

(١) : الشرفي - اللآليء المضيئة ص ١٩٨

(٢) : عيسى بن لطف الله - روح الروح ص ٢٤

وبعد أن انتهى أحمد بن عبد الرحمن من فتح قراضة ولاعة تقدم إلى بلاد كوكبان فاستفتح أكثرها ، فخرج الأمير محمد بن أحمد إلى الطويلة ، وجهز النقيب سنبل بعسكر كوكبان إلى بني الذواد ، وانضم إليهم الأمير عبد الله بن المطهر بجماعة من العثمانيين ، فجهز إليهم عبد الرحيم طائفة من عسكره ، وانضمت إليهم قبائل تلك الجهة ، فحاصروهم حتى سلموا وخرجوا إليهم ، ولما وصلوا إلى عبد الرحيم أخذ ما معهم من السلاح الكامل والعدة الوافرة ، وملأ بهم السجون ، وافتتح الحرب على العثمانيين من جميع الجهات .^(١)

بعد هذه الانتصارات التي أحرزها عبد الرحيم وهو في جانب الإمام ، تشجع كثير من مشايخ القبائل من يسيطرون على قبائل هلال واسعة بالخروج على العثمانيين مثل الشيخ علي بن فلاح صاحب قبيلة الحدا .

كذلك الحماطي صاحب أنس لما علم بخروج الإمام من برط إلى وادعة جمع مشايخ الحيمة وعسكرها ، وطلع جبل تيمس في جمع كبير فوصل إلى رئيسهم فأطاعهم ، وخرج الأمير محمد بن شمس الدين من كوكبان إلى الطويلة ، ثم جهز عسكرا إلى الشاحذية وأمرهم بحرب من في شمسان من أصحاب الحماطي ، فتركوا الحماطي في الحيمة وانهزم من في شمسان من أصحاب الحماطي ، ودخل ابن شمس الدين شمسان والشاحذية ، ثم ذهب الفقيه علي بن يوسف الحماطي ومن معه إلى الشاحذية لحرب أصحاب بن شمس الدين ، وهؤلاء لجأوا إلى

شمسان ، وحوصوا فيها .

فى ذلك الوقت وصلت نجدة من سنان باشا إلى ابن شمس الدين وكانت حوالى ثلثمائة مقاتل ، رئيسهم الشريف صلاح الوزلى ، ونظم إليهم ما أمكنه من القبائل لاستخلاص أصحابه فى الشاحذية فلما رأى الحماطى هذه الفارة تأخر إلى الحيمة ، وأخذ بذلك بن شمس الدين جبل تيس من أصحاب الامام .^(١)

لم يستسلم الحماطى للهزيمة ، بل رجع إلى الحيمة ليجمع الجنود والقبائل حوله ويستعد للقاء ابن شمس الدين ثانية ، فبقى فى الحيمة خمسة عشر يوما ، ثم خرج إلى اصحاب ابن شمس الدين فى شمسان ف وقعت الحرب بينهم ، وكان النصر فيها للحماطى ، وفى اليوم الثانى أرسل ابن شمس الدين من الطويلة بفرقة قاتل بها الحماطى ، فقتل من أصحابه اثنان وعاد بمن معه إلى الحيمة مرة ثانية دون أن يحصل على شىء .

فى نفس الوقت الذى خرج الحماطى إلى شمسان ، تجهز الهادى بن غوث الدين ، أحد قادة الامام ، لقتال من فى الأهجر فانتصر عليهم ، واستقر فى الأهجر مدة ثلاثة أيام ثم عاد إلى الحيمة هو ومن معه إلى الحماطى ، ليعاودوا القتال على ابن شمس الدين من جديد ، وبعد شهر مالوا إلى الشاحذية ، وكان فى شمسان اصحاب ابن شمس الدين مع فرقة قدرها ألف ، رئيسهم النقيب ياقوت والنقيب سنبل أشول ، والشريف صلاح الوزلى ، و وقعت الحرب فانهزم

(١) الشرفى - اللآلىء المضيئة ص ١٩٩

أصحاب ابن شمس الدين وقتل النقيب ياقوت وعشرة من رجاله . بعد هـ هذه
الهزيمة خرج أصحاب ابن شمس الدين لمقاتلة الحماطى والهادى بن غـوث
الدين فى نواحي الأهجر ، ولكنهم عادوا منهزمين هذه المرة وقتل النقيب سنبـل
وسبعة عشر من رجاله .

بعد هذه الانتصارات التى أحرزها الحماطى ، والتى رفع فيها من
شأن الإمام وأصحابه ، بعد أن سلبت منهم جميع الاراضى فى الكرة الأولى ،
رجع الحماطى إلى الحيمة ^(١) ، فنفـس الوقت الذى كان أحمد بن عبد الرحمن
قد استولى على حصن الجميمة بالقرب من كوكبان ، استولى عبد الرحيم على بلاد
مسور وملك حصونها كلها ، وتقدمت عساكره إلى بيت عذاقة ، فاستقرت فيه ، وبقي
أحمد بن عبد الرحمن محاصرا لـحصن عولى ^(٢) مدة سنة ، ثم سلمه بعد موت
أحمد بن محمد بن شمس الدين فى أول شهر ربيع سنة ١٠١٥ هـ = ١٦٠٨ م ^(٣)

كذلك استولى مطهر بن عبد الرحمن على بلاد شطب وغريان ، ودخل
مدينة السود قهرا ، وقتل جماعة منها ، وحاصر حصن قرن الباغى وفيه حسين
بن المعافا حصارا شديدا ، حتى أشرف على الهلاك ، لكن حدث خلاف بين
مطهر وأخيه عبد الرحيم جعله يترك حصار السود ، فخرج ابن المعافا من
السود ، وفتح بلاد شطب وسلم هو وأولاده من الوقوع فى يد عبد الرحيم ، فتقدم

(١) الشرفى - اللالىء المضيئة ص ٢٠٠

(٢) عولى ، الجميمة - كلها حصون بالقرب من مسور .

(٣) الشرفى - اللالىء المضيئة ص ٢٠١

عبد الرحيم الى السوده بعساكره واستدعى أصحاب الإمام ، منهم الفقيه على بن محمد الشهاري فتقدموا جميعا إلى السوده ، وقصدوا ابن المعافا الذي لا قسى هزيمة منكورة هو وأصحابه ، واستولى عبد الرحيم على السوده .

بعد ذلك استطاع الإمام أن يمد نفوذه على بلاد الظاهر جميعها ، وبلاد نثبان وبنى عليّ ، وعيال عبد الله ، وبعض بلاد نهم القريبة من صنعاء ، ولم يبق في يد العثمانيين الا الرجو وهزم وما حولها ، وكانت جنود العثمانيين في هذه الاماكن وأصحاب الإمام في اطراف البلاد ، ووقعت بين الطائفتين حروب كثيرة ، وبقي الأسلـسـر كذلك مدة ، وصبرت قبائل تلك الجهات الذين في جانب الإمام صبرا عظيما ، حتى ملوا هذه الحروب والفتن لما أصابهم من تخریب بيوتهم ، ووصل جنود العثمانيين إلى قرية مدرّ وحاصروا أصحاب الإمام فيها ، وانتهى أمرهم بأخذ تلك القرية وما حولها ، فرجع أصحاب الإمام إلى الظاهر ، واستولى العثمانيون بعد هذه الحروب على أكثر البلاد التي أخذها الإمام في تلك الجهات ، وظلت الحال على ذلك إلى سنة ست عشرة وألف (١) ١٠١٦ هـ = ١٦٠٩ م .

أوضحنا أن الإمام استطاع أن يمد نفوذه إلى أكثر البلاد الشمالية بمساعدة عبد الرحيم وأصحابه ، مما أقلق سنان وأرهبه ، فاشتد غضبه على من في السجون من الرهائن والأسرى ، من الرجال والنساء والصبيان ، فضيق عليهم أشد التضييق حتى هلك أكثرهم . (٢)

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٧٤ ، ١٧٥

(٢) يحيى بن الحسين ، غاية الاماني ص ٧٩٠

فى ذلك الوقت كانت شهارة فى يد عبد الله بن المعافا ، بعد أن خرج الإمام منها فى النهضة الأولى ، فتركها له العثمانيون على أن يكون تابعا لهم ، مع تعيين فرقة من الجيش عليها أفا من العثمانيين ، وشيخ من العرب هو الشيخ ناصر بن الأبيض ، وآخران من مشايخ حاشد وكيلى ، وضمو اليهم نحو من مائتى نفر لحفظها . وبدأوا فى تعميرها ، وأصلحوا مدرجها الكبير ، وأكثروا فيها المؤمن ، وعين عبد الله بن المعافا أخاه ابراهيم فى الهجر مع فرقته ليحفظوها ، ومقى هو فى السودة ، وكان عبد الرحيم بعد انضمامه إلى الإمام القاسم ، قد أخذ يفتح البلاد طولا وعرضا باسم الإمام ، كما أشرنا ، ويدعوا له على المنابر ، والإمام يكاتب الناس باجابته ويأمرهم بمواصلة مناصرته ، أرسل أخاه المطهر بن عبد الرحمن إلى إبرق ظليمه ، فافتتحها ، وكذلك بيت بن علا ، ثم أرسل من حاصر شهارة بمن معه من عسكر عبد الرحيم ، وكذلك السودة ، وطال الحصار عليهما ، ولم يستطيع بن المعافا تخليصها من مطهر بن عبد الرحمن فأرسل بن المعافا إلى الإمام سرا ، انه يريد تسليم شهارة له لتخوفه من عبد الرحيم ، فان عبد الرحيم كان يقول "لئن ظفرت ببن المعافا ليكون من المنة التى لا يفعلها الا هو" ^(١) وكذلك أهل الأهنوم كانوا لا يحبون عبد الرحيم لما يتميز به من الغلظة والقسوة ، فقد وصفه الشرفى فى مخطوطته بقوله : "كان عبد الرحيم سعى الطبع سريع البادرة ، ملولا ، عظيم السطوة لا يراعى حقا فى الأغلب . . . وان الصديق والعدو كانا بمنزلة واحدة فى الخوف منه ، مع عدم وفائه بالعهود واستهانتة بها" ^(٢) ، لذلك خافت قبائل الأهنوم أن تسلّم

(١) الجرmozى - النبذة المشيرة ص ١٦٤

(٢) الشرفى - اللآلىء المضيئة ص ٢٠١

عبد الرحيم شهارة خوفا من انتقامه منهم ، فلما طلب عبد الله بن المعافا من الإمام الحضور لتسليمه شهارة كان يضم في نفسه شيئا لكي يخلص شهارة من وقوعها في يد عبد الرحيم ، فكان يرى أن حضور الإمام سوف يستغرق وقتا حتى يتم ، وفي هذه المدة تكون قد وصلت نجدة من سنان باشا تساعده على رفع الحصار عن شهارة ، ولكن الإمام كان أسرع مما يتصور ابن المعافا ، فأرسل في الحال جماعة من الأعيان لمعاونة مطهر بن عبد الرحمن ، وأرسل أحد أصحابه واليا إلى عذر ، كما أرسل ولده الحسن ، وتقدم الإمام إلى شهارة ، فلما علم ابن المعافا بمقدمه دخل شهارة بمن معه من عسكر العثمانيين وكانت شهارة تعاني من قلة المؤن لطول الحصار عليها ، وبدخول ابن المعافا مع ما معه من العسكر زاد من هذه الشدة ، ومن قلة المؤن أكثر فأكثر حتى قيل عنهم " أنهم أكلوا الكلاب ولحوم الدواب ، وبلغت الوقية الطح ثلاث كبار " (١) وكان ذلك من أهم الأسباب التي أدت إلى تسليم شهارة للإمام ، ولما وصل الإمام إليها خرج إليه جميع العسكر ، فأمنهم على أنفسهم ، وجمع سلاحهم ، وأخذ عليهم عهدا ، ألا يعودوا إلى حربه مرة ثانية ، فعاهدوه على ذلك ، وكان تسليم شهارة إلى الإمام في شهر شعبان سنة ١٠١٥ هـ = ١٦٠٧ م حيث استمر حصارها أكثر من سنة . (٢)

كان تسليم شهارة للإمام نصرا عظيما ، لما لها من منزلة عند الإمام ، فهو

(١) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ١٦٥
 (٢) عيسى بن لطف الله - روح الروح ص ٨٦

محب لها ولأهلها ، وقد فتحها الله عليه بدون قتال ، وكانت فرحة الإمام وأصحابه بذلك عظيمة ، واجتمع أهل شهارة على الولائم تعبيرا عن فرحتهم بمقدم الإمام إليهم بدلا من أن يتسلمها عبد الرحيم ، وقد قيل الكثير من الشعر تعبيرا عن هذا النصر العظيم ، ومما قيل :

هبنا بهذا الفتح يابن محمد
 على بعد عهد في الزمان وموعده
 وثبت إلى العليا بصدق عزيمة
 وحدا لمن أولاك سؤلى ومقصدلى
 وبعد إياس من ولى ومعتدى
 فملت الثناء والنصر والفتح عن يدي (١)

خرج الجميع إلى الإمام فأطلق سراحهم وأمنهم إلا إبراهيم بن المعافا ،
فقد اعتقله الإمام في شهارة وشدد عليه في الحراسة لأنه كان يريد رهينة عنده
ليستطيع أن يفدى به ولديه المأسورين في كوكبان ، محمد وأحمد ، منذ حصار
شهارة سنة ١٠٠٩ هـ ، لكن إبراهيم ابن المعافا استطاع الفرار من شهارة بمساعدة
بعض أهلها الموالين له ، وأخفوه في بعض الأودية ، فعلم الإمام بذلك فأغار
على ما يجاور شهارة ووصل إلى صور من أعمال شهارة الفيش وأمر الناس بالتفتيش
عنه في تلك الأودية ، وتظاهر أنه لا يعلم مكانه وبأنه هو الذي هرب بنفسه ، كسى
لا يثير القلاقل والفتن في شهارة ويربى العداوات بينه وبين أحد فيها ، وكان هذا
من حسن صنيع الإمام وإحسانه معاملة أهالي البلاد التي يفتحها ، وعهد إلى^(٢)
المفتشين بأنهم إذا وجدوه وعظموه وعاملوه معاملة حسنة ، فلما وجدوه طلبوا به

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٦٥

ص ۱۶۷ (۲)

إلى الإمام فأحسن معاملته ، أما شهارة فكانت تعاني من قلة المؤن ، وارتفع
الأسعار لطول مدة الحصار كما ذكرت وكان أصحاب الإمام لا يأكلون إلا العنب أو
من النذور والعطايا من الأهالي ، وجمع الإمام مشايخ الأهجوم وطلب منهم طعاما
لمن يحفظ شهارة ، فأرسل المشايخ نحو ثلاثين زيدا يطوفون في البلاد لجمع
الامداد حتى اجتمع قدر عظيم من الأقوات ، جعلت لمن يحفظ حصن شهارة .

لما علم عبد الرحيم بتسليم شهارة للإمام اشتد غضبه على أخيه المطهر ،
وعزله عما كان تحت يده ، فلما تيقن المطهر بعزله رفع الحصار عن السودة التي
كان بها عبد الله بن المعافا ، وكان ذلك سببا في انحلال قوة عبد الرحيم .
(١)

خاف المطهر سوء المصير الذي سوف يلقيه من أخيه جزاء عمله فكاتب
العثمانيين سرا ، بأنهم إذا جعلوه أميرا على شهارة ولاد الشرف كان تابعاً
لهم ويدخل في خدمتهم ، فوعده بذلك ، وأرسل جنوده إلى بيت ابن علا ، كما
أرسل فرقة من جنوده لحراسة طريق حجة خوفاً من أن يغزوه أخوه منها ، فقلت
بذلك جنوده المحاصرين لشهارة ، فكان ذلك من أهم الأسباب التي مكنت الإمام
من دخول شهارة دون عناء ، لكن مطهر بن عبد الرحمن تيقن من عدم مساعدة
العثمانيين له ، وانهم لا يوفون بعهدهم ، وهو خائف من أخيه ، فأرسل إلى
جنوده بترك ساحة القتال ليصلوا إليه ليحتضن بهم من العثمانيين وأخيه ، ووقف

الجند ومظهر في مكان يسمى المسارح ، ووقف العثمانيون في الجهة الأخرى من نفس المكان ، بينما كان ابن المعافا في السود ، وكانت أصواتهم المرتفعة تسمع بوضوح من شدة الاختلاط والكثرة ، فخاف أصحاب الامام من هجومهم على شهارة وهم قلة ، وقد تفرقت أكثر القبائل عنهم لعدم توفر ما يأكلون في شهارة .

لكن النزاع حدث فيها بينهم وتفرق شملهم وبقيت شهارة في يد الامام ، وخرج منها الامام بعد أن ولي عليها من يحفظها ، وأقام الجنود ليحفظوا أطراف البلاد ممن في السود ، أعنى من عبد الله بن المعافا والعثمانيين ، ووصل الامام إلى ظليمه وولي عليها ابنه الحسن ، ثم عاد هو إلى وادعة لتجهيز السرايا إلى الشمال والشرق وبلاد الحيمة وجهات اليمن .^(١)

لما علم عبد الرحيم بتسليم شهارة للإمام ، ورأى ما أحرزه الامام — من انتصارات ، وقعت في قلبه الغيرة والتكبر ، وأصبح ينشر بين الناس أن الامام لا رأى له ، وأنه لولا قيامه معه لما فتح الامام أي بلد ، وأنه كان يبيت النية للغدر بالامام بعد أن يفتح البلاد باسمه ، وكان عبد الرحيم يطمع في أن يأخذ شهارة ثم كوكبان والحيمة ، ثم يغدر بالامام ويأخوانه الذين ساعدوه في فتح تلك الجهات ، فلما علم بتسليم شهارة اضطربت أحواله فكان تارة يخطب للإمام وتارة يثور ويغضب ، فأرسل له الامام حاجبه المسمى البواب ليشره بما فتح الله عليه من البلاد طمعا في أن يهدى من غضبه ويكسبه إلى جانبه فلما وصل إليه

الحاجب حاول عبد الرحيم قطه ،^(١) وذلك تيقن الامام من سوء نية عبد الرحيم .

في هذه الأثناء علم الباشا سنان بعزله عن اليمن فخاف أن يخرج والفتنة في أشده ، وأنه يخشى وثوب الإمام أو عبد الرحيم على صنعا في أثناء تغير الولاة ، وإذا حدثت مثل هذه الفتنة في اليمن تكون عاقبتها خطيرة ، لذلك ارسل سنان باشا الحاج التاجر أحمد الوادي للوساطة عند الإمام لطلب الصلح لمدة سنة أو أكثر ، لكن الإمام استغرب طلب سنان لما له من السطوة والقوة والبغضى للإمام ، ولما وجده منه أثناء مناهضته منذ ظهور دعوته ، فظن الامام الظنون في سنان والحاج أحمد الوادي ، وخاف أن تكون خدعة من سنان باشا ، فأرسل إلى القاضي على بن أحمد بن أبي الرجال يستشير في الأمر ويطلب منه تيقن الخبر من الأمير على بن مطهر بن الشويح ، وكتب اليه " وصل الحاج أحمد الوادي من عند هذا الطاغية العظيم يطلب صلحا ولا عرفت السبب الموجب لطلبه مع ضعفنا عندهم وقوتهم ، واستظهارهم علينا ، وهل يريدون معرفة حالنا أو هو حق وصدق فهو المحبوب المطلوب " (٢) ، وتمهل الإمام حتى علم أن طلب الصلح صحيح ، ففرح بذلك وعقد الصلح لمدة سنة بينه وبين سنان بواسطة الحاج أحمد الوادي .

(١) الجر موزى - النبذة المشيرة عى ١٨٠

۱۷۸ ۵۰ ۵۰ ۵۰ (۲)

أراد الإمام أن يشمل عبد الرحيم هذا الصلح لكن عبد الرحيم رفض ، واتهم الإمام بالعجز لقبوله هذا الصلح ، فتركه الإمام وشأنه مع العثمانيين ، وعقد هو الصلح وحده ، على أن يكون للإمام ما تحت يده من البلاد المفتوحة ، ومعنى عقد الصلح هذا أنه اعتراف صريح من الدولة العثمانية بالإمام القاسم بعد ما أضنتها الحروب والفتن معه ، ولا ننسى ما قد عرضه سنان على الإمام من صلح قبيل توليه ولاية اليمن رغم ما يتمتع به سنان من القوة والإمام من الضعف بالنسبة لقوة الدولة العثمانية في ذلك الوقت ، فلما علم العثمانيون بترك عبد الرحيم للإمام وخروجه عليه ، جمعوا جنودهم للحرب ضده ، واستمرت الحروب بين الطرفين أربع سنوات ، حتى هلك معظم جند عبد الرحيم ، وقد قيل " أنما موضع في بلاد ه كلها الا وسال عليه الدم " (١) .

وقتل عبد الرحيم أصحابه الذين اشتركوا مع مطهر في رفع حصار السودة وتركوا الجهاد ، ومكنوا ابن المعافا من دخولها سلماً ، وكان عبد الرحيم كارهها له ، وأما مطهر فانه استجار بالإمام وترك أخاه يتجرع من حرب العثمانيين ، (٢) وضعف عبد الرحيم بعد تفرق أخوانه عنه بسبب سوء معاملته وقسوته عليهم ، ومن ثم كان هلاكه كما سيأتى فى الفصل الثالث .

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٨٠
(٢) تاريخ دولة الترك ص ١٤ - المؤلف مجهول

الفصل الثالث

صالح ١٠١٦ هـ ونتائجه

- أ - سياسة جعفر باشا
- ب - صالح ١٠١٦ هـ ، استقرار الإمام في شهاة
- ج - تفرغ جعفر باشا للأمر عبد الرحيم بن عبد الرحيم
- د - أسر عبد الرحيم ونفيه ١٠١٨ هـ

فى التاسع عشر من جمادى الأولى من سنة ١٠١٦ هـ = ١٦٠٨ م وصل جعفر باشا واليا على اليمن ، بعد عزل سنان باشا ^(١) ، الذى كان قد قرر الصلح مع الإمام القاسم قبيل رحيله ، كما ذكرت فى الفصل الثانى ، مع أنه كان قد اتصف بالقسوة والشدة والجور حتى قيل " كان اليمن مع سنان وعبد الرحيم كالنار " ^(٢) ، وفى ذلك قال الفقيه عبد الله بن داعر " ان الباشا سنان أساء السيرة فى اليمن وعامل أهله بالا حن ، ووراهم بالمحن ، وتوصل إلى أخذ أموالهم الجلييلة بكل حيلة ، حتى لقد بلغ أهل الأموال فى كتم ما بأيديهم منها بكل حال " ^(٣) .

وكان سنان قبل خروجه من صنعاء ، قد قتل الأمير حسين الدفتردار فى ديوان القصر ، حتى لا يفشى المظالم التى ارتكبها فى حق أهل اليمن فيرفعها إلى السلطان ، أو والى الجديد جعفر باشا لذا بادى فى قتله .

وقيل ان سبب قدوم جعفر وعزل سنان ، أنه قد شكأ أعيان أهل اليمن مرارا إلى مسامع السلطان ما يفعله سنان ، ولكن وزير السلطان الأمير درويش كانت بينه وبين سنان مودة ، فكتم عن السلطان هذه الشكاوى ، ثم حدثت بين السلطان ووزيره درويش مخالفة ، فقتله ، فوجدوا هذه الرقاع المتضمنة الشكاوى ، فبادر السلطان بإرسال جعفر باشا إلى اليمن بدلا من سنان باشا .

(١) المحبى - خلاصة الاثر ج ١ ص ٤٨٥

(٢) الجر موزى - النبذة المشيرة ص ١٨١

(٣) يحيى بن الحسين - غاية الامانى ص ٧٩٢

ويرجع السبب في عدم معرفة السلطان بأمر اليمن وما يحدث فيه من الظلم والجور بالأهالي ، بعد اليمن عن مركز الدولة العثمانية في الأستانة ، وكان من الصعب معرفة أحوال أهله ومشاكلهم .

وكان سنان قد لجأ إلى هذه السياسة لاختضاع اليمن للسيطرة العثمانية ، وقد نجح في تحقيق غرضه من وراء استعمال القوة ، غير أن هذا النجاح كان مؤقتاً ، وسرعان ما انقلب إلى اضطراب وفوضى .

لذلك ترك سنان باشا اليمن وهو ملتهب بالحروب والاضطرابات ، فكان على الوالي الجديد جعفر باشا مواجهة ذلك عند بداية ولايته ، فكان من الحكمة أن يغير سياسة سلفه سنان باشا ليستطيع أن يمسك بزمام الأمور في اليمن ، ولذلك أظهر العدل بين رعايا اليمن لتهدئة الأحوال ، وتخفيف هدة الاضطرابات ، من ذلك أن أهل زبيد شكوا إليه ما نالهم من الجور الشديد والظلم من سنان ، وأنه جعل أموالهم أوقافاً فرد جعفر تلك المظالم وأمر بقتل القاضي عمر أفندي صاحب المخا لتواطئه مع سنان ضد أهل البلاد . (١)

وكان الجباة يحصلون الأموال المقررة في سجلات الدولة من أصحاب النخيل أو من ذريتهم كما هي ، بغض النظر عما إذا كان هذا النخيل مازال قائماً أم لا ،

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٤٩

أم أنه مثمر أو غير مثمر ، فأمر جعفر باشا باحصاء النخيل المثمر سنويا ، لتكون الضرائب مطابقة للواقع ، كما أنه وجد ظاهرة تجميد الضرائب على البقر في وادي زبيد كما كانت مجمدة على النخيل ، فكانت الضرائب تؤخذ على عدد رؤوس البقر سواء الحية منها أو الميتة ، أي على ما كانت عليها وقت احصائها ، وكان بعض الأهالي أو ورثتهم قد اضطروا إلى احترام المهن المختلفة لتسديد الأموال المقررة عليهم حسب ما هو مسجل في دفاتر الدولة " فأذهب عنهم جعفر باشا هذه المظلمة المطلوبة على المفقود ، ولم يبق عليهم الطلب الا فيما هو موجود فهذه صدقة باقية " (١)

كانت ازالة هذه المظلمة عن الأهالي ذات وقع كبير ، لما كانوا يعانونه من الفقر الاقتصادي للبلاد من جهة ، بالإضافة إلى الخسائر التي كانوا يتعرضون لها بسبب الآفات الزراعية كالجراد مثلا أو انقطاع الأمطار ، أو بسبب قطع الأشجار لاستعمالها في البناء ، أو أن تيسر الأشجار ذات النفع الاقتصادي ، كأشجار السبن مثلا ، ففي جبل صبرة - جنوب اليمن - كانت أشجار السبن قد ييسر وقطعها أصحابها ، لعدم نفعها ، فقل بذلك المحصول ، وقد تعرضت الأراضي الزراعية في نفس هذه المنطقة للحروب المتتالية في سنة ١٠٠٦ هـ ، بسبب هجوم أهل الحجرية المتكرر عليها لمناهضة العثمانيين ، ففي أثناء

(١) الموزعي - الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥٢

هذه الحروب أخذ أهل الحجرية فى قطع أشجار البن ، وحرقوا جذوعها ، فتلفت بذلك الأراضى الزراعية ، وقل نفعها الاقتصادى وتعرض أهلها للفقر والدمار والتشرد ، بسبب ذلك لأن للدولة كانت تأخذ منهم خراجا ثابتا بصرف النظر عن جودة المحصول أو خرابه .

فلما جاء جعفر باشا أزال عنهم هذه الغمة ، وأمر بأن يمر وقت ثمرة البن فى جبل صبره مباشرة عارفون بقلّة البن لتقديره ، مع كاتب من قبل الكاشف ومندوب شرعى من قبل قاضى تعز يكون محل الثقة عارفا بحق الدولة وحقوق الرعية معا ، ويقدرّون ما هو موجود من البن ، ويأخذون ما للدولة ، ويقرروا بذلك فى سجلات ودفاتر خصصت لذلك ” واستمر الحال على هذا المنوال يوجد فيه الموجود ولا يطالبون بالمفقود ” (١) .

وقد أدرك جعفر باشا أن رضا اليمنيين على الوالى العثمانى أو سخطهم عليه ، إنما يتوقف أساسا على نجاحه أو فشله فى النواحي الادارية والمالية ، فعمل على كسب الأهالى إلى جانبه بالقضاء على المظالم المالية السائدة قبيل ولايته ، وذلك ، بأن ربط الضرائب بالثروة الحقيقية للأفراد ، ومنع من تجميدها رغم تغير ظروف هؤلاء المالية .

وقد عمد جعفر باشا كذلك إلى تقريب الفقهاء والعلماء على اختلاف

(١) الموزعى - الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥٢

مذاهبهم إليه ، وأجراء المناقشات الطويلة معهم ، وذلك لانبأة الفوارق المذهبية ولتقريب وجهات النظر فى المسائل السياسية والدينية .

فقد اشتهر جعفر باشا بعلمه وتفقهه فى الدين ، وتعظيمه للعلماء والأشرف ومعرفته بحقوقهم ، لأنه كان على قدر كبير من المعرفة بالعلوم الشرعية والعقلية وكان شاعرا مجيدا (١) ، وقد ذكر المحبى فى كتابه " انه قد ذكره الامام الطبرى فى تاريخه وقال : سمعت من لفظ والدى قال تباحث أنا وياه - جعفر باشا - فى خمس علوم ، التفسير والحديث ، والمعانى ، والبيان ، والقراءات فوجدته فى كل منها كاملا " (٢) .

كما ذكره محمد بن كائى الرومى فى تاريخه " كان جامعا بين محاسن الخصال ، ومراتب الكمال ، وكان عالما عاملا ، وفيه من لديانة والتهجد ما هو كثير على أمثاله ، وكان خليقا بكل وصف حسن ، الا أنه كان يحب الفخر وفيه من التيه شىء لطيف . . . ولوا من سفك الدماء فى آخر مجيئه الى اليمن لكان ممن ملك القلوب وهو معذور فى هذا الأمر " (٣) .

لذا نجد قد قرب إليه بعض الفقهاء الزيد بين المعتدلين ، وأحسن إليهم ، مثل السيد محمد بن عز الدين المؤيدى المعروف بالعفتى ، والسيد محمد الحوشى والسيد الحسن بن شمس الدين بن جحاف وغيرهم ، وقد ناقشهم فى أمور

(١) الكبسى - اللطائف السنية ص ١٢٧

(٢) المجبى - خلاصة الاثر ج ١ ص ٤٨٥

(٣) نفس المرجع والصفحة

فقهية عديدة حتى أظهر لهم " أن الخلاف إنما هو لفظي فيما بينهم " (١) وذلك يرجع لقدرته على المناقشة وغزارة علمه ، ان يعتبر ممن يهتمون بنشر العلم حتى قيل عنه انه هو الذي " أخرج تفسير ابن السعود فنسخ من عدة نسخ وانتشر في اليمن وظهر " (٢) .

وكان هذا التفسير لم يعرف من قبل ، ان كان جعفر باشا يورد على علماء صنعاء مباحث من أبي السعود لم يعرفوها ، حتى حملهم ذلك على الرغبة في الكتابة والتحصيل .

وبهذه الطريقة جذب نحوه العلماء والفقهاء ليكونوا في جانبه بدلا من أن يكونوا ضده ، لما لهؤلاء العلماء من تأثير على الأهالي وخاصة أهل الجبال الشماليين ، لما لهذا الجانب من أعظم الأثر في نفس الجبلي أو الصحراوي ، لذا كانت خطة جعفر باشا ذكية في من هذا الجانب الحساس ، لكل هذا ،

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٥٢

(٢) نفس المرجع والصفحة .

وتفسير أبو السعود نسبة إلى أبو السعود بن محمد بن العماد الحنفي ٩٨٨ - ٩٨٢ هـ من علماء العثمانيين المستعربين ، كان مفسرا وشاعرا ، تقلد القضاء ، وأضيف إليه الافتاء وكتابه في التفسير هذا اسمه :
" ارشاد العقل السليم في مزايا الكتاب الكريم "

كانت الفترة التي تولى فيها جعفر باشا فترة هادئة بفضل السياسة التي استخدمها لتنفيذ أغراضه في اليمن وتهدئة أحواله ، وخاصة أنه عقد مع الإمام القاسم صلحا لمدة عشر سنوات ، وقضى على عبد الرحيم بن عبد الرحمن كما سنفضل ذلك فيما هوأت .

وقد وصف أحد المعاصرين حال اليمن في فترة ولاية جعفر باشا بقوله
 " انقادت له الأرض بالطول والعرض ، وكان في أيامه اليمن كله جنة عدن لما حل في قلوب أهله من الأمان والأمن " (١)

ونحن نرى هنا أن سياسة جعفر باشا متمثلة في جانبين : الأول رفع المطالب المالي عن الأهالي ، والثاني الجانب العلمي لفئة واحدة فقط ونسائر الأهالي وهي فئة العلماء والفقهاء ، ولم ينظر جعفر باشا ولا غيره من الولاة العثمانيين المصلحين في اليمن إلى جوانب أخرى كتطوير الزراعة مثلا ، أو الصناعة أو التجارة ورفع شأنها ، أو تقديم الخدمات العامة للأهالي ، مثل تسهيل طرق المواصلات ، والبريد أو بناء المدارس والمستشفيات وغيرها ، إذ أن هذه الأعمال تركت على أنها من مهمة الأهالي أنفسهم وفقا لتقاليدهم وأوضاعهم الخاصة .

أما اهتمام الولاة العثمانيين بهذه الأمور ان اهتموا بها فانما يكون من أجل زيادة موارد الاهالي في البلاد ، لزيادة موارد الدولة ، أو من أجل رغبة

(١) الموزعي - الاحسان ودخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٧

بعض الحكام فى تخليد ذكراهم باقامة المنشآت الدينية كالمساجد أو بناء القلاع أو الحصون وكذلك اهتمامهم بمظاهر الحياة الدينية والاجتماعية العامة .

كذلك لم نجد أى تغير فى الأوضاع القبلية فى اليمن التى تحتاج إلى تغير حضارى كبير ، لأن قدرة الولاة وامكانياتهم محدودة ، ان لا يمكن تحقيق هذا التغير فى ثناء حكم معين ، أو فى خلال مرحلة تاريخية معينة وذلك لأنه يحتاج إلى امكانيات كبيرة وفترات طويلة ، فتغير هذه النظم أو الأوضاع لا يتحقق الا اذا تغيرت ظروف معيشة القبائل ، ولا يتأتى هذا الا عن طريق نشر التعليم مثلاً بين الأهالى ، أو عن طريق امتصاص طاقتهم وجهودهم فى القيام بأعمال انشائية وعمرانية كبيرة ، زراعية كانت أم صناعية خاصة أن أرغى اليمن خصبة وغنية بالثروات المعدنية ، وتنفيذ هذه الخطوة الحضارية لا يتم الا عن طريق حكومة قوية مستقرة ، ووالى قوى يستطيع أن يتعاون مع هذه القبائل ليتغلب على ظروف بيئتها الطبيعية الصعبة التى يغلب عليها الطابع الجبلى أو الصحراوى .

وبطبيعة الحال لم يكن فى مقدور الدولة فى ذلك الوقت القيام بمثل هذه الأعمال لأنه هدف العثمانيين من وراء حكمهم لليمن فى ذلك الوقت لم يكن لاحداث تغير حقيقى فى أوضاع البلاد الاجتماعية .

ولذلك لم تمتد جهود جعفر باشا لاحداث مثل هذه التغييرات ، وانما اكتفى بهذا القدر الذى أشرنا اليه .

أما عن صلح سنة ١٠١٦ هـ واستقرار الإمام في شهبارة ، فقد اتسعت هوة الخلاف بين الإمام القاسم وعبد الرحيم ، وخاصة بعد أن عقد الإمام صلح مع سنان باشا الصلح قبل رحيله ، وقد رغب الإمام القاسم في أن يشمل صلحه مع العثمانيين عبد الرحيم ، لكن الأخير رفض واتهم الإمام بالضعف والعجز ، وكانت الوحشة بين عبد الرحيم وسنان ، لذلك نجد أنه بعد تولي جعفر باشا ولاية اليمن سارع عبد الرحيم بالاتصال به لاقامة علاقات ودية معه تتمثل في صلح يعقد بينهم ، وأظهر له أن خلافه مع سنان باشا كان بسبب عداوة كانت بينهم بسبب الوشاة ، وأظهر منابذته ومخالفته للإمام ، وأنه راغب في عقد صلح معه ، سُر جعفر باشا لهذه المبادرة من جانب عبد الرحيم ^(١) لكن الأخير أرسل أخوه إلى كوكبان للقيام ببعض الأعمال العسكرية لتوسيع مناطق سيطرته أثناء مفاوضات عقد الصلح ، وكان ذلك سببا في شك جعفر باشا في صدق نية عبد الرحيم ، وزاد من هذا الشك أيضا أن جعفر باشا أرسل إليه أحد الفقهاء ليعرض عليه الصلح على أن يترك له ما تحت يده من البلاد ، وهو حين ذلك في كوكبان ، فلما وصل الفقيه إليه أحسن استقباله ، وأظهر سروره بوصوله لما كان بين الفقيه وعبد الرحيم من مودة ، فلما علم أنه وصل لعقد الصلح واغمد سيف الفتنة اشتد غضبه ، وخرج إلى مكان يسمى حوره واركب الفقيه معه ثم صلبه على شجرة هناك فاستشاط جعفر باشا غيظا . ^(٢)

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح ص ٨٧ ، الكبسى - اللطائف السنيقى ١٣٦
 (٢) تاريخ دولة الترك ص ١٥ - المؤلف مجهول

قال الشرفى فى مخطوطته " كان عبد الرحيم كتب إلى الباشا جعفر يريد منه أن يكون من جمعتهم ، ويمطونه من البلاد ما فرضاه ، فوقع الخوض فى ذلك مدة فلم يتهيئا بينهم اتفاق ، لخبث عقيدة الأمير عبد الرحيم وسوء أفعاله^(١) "

ولم يتم عقد الصلح ولذلك رأى جعفر باشا أن فتح الحرب فى جبهتين أمر صعب ، وأن الأولى أن يعقد صلحا مع الإمام القاسم ، إذ كان احتمال الحروب ضد العثمانيين فى المنطقة الشمالية من جانب الإمام القاسم وعبد الرحيم يفرى جعفر باشا على عقد الصلح مع أحدهما ليتفرغ لمحاربة الآخر ، أو حتى مع كليهما لاطفاء نار هذه الحروب التى واجهته عند بداية توليه أمر اليمن ، وما دام جعفر باشا قد فشل فى عقد صلح مع عبد الرحيم ، فقد كان ذلك دافعا قويا الى تقرب جعفر باشا من الإمام ، وعقد معه الصلح .

وقيل ان الباشا سنان قبل رحيله من صنعاء أشار على جعفر باشا بالصلح مع الامام ومتابعة عبد الرحيم .^(٢)

وقد أجاب الامام على جعفر باشا بالموافقة على الصلح لما رآه من المصلحة الظاهرة للأهالى ، وذلك لأن القبائل ملوا الفتنة وطول الحروب بسبب الخسائر التى خسروها فى المال والأهل من جراء تلك الحروب ، كما أنه رأى أن كثيرا

(١) الشرفى - اللآلىء المضيئة ص ٢٠٥

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٩

من رجال القبائل كانوا يميلون لمن يدفع لهم أكثر من الأموال ، ونظرا لقوة الدولة العثمانية بالنسبة للإمام في ذلك الوقت ، فقد كانت أغلبية القبائل تميل إليهم بعد أن كانت في جانب الإمام ، وذلك راجع لحاجتهم إلى الأموال بسبب فقرهم ، بالإضافة إلى ميل أمراء آل شرف الدين للدولة العثمانية وتعاونهم معها ضد الإمام ، فكان الإمام بذلك يحارب في جبهتين متمثلة في الأمراء اليمنيين من آل شرف الدين والدولة العثمانية ، وكذلك ما ظهر من عبد الرحيم من كرهه للإمام والغدر به ، وخاصة عند ما أرسل حاجبه شمس الدين البواب ، فأشعل عبد الرحيم النار لا حراقه .

كما رأى الإمام أن في عقده مصلحة كبيرة ، فهو بذلك يستطيع أن يخرج أولاده من أسرهم في كوكبان وكذلك باقي المأسورين والرهائن هناك .

فكل هذه الأسباب مجتمعة جعلت الإمام يبادر بالموافقة على الصلح ، وأرسل الإمام القاغى مجد الدين سعد الدين بن الحسين المسورى إلى صنعاء ليعقد الصلح مع جعفر باشا ، وعمل في سبيل عقد الصلح من جهة الدولة العثمانية من الأمراء ، الأمير عبد الله بن المعافا والحاج أحمد الوادى .

وبالفعل عقد الصلح في يوم الاثنين الحادى عشر من شهر ذى الحجة سنة ١٠١٦ هـ = ١٦٠٨ م لمدة عشر سنين .
(١)

كانت شروط الصلح التى وافق عليها كلا الطرفين هى : أن يبقى للإمام ما تحت يديه من أقاليم المنطقة الشمالية وهى الأهنوم ، وعذر ، ووادة وظليمة والعصيمات وشهارة ، ويرط ، والحيمة ، ورد له جعفر باشا حصن حميمة السعدا وبلادها وكانت تحت سيطرة العثمانيين ،^(١) وأن يؤمن سكان المناطق من الجهتين ، ويسمح لهم بحرية التنقل فى أى البلاد ، وإن كان لأحد حق فى أحد الجانبين سمح له بالاتصال به ليأخذ كل ذى حق حقه .

كما وافق جعفر باشا كذلك على فك أسر أولاد الإمام محمد وأحمد ممن كوكبان وجميع أهلهم وأصحابهم ، وإطلاق من فى سجن صنعاء من الرهائن ،^(٢) وإطلاق رهائن الحيمة ، وكان قد قبض على مجموعة منهم أيام الحرب مع سنان فى الكرة الثانية ، فى هروب الحيمة الشهيرة التى مرّ ذكرها فى الفصل الثانى ، واشترط الإمام أن يبقى سلاح أهل الحيمة معهم لمناصرتهم الإمام ، وقد وافق جعفر باشا على ذلك فيما ترجح لاسترضاء الإمام ولتهدئة الأوضاع فى شمال اليمن ،^(٣) ولما تم عقد الصلح بادر جعفر باشا بتنفيذ الشروط لتهدئة الحالة المضطربة فى اليمن ، وبدأ إطلاق سراح أولاد الإمام وأهلهم وأصحابهم من أسر كوكبان ، فيما بين شهر رجب وآخر رمضان سنة ١٠١٧ هـ = ١٦٠٩ م .^(٤)

(١) الشرفى - اللآلىء المضيئة ص ٢٠٩

(٢) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٥٠

(٣) الجرmozى - النبذة المشيرة ص ١٨٢

(٤) الشرفى - اللآلىء المضيئة ص ٢٠٩

خريطة الصلح



الأقاليم التي نص عليها صلح ١١٦٠هـ وبقيت تحت يد الإمام القائم

وقد خرج الجميع إلى شهارة مستقر حكمهم ، واستقرت بذلك أحوال
الإمام وأولاده .

وكانت الأمور خلال الصلح على أحسن حال ، ولم يحدث أى منافرة بين
الجانبيين حتى نقص الصلح سنة ١٠٢١ هـ فى النهضة الثالثة كما سنفصل ذلك
فى حينه .

والواقع ان هذا الصلح كان تتويجا لانتصارات الإمام القاسم عند نهاية
الكرة الثانية ، وتثبيتا لأقدامه فى المنطقة الشمالية ، وذلك على عكس ما حدث
له عند نهاية الكرة الأولى التى انتهت بسلب جميع ما استولى عليه من البلاد
وعرض للهزيمة مما جعله يلجأ إلى جبل برط للاختفاء به .

فقد استطاع الإمام فى نهاية الكرة الثانية أن يفرض وجوده على العثمانيين ،
وأن يجبرهم على الاعتراف به ، واعتراف العثمانيين بالإمام وموافقتهم على شروط
الصلح يعتبر مظهرا من مظاهر ضعف الحكم العثماني فى اليمن و خلخلة نظمته
ان يعتبر ذلك بداية نهاية الحكم العثماني فى اليمن ، لان العثمانيين كانوا
يحرصون على بقاء هذا الصلح لحاجتهم إليه ، فيعملون بدورهم على تهدئة
الأحوال مع الأئمة سادة الشمال للتفرغ لحل مشاكلهم فى باقى أقاليم اليمن ،
والحقيقة أن كلا من جعفر باشا والإمام القاسم كان فى حاجة إلى هذا الصلح
لتنظيم شئونهما داخل أقاليمهما .

فالإمام قد أحرز عدة انتصارات بالفعل لكن هذه الانتصارات لم تكن

لولا انشغاله بحروبه مع عبد الرحيم ^(١) ، فكان على جعفر باشا التصدي لــــه والقضاء عليه ، وكذلك دارت الحرب بين جعفر باشا والكتخدا عبد الله شلسبي الذي أعلن تمرده عليه كما سنفصل ذلك في الفصل الرابع ، بالإضافة الى تعدد الاضطرابات في باقي اقليم اليمن ، مما كان يضعف في نهاية الأمر من جانب العثمانيين ويقتل من هيبته .

وهكذا يمكن القول بأن هذا الصلح كان توطيدا وتديما لأقدام الإمام في المنطقة الشمالية ، وقد شبه الجرmozى هذا الصلح بصلح الحديبية ^(٢) ، وسوف نحلل هذا التشبيه في خاتمة الرسالة .

كذلك كانت الاضطرابات التي واجهت جعفر باشا سواء من جانب حاكم صعدة العثماني أو من جانب عبد الرحيم على السواء بداية لا امتداد سيطرة الإمام إلى الاقاليم الشمالية ، ثم إلى باقي أقاليم اليمن على عهد أولاده من بعد ، كما كان هذا الصلح فاتحة خير على الإمام ، فقد اتصل به كثير من الناس وناصروا دعوته ، وانضموا إليه بالآلاف لأنهم آمنوا واطمأنوا بهذا الصلح ^(٣) .

وبعد عقد الصلح مع الإمام القاسم ركز جعفر باشا جهوده ضد عبد الرحيم ابن عبد الرحمن ، وخاصة بعد ما تيقن من سوء نيته ، عند ما أرسل له رسوله لعقد الصلح معه ، فما كان من عبد الرحيم إلا أن قتل الرسول ومثل به ، كما ذكرنا سابقا .

(١) الجرmozى - النبذة المشيرة ص ١٩٥

(٢) نفس المرجع ص ١٨٥

(٣) الشرفي - اللآلئ المضيئة ص ٢١٠

وكان صاحب كوكبان ، وهو الأمير اسماعيل بن احمد بن محمد بن شمس الدين ، كان يرسل لجعفر باشا باستمرار عن جميع الأعمال الجويشة التي يقوم بها عبد الرحيم ، وتعديه على بلاده ، فكانت تلك الشرارة التي اشعلت النار فى الهشيم ، فانهارت أمور عبد الرحيم وتضعفت أحواله بعد ذلك .

جهز الباشا جعفر جيوشه لمحاربته ، بعدما اطمأن من جانب الإمام القاسم حيث عقد معه صلح سنة ١٠١٦ هـ ، وفى يوم السبت ١٧ ربيع الثانى من سنة ١٠١٧ هـ = ١٦٠٨ م وجه جعفر باشا جنوده بقيادة عمر كخيا وجماعة من أهل كوكبان الى قلعة المشفق من بلاد مسور ، وكان عددهم يبلغ نحو ستة آلاف جندي ، وكان فى مسور أحمد بن عبد الرحيم فهزم ، ثم دخل الجيش لاهه ، أما أحمد بن عبد الرحمن فخرج من مسور الى هريه ، فقصده الأمير درويش ، ثم خرج عند أخيه عبد الرحيم فى حورة ، وتشابك الجيشان فانهزم أحمد بن عبد الرحمن ورحل الى حصن شمسان بنى عكاب ، وكانت الحروب على أشدها والرمى بالبنادق من كل مكان ، وكان عبد الرحيم يثبت أصحابه ويقتل منهم من انهزم عن مركز الحرب ، مما جعلهم يخافون منه فيثبتون الثبات العظيم "حتى صار يضرب بهم المثل فيقال هذا من عسكر عبد الرحيم يد حوته بذلك" (١) ، ولكن رغم ما أبداه جند عبد الرحيم من بسالة الا أنه قتل منهم عدد كبير ، وكان عبد الرحيم فى ذلك الوقت فى كوكبان ، فلما رأى شدة الحروب وقوة الجنود خرج إلى الذنوب ، حيث لم يبق فى يده الا الذنوب وحصن كوكبان وحجه وحصن مبين .

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ع ١٥٠

وفى تلك الأثناء أعلن من فى كوكبان حجه خروجهم على عبد الرحيم ، وخضو^{عهم} للعثمانيين ، وأرسلو العمر كخيا يطلبوا منه الأمان وتسليم حجه له ، فأسرع عمر كخيا لاستلامها ،^(١) ثم أرسل جعفر باشا المدافع الثقيلة لمحاصرة مَبِين ، فحاصروها وكان فيها أحمد بن عبد الرحمن وأخوه الأمير عبد الرحيم ، فلمّا ضاق به الحال وخاف أن تحيط به أيدي العثمانيين من كل مكان ، وكانت بلاد الشرف باقية تحت يده ، رأى أن يخرج إليها ، ويخلف أخاه محمد فى حصون حجه ليستطيع النجاة اذا احتاج إلى الفرار وليتمكن كذلك من محاربة العثمانيين بفضل الامدادات من أهل البلاد التى مازالت خاضعة له ، وقد فكر عبد الرحيم فى أن يلجأ للإمام القاسم لكى يتوسط له لدى العثمانيين ، أو أنه يتفق معه ليكونوا يدا واحدة لمحاربتهم ، فيتقوى بالإمام لعلمه بمحبة القبائل له ، فهو مسموع الكلام لديهم^(٢) ، لكن ذلك لم يتم لأن عبد الرحيم سبق وأن اتهم الإمام بالمعجز عندما أراد أن يشركه فى صلحه مع العثمانيين ، وطال الحصار على مَبِين ، فسلم أحمد بن عبد الرحيم الحصن للعثمانيين ، وطلب منهم الأمان فسيروه إلى صنعاء ، بعد ما أخذوا جميع ما فى حصن مَبِين من خزائن عبد الرحيم واسلحته ونقوده وجميع الأثاث والكتب القيمة ، التى كانت من محاسن الكتب لدى عبد الرحيم ، ثم توجهوا إلى جهات الشرف لملاقاة عبد الرحيم ،^(٣) فلما وصل عبد الرحيم بلاد الشرف حيث خرج إليها ليلاً متخفياً ، وكان أخوه محمد بسن

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح ع ٨٧

(٢) الشرفى - اللآلئ المضئية ع ٢٠٩

(٣) نفس المصدر ع ٢٠٥

عبد الرحيم في حصن المفتاح - أحد حصون بلاد الشرف - تنكر هذا لأخيه عبد الرحيم لسوء أفعاله معه ، فتوجه عبد الرحيم إلى حصن كحلان الشرف ، فلما بلغ جعفر باشا أن عبد الرحيم يتنقل من حصن إلى آخر ثار عليه وغضب ، فأرسل له في الحال الأمير محمد بيك الكردي السردار بعساكر كثيرة لمحاربة عبد الرحيم ^(١) ، وفي نفس الوقت أرسل محمد بن عبد الرحمن إلى عمر كخيا يطلب منه الأمان ويسلمه حصن المفتاح ، فأسرع عمر كخيا في الحال لاستلام الحصن فقابلته الشيخ ناصر المحبشي بجميع قبائل الاهابشة وسلموه بلادهم ، ثم تقدم بعساكره وتسلم حصن المفتاح ^(٢) ، وسار عمر كخيا بمحمد بن عبد الرحمن إلى صنعاء ، ثم حاصروا عبد الرحيم في حصن كحلان الشرف ومنعوا الدخول إليه والخارج منه ^(٣) .

فلما رأى عبد الرحيم ذلك من اخوته وتنكرهم له بسبب سوء أفعاله معهم ، وقسوته مع القبائل الذين فضلوا الانضمام للعثمانيين عن الانضمام إليه ، خوفاً من بطشه بهم . رأى ان يخرج من كحلان الشرف طالبا الأمان من جعفر باشا سنة ١٠١٨ هـ = ١٦٠٩ م فخرج إلى الأمير محمد الكردي السردار ، وطلب منه الأمان ، فأخرج له الأمير محمد مرسوماً بالأمان من جعفر باشا ، ثم اتجهوا إلى صنعاء ، فلما قربوا منها كان في استقباله الأمير عبد الله بن المعافا ، واختاره الباشا جعفر بالذات ليكون في استقباله لما بينهما من العداوة ، وقد أرسله

(١) الموزعي - الاحسان ودخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥٨

(٢) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٥٠

(٣) الكبسى - اللطائف السنية ص ١٢٦

جعفر باشا لا استقباله من أجل الشماتة بعبد الرحيم ، فلما وقعت عين عبد الرحيم عليه تغير وجهه وعرف ان الشر ينتظره ، فلما وصل صنعاء كان في استقباله اخوته وكافة الأمراء والأغوات ، ولما قابله جعفر باشا وبخه على اعماله القبيحة ، وأمر أن يضعوه في الدار الحمراء بصنعاء لحبسه فيها .^(١)

استمرت الحروب بين جعفر باشا وعبد الرحيم مدة سنتين بعد عقد الصلح مع الإمام القاسم ضعف فيها حال عبد الرحيم وكان مصيره الهلاك .

وكان دخوله إلى الدار الحمراء يوم الأحد سادس ربيع الآخر سنة ١٠١٨ هـ = ١٦٠٩ م وبقي في الدار الحمراء لمدة سنتين ، وكان العثمانيون قد استولوا على جميع البلاد التي كانت تحت يده .

أما أحمد ومحمد أخا عبد الرحيم فقد جعل العثمانيون لكل منهما مرتبة الامارة اسما فقط بدون فعل ، إلى أن مات محمد بن عبد الرحمن في شوال سنة ١٠٢٧ هـ وكذلك أخوه أحمد بن عبد الرحمن^(٢) ، وفي شهر شعبان سنة ١٠٢٠ هـ أرسل جعفر باشا بعبد الرحيم إلى استانبول بصحبة أغا من أغواته ، فلما وصلوا هناك حبس في القلعة المشهورة في وسط استانبول المسماة يدَي قُلُه فاجتمع هناك بأعمامه وأولادهم وأولاد مطهر بن شرف الدين .^(٣)

(١) الكبسى - اللطائف السنية ص ١٢٧

(٢) الشرفى - اللآلئ المضيئة ص ٢٠٩

(٣) الموزعى - الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥٩

بذلك زالت دولة عبد الرحيم ، وزالت دولة الإمام شرف الدين ولم يبق
منها إلا بنى شمس الدين فقط .

وكانت سيرة عبد الرحيم في اليمن غير مرضية ، وأعماله قبيحة ، اشتبه
بقسوته حتى في معاملة أقرب الناس إليه وهم اخوته ، مما جعل أخوه محمد
والشيخ ناصر المحبشي يدبرون له الحيلة حتى أدخلوه إلى حصن كحلان الشرف
فتمكن منه العثمانيون ، فلم يملك غير تسليم نفسه ، كما أن له أخبار شنيعة في
مخالفة الشريعة الإسلامية منها شربه للخمر ، وقتله النفوس بغير حق ، فقد
ضرب مرة عنق عبد ملوك له ، فقبل له ما السبب في ذلك ، فقال لا نعتقه
طويلة تصلح لضربه .

وكذلك ما فعله بوالده ، فقد قتله وأدعى أن العبد هو قاتله فقتل بذلك
العبد ، وما فعله في أولاد القحطاني وأمههم فقد علقها في شجرة مع أولادها
بحورة مكشوفة بسبب مسيرة القحطاني إلى محطة جعفر باشا في بداية الحرب بينه
وبين جعفر ، ^(١) وكذلك عرف بالغدر ودليلنا على ذلك ما فعله مع الإمام القاسم
فتارة يدعوا له على المنابر ، وتارة يخرج عليه ، ويغدر به وينقلب عليه ، ويحاول
قتل رسله إليه ، فتميزت شخصية عبد الرحيم بهذه الصفات القبيحة ، فهي شخصية

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٥١

غريبة جلبت على نفسها المحن ، وحتى بعد خروجه من اليمن إلى استانبول لم يسلم العثمانيون من سوء أفعاله ، فقد حجزه السلطان مع بعض العساكر ، فدبر المكائد معهم وأتلف أكثرهم فأمر السلطان بقتله وقال " لأن من يفعل هذه المكيدة العظيمة لا يؤمن مكائده " (١).

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٥١

الفصل الرابع

الحالة بعد عزل جعفر باشا سنة ١٠٢١هـ - سنة ١٠٢٩هـ

النهضة الثالثة والرابعة

أ- عودة جعفر باشا للولاية بعد عزله وموت إبراهيم باشا وما أعقبها

من تطورات ١٠٢١هـ - ١٠٢٥هـ (أُسْر الحُصْن الإمام - موقعة غارب أُنْثَلَة - موقعة الشَّاب)

ب- الوالى محمد باشا وسياسته ١٠٢٥هـ

ج- الصلح مع الإمام ١٠٢٨هـ

د - وفاة الإمام القاسم ١٠٢٩هـ

سبقت الإشارة في الفصل الثالث إلى أمير صعدة ونزعته الاستقلالية ،
وتصدى الباشا جعفر له ، فقد هزم جعفر باشا قوات هذا الأمير ، بعد صدام
قصير ، وما كان من هذا الأمير إلا أن جمع أمواله وغادر اليمن مع بعض أتباعه
إلى بلاد الشام ^(١) ، ويبدو أن أمير صعدة كان ذا صلات وثيقة ببعض رجالات
الدولة في الأستانة ، إذ قيل أن صدامه مع جعفر باشا كان أحد أسباب عزل
جعفر باشا عن ولاية اليمن بعد ذلك بقليل . ^(٢)

فقد عزل جعفر باشا في سنة ١٠٢١ هـ = ١٦١٢ م وعين بدلا منه
ابراهيم باشا الذي وصل اليمن في أول ربيع الأول سنة ١٠٢٢ هـ = ١٦١٣ م . ^(٣)

وقد زادت الاضطرابات في صنعاء بين صفوف العثمانيين عند عزل جعفر
باشا ، فقد سارع عبد الله شلسبي - كتحدا جعفر باشا بالانضمام إلى الوالى
الجديد ابراهيم باشا ، ولم يرحل مع جعفر باشا كما هي العادة ، ونادى فى
العسكر يطلب منهم الانضمام معه إلى ابراهيم باشا ، فلم يقبل أحد منهم
ذلك ، فلما علم جعفر باشا بأمر عبد الله شلسبي غضب وتعجب لحسن ظنه به ،
فعين جعفر باشا كتحدا له آخر هو الأمير حيدر .

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٢ ص ٩٩

(٢) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٧٢

(٣) الشرفى - اللآلئ المضيئة ص ٢١١

(٤) الموزعى - الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٦١

أما ابراهيم باشا فقد انشرح صدره بانضمام عبد الله شلبى إليه ، نظرا لمعرفة الأخير بشؤون اليمن ، وذلك يمكنه الاستفادة من خبرته بشؤون البلاد ، فعينه واليا على صنعاء لتمهيد الأمور بها حتى وصوله إليها ، وأخذ شلبى يجهز جيشا لحرب الإمام ، وطوائف الزيدية ، خوفا من اغتنامهم فرصة تغيير الوالى والاستيلاء على البلاد ، لكن ابراهيم باشا أصيب بالحمى وهو بدمار ، ومالبت أن وافته المنية فى يوم الاثنين ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٠٢٢ هـ - ١٦٨٣ م (١) وقيل أنه مات مسموما ، وكانت مدة ولايته حوالى شهرين فقط .

أدت وفاة ابراهيم باشا إلى انفجار الأزمة بين جعفر باشا وعبد الله شلبى ، فقد عاد جعفر باشا من زبيد قاصدا صنعاء ، بناء على طلب طائفة الاصباحية (٢) الذين خرجوا مع ابراهيم باشا ، وكان قائدهم أحمد أغا وسليمان أغا ، فلما علم عبد الله شلبى بعودة جعفر باشا خاف منه لما سلف منه ، فهاج وماج وأخذ ينشر بين الأمراء والعسكر أن جعفر قد عزل ولا ولاية له فى اليمن ، والباشا ابراهيم قد جعله خليفته ، وأن مراده حفظ البلاد إلى أن يأتى وال جديد من الأستانة فخاف العسكر منه ، ووافقوه فى الظاهر بعد أن أخذ منهم العهد على امتثال أوامره ، ومنع عبد الله شلبى جعفر من دخول صنعاء وتجهز لحربه ، (٣)

(١) الكبسى - اللطائف السننية ص ١٢٨
 (٢) الاصباحية - هى طائفة من الحند العثمانى ، ويبدو أن اللفظ محرف ، وأن المقصود به الاصباحية أو السباحية وهى طائفة الفرسان فى الجيش العثمانى .

(٣) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥٢

وأرسل شلبى إلى الإمام يعرض عقد صلح معه على ألا يتعدى أصحاب الإمام
المواضع التى هم فيها ، وذلك ليضمن جانب الامام .^(١)
والواقع أن أكثر العسكر كانوا يميلون لجانب جعفر باشا لكونه أعلى مرتبة من
عبد الله شلبى ، ورغم أن جعفر باشا كان قد أرسل إلى عبد الله
شلبى ، بموافقته على ابقائه فى منصبه حاكما لصنعا ، فقد خاف الأخير
انتقام جعفر باشا منه ، ورفض الاعتراف بولايته لليمن بعد عزله ، وقد اتخذ
عبد الله شلبى موقفا معارضا صريحا لجعفر باشا أدى إلى ظهور الانقسام بين
صفوف العثمانيين ، إذ اقترح فى رده على خطاب جعفر باشا تقسيم اليمن
بينهما ، على أن يكون له صنعا وما يليها شمالا ، وأن تكون الأقاليم الممتدة
من نمار إلى عدن جنوبا لجعفر باشا ،^(٢) ولما لم يوافق جعفر باشا على هذا
التقسيم اتسعت هوة الخلاف بين الطرفين ، فأرسل جعفر باشا الأمير حيدر
إلى صنعا ، فاجتمع بعسكر عبد الله شلبى سرا وأظهر لهم أمانا من جعفر
باشا ، وأنه أولى بالولاية والطاعة ، فمال إليه أكثر العسكر ودارت بينهم
الحرب ، فانهزم أصحاب شلبى ، وكان ذلك سببا فى انحياز باقى العسكر
إلى جعفر باشا ، وساروا إليه بذمار ، فقتل من الرؤساء جماعة منهم الفقيه
على الشهارى الذى نكث العهد مع الإمام القاسم ، وسلم البعض الآخر
من القتل ، ثم تقدم الأمير حيدر إلى صنعا لحرب عبد الله شلبى ، ولما قرب
منها وصلت إليه كتب الأمراء والجند بالموالاة لجعفر والتبرؤ من شلبى ، ثم

(١) الشرفى - اللآلىء المضيئة ص ٢١٧

(٢) الموزعى - الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٦٤

خرجوا من الخندق الذى اختبأوا فيه ، وهؤلاء هم عبد الله بن المطهر وأخوه إبراهيم ، وعبد الله بن المعافا ، وصالح المؤيدى ، ومحمد المؤيدى ، والأمير درويش وعلى بن الشويح ، والأمير أحمد الأخرم ، فأخذوا الأمان من حيدر لأنفسهم ولأهل صنعاء ، وفتحوا له الخندق على شرط عدم تخريب صنعاء أو الاضرار بأهلها ، فدخل أصحاب الأمير حيدر من الخندق ، فالتجأ شلبى وجماعة من أصحابه الى قصر صنعاء ، ولم تنهب صنعاء أو تخرب على حسب الاتفاق ، بل حاصر أصحاب حيدر القصر الذى به شلبى ، فلما وجد شلبى أن الأمر خرج من يده ، ولا مفر له استسلم وطلب الأمان من حيدر ، فأمنه ، وكتب إلى الباشا جعفر بأمانه ، فلم يجبه إلى ذلك ، بل أمره أن يقتله ويأتيه برأسه ، وتقدم جعفر باشا إلى صنعاء فاستقر فيها . (١)

هذه الاضطرابات التى سادت صنعاء بسبب الفتنة بين عبد الله شلبى وجعفر باشا جعلت الإمام القاسم يفكر فى نقض الصلح الذى عقده مع جعفر باشا سنة ١٠١٦ هـ ، لان الإمام كان يرى فى الصلح مصلحة لأهل اليمن من أجل تسكين الفتنة مادام جعفر باشا باقيا ، أما وقد عزل فقد خاف الامم من استيلاء الوالى الجديد على ما تحت يده من البلاد ، وعدم الاعتراف بحق الإمامة ، فتشور عليه البلاد وتراجع عن مناصرته القبائل ، نظرا لأنهم كانوا قد

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٢ ص ٩٠ ، الكبسى - اللطائف السنينة ص ١٢٨

استراحوا إلى الدعة أيام الصلح ، فاستشار الإمام أصحابه في ذلك الأمر ، فاجتمع
الرأى على نقض الصلح والحرب ، فانتظر الإمام إلى أول شهر ربيع الأول سنة
١٠٢٢ هـ = ١٦١٣ م ، وذلك بعد خروج الباشا جعفر من صنعاء بأيام (١)
وبذلك بدأ الإمام النهضة الثالثة من دعوته ، فقد كان الإمام ينتظر وصول
موافقة ابراهيم باشا لتجديد الصلح معه ، غير أن الأخير وافته المنية كما أشرنا
سابقاً فور وصوله إلى نمار ، كما أن الإمام لم يثق بما أرسله إليه عبد الله شلبي
بشأن عقد الصلح معه وبقاء الأوضاع على ما هي ، ورأى الإمام أن الفرصة
مواتية لتوسيع نفوذه في البلاد ، خاصة وأن عبد الله شلبي أثناء الفتنة
بينه وبين الباشا جعفر قد سحب أكثر جنوده إلى صنعاء لمساعدته في
الوقوف أمام قوات جعفر باشا ، فأصبحت أغلب الحاميات العثمانية في المنطقة
الشمالية خالية من الجند العثماني ، ودفع هذا بالتالي قبائل هذه المناطق
على اعلان انضمامهم للإمام ومبايعته ، ولهذا بدأ الإمام في ارسال قواته إلى
الأقاليم المختلفة فور ذلك ، فوجه ولده علياً إلى بلاد الشرف ، وولده الحسن
إلى بلاد شطب والسودة وعفار ، والقاضي هادي بن عبد الله بن أبي الرجال ،
والحاج أحمد بن عواض الأسدي والشيخ سعيد الطير إلى بلاد الظاهر ، فأما
علياً فأستولى على بلاد الشرف ، ثم تقدم إلى بلاد عفار فاستفتحها بعد حروب
شديدة ، وأما الحسن فانه فتح شطب والسودة وارتفع إلى جبل بني حججاج
فالتجأ أصحاب الأمير عبد الله بن المعافا إلى قرن الناعى أحد حصون السودة ،
أما الظاهر فدخلوا في طاعة الإمام طوعاً ، كما أخضع الفقيه على الشهاري بلاد
عيال يزيد للإمام . (٢)

(١) الشرفى - اللآلى المضيئة ص ٢١٧

(٢) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن ص ١٥٢

بذلك نجح الإمام في مد سيطرته إلى الكثير من أقاليم المنطقة الشمالية مثل بلاد الشرف وعفّار والظاهر وجبل عيال يزيد ، وهذه الأقاليم التي كانت تحت سيطرة الأمير عبد الرحيم قبل نفيه إلى الأستانة ، وكانت كل هذه الفتوحات أثناء خروج ابراهيم باشا ورحيل جعفر باشا وفتنة عبد الله شلبي .

ولم تكن المنطقة الشمالية فقط هي التي سادت فيها الاضطرابات ففى هذه الفترة ، بل فى المنطقة الجنوبية أيضا ، فقد تمرد بعض جنود حامية تعز على أميرها ، وعاثوا فى المدينة فسادا ، حتى تم تعيين أمير جديد لها من قبل ابراهيم باشا ، فعمل على إعادة الهدوء إليها بعد أن قبض على زعيم الجنود المتمردين ، وقد استغل بعض أهالى ولايتى تعز والحجرية هذه الاضطرابات فخلعوا طاعة العثمانيين ، مما أجبر جعفر باشا على ارسال بعض قواته إلى هذه الجهات لاعادتها إلى الطاعة ، وذلك بعد أن استقرت أحواله ثانية فى صنعاء بعد القضاء على تمرد عبد الله شلبي الكخيا . (١)

هكذا أصبحت اليمن فى حالة من الغوضى والاضطراب سواء فى شمالها أو جنوبها ، بسبب عزل جعفر باشا وفتنة عبد الله شلبي ، ولكن عودة جعفر باشا إلى الولاية مرة ثانية بعد قضائه على تمرد شلبي ، أعطى العثمانيين قوة جديدة ، ردت لها بعض ما ضاع منها من أقاليم ، فجهز جعفر باشا قواته

(١) الموزعى - الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥٠

لحرب الإمام القاسم بقيادة الأمير حيدر الذي خرج من صنعاء في تسعة آلاف مقاتل ، وقيل عشرة آلاف مقاتل ، فوصل عمران وأرسل بعض الجند إلى جبل عيال يزيد ، وكان الحسن بن الإمام ان ذاك في موضع يسمى بيت علّمان ، فلما علم بوجود حيدر انتقل منه إلى بلاد الأشمور ، ولم يكن معه غير مائتي نفر ، أما بقية جنوده فتركهم في جبل تيس ، فلما وصل قرب عمران ورأى جنود الأمير حيدر رجع إلى موضع بالقرب من بلاد المصانع ، فخرجت عليه فرقة من جنود الأمير حيدر من مدع ، فحدثت مناوشة أثناء مروره ، ثم أقبل على بن الإمام القاسم من بلاد حضور الشيخ لنجدة أخيه الحسن ، وكذلك أقبل أحمد بن الإمام الحسن بن علي من حجة ، والحاج أحمد الأسدي بجموع غفيرة ، فاشتدت الحرب واستمرت مدة سبعة أيام ، حتى كاد أصحاب الإمام يتغلبوا على جنود العثمانيين ، إلا أن حامل الراية من أصحاب أحمد بن الإمام الحسن انهزم ومعه أهل حجة ، فتضعف بقية الناس ووقع فيهم الرعب ، فتتابعت الهزيمة على أصحاب الإمام ، فخاف الحسن بن القاسم ان طال عليه الحصار وعلى أهل العرة أن يأخذهم العثمانيون قهرا ، ففضل أن يسلم نفسه ويطلب الأمان لأهل العرة ، فخرج إلى الأمير حيدر فأرسل بهم إلى جعفر باشا ، فسجنه في سجن صنعاء المعروف بالدار الحمراء ، وذلك في رمضان سنة ١٠٢٢ هـ الموافق سنة ١٦١٣ م ^(١) ، ولما علم الإمام بأسر ولده الحسن خاف على بلاده ، فأرسل للباشا جعفر يطلب منه إعادة الصلح على الشروط الأولى لصلح سنة ١٠١٦ هـ ، لكن

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن ص ١٥٣ ،

الشرفي - اللآلئ المضيئة ص ٢٢٢

(١) جعفر باشا لم يجبه إلى طلبه .

هذه المحنة كان لها أثر عظيم في قلوب الناس ، فقد أصابهم الرعب والفشل حتى أن بعض خواص الإمام وملازميه طلبوا الإذن لهم بمفارقتهم ، منهم الفقيه أحمد بن يحيى الحداد الصعدي ، فقال له الإمام " الخيار إليك ، أما أن تكون من جملتنا في الشدة والرخاء ، وترضى بما جاء من عاقبة وبلاء . . . وأما أن تفارقنا ولا أجبرك بشئ " (٢) ، ومكن ذلك الأمير حيدر كلما قصد مكانا من بلاد الإمام فتحه بدون مشقة وتعبد ، ولم يبق في يد الإمام غير وادعة والأهـنـوم ومالـبـث أن ضاعت منه وادعة كذلك .

خرج الإمام القاسم من شهارة وهو في أشد المحنة ، حتى أنه كان يدعو الله ويتضرع ويكي بكاء شديدا حتى يخرجـه الله من هذه المحنة ، فانتقل بعد ذلك إلى صعدة فأقبل عليه أهلها واستبشروا بقدمه إليهم .

لما علم الأمير حيدر بوجود الإمام بصعدة توجه بجيوشه وأمرائه إليها ، منهم الأمير حسين ، والأمير رستم ، والأمير أحمد الأخرم والأمير مطهر بن الشويح والأمير عبد الله بن المعافا ، فلما وصل إلى الهجر ترك الأمير عبد الله ابن المعافا هناك ومعه كثير من الجند ، ثم توجه هو وبقية الأمراء إلى صعدة ، فلما علم الإمام بالخبر أمر أولاده الحسين وعلي والسيد أحمد بن الإمام الحسن

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٢ ص ٩١

(٢) يحيى بن الحسين - غاية الأمان في أخبار القطر اليماني ص ٨٠٢

بالتقدم لمحاربة الأمير حيدر ، لكن الأمير حيدر كان أسرع منهم واستطاع دخول
صعدة بدون قتال ، فرأى الحسين بن القاسم أن يتفرق الجند في بلاد صعدة
حتى يقطعوا المؤن على حيدر ، فما كان من الأمير حيدر إلا أن أرسل إلى
السيد يحيى المؤيدى - وإلى العثمانيين على أبى عريش - أن يتقدم إلى رازح ،
فلما علم الإمام بذلك أرسل ولده الحسين لحرب السيد يحيى المؤيدى فحاربه
وانتصر عليه ، وأرجع السيد يحيى إلى أبى عريش واستولى على جميع أمواله ، فلما
رأى ذلك الأمير حيدر وجهه في الحال الأمير رستم إلى بعض بلاد صعدة ، ولكن
القبائل هاجمته ، فلما علم حيدر بذلك أرسل الأمير أحمد الأخرم لنجدته ،
وكان بين الأمير أحمد ورستم عداوة قديمة فتمهل الأمير أحمد الأخرم في المسير
إليه ، فلما وصل إليه كان على بن الإمام القاسم قد قتل الأمير رستم ، واستولى
على جميع ما معه ،^(١) فتقدم الأمير حيدر إلى أولاد الإمام ف وقعت الحرب بينهم ،
فانهزم حيدر ، وقتل من أصحابه جماعة ، فلما رأى ذلك الأمير أحمد الأخرم
أراد الالتجاء إلى الإمام خوفا من ملامة الأمير حيدر ، لأنه لم يصل إلى رستم ففى
الوقت المناسب ، لكن أصحاب الإمام قتلوه وأرسلوا برأسه إلى الإمام ، فبعث بها
إلى ولده محمد فى شهارة ، فأمر محمد بن القاسم أن تعلق رأس الأخرم خارج
بلاد الأمير عبد الله بن المعافا فى الليل ليثير الرعب والفشل فى قلوب العثما
فلما رآه ابن المعافا انزعج وداخله الخوف الشديد وانحصر بن المعافا فى الهجر ،
أما حيدر فقد دبر أمره بالحيلة للخروج من صعدة فخرج منها إلى خمر .^(٢)

(١) الكبسى - اللطائف السننية ص ١٢٩

(٢) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٢ ص ٩١

يقول الجرموزى فى مخطوطته " كان جعفر باشا قد ندم على نقض الصلح فأمر الشيخ ناصر بن على المحبشى أن يستوقف الإمام فى الشام (الشمال) ويسعى فى الصلح الأول فلم يجبه إلا ما " (١) ولم يوافق إلا ما على الصلح رغم ما كان فيه من المحنة لأنه كان قد عاهد أهل خولان على عدم تسليمهم للعثمانيين ، وكانت رغبة جعفر باشا العودة إلى حدود صلح سنة ١٠١٦ هـ ، لذلك لم يقبل إلا ما بالصلح .

قويت عزيمة أصحاب الإمام بعد هروب صعدة ، وخرجت بعض القبائل على طاعة العثمانيين ، وخاصة عند ما خرج محمد بن القاسم إلى بنى سعد ، وحارب حسين بن المعافا الذى فر إلى لسودة فقتل محمد من أصحابه عدد كبير وأخذ ما معهم من سلاح ، ثم توجه إلى الهجر ، وأقام الحصار على عبد الله بن المعافا ، فلما طال الحصار على عبد الله بن المعافا وليس لديه طعام فكر فى طلب الأمان من الإمام ، وتسليم نفسه إليه ، على أن يخرج عسكر العثمانيين ويسلموا سلاحهم كذلك ، ولما علم الأمير حيدر بأمر حصار بن المعافا ، دبر الحيلة لأخراجه ، فأرسل الأمير درويش وغيره من الأمراء فى جيش وافر إلى الهجر ، ولكن بن المعافا كان فى حالة سيئة من شدة الحصار وقلة الطعام ، كما أن درويش لم يستصحب معه شيئاً من الطعام والمؤن لأنه لم يأت إلا لانقاده ، فعظم الأمر على عبد الله ابن المعافا وأشار على أصحابه بالخروج من الهجر فوراً قبل اجتماع أصحاب الإمام ،

وكان الإمام قد وصل من جهة صعدة إلى حبور ، وترك ولده عليا لحفظ صعدة ، ولم يكن معه غير ولده الحسين ، فلما استقر في حبور ، بلفة مسيرة درويش لتخليص ابن المعافا ، فأمر ولده الحسين بالتأهب لقتال الأمير درويش وجنوده وهم عائدون من الهجر ، فلما عاد الأمير درويش ومعه ابن المعافا وبقية الأمراء إلى المكان المعروف بفارب أثله ، وهو موضع ضيق الجوانب ، هجم عليهم الحسين وأصحابه ، وكان محمد بن القاسم قد أتى لمساعدته بمن معه من القبائل ، وقبيل أهل عبد الله بن المعافا والأمير درويش تحصين قرن الوعر واغتروا بكثرتهم وخيولهم ، وقال الأمير عبد الله للأمير درويش " نحن في هذه الكثرة والخييل والجمع ما عسى أن تفعل بنا ألقاف القبائل " (١) فكان ذلك ما يسر للحسين الهجوم عليهم ولم يشعروا إلا وقد هاجمتهم عساكر الحسين ، فقتل الأمير درويش والأمير عبد الله بن المعافا وغيرهما من الأمراء ومن معهم من العسكر ، ولم ينج منهم غير جماعة قليلة لجأت إلى حصن قرن الوعر ، فحاصروهم الحسين بن القاسم ، حتى سلموا أنفسهم فأخذ الحسين سلاحهم وعددهم ، وتقدم بهم إلى أبيه ، (٢) فأودع جماعة منهم في السجن ، وفرق بقيتهم في القبائل ينتقمون بهم في أعمال الفزاعة ، وكانت هذه الموقعة في يوم الأحد ١٣ جمادى الثانية سنة ١٠٢٣ هـ = ١٦١٤ م ، وبعد هذه الموقعة استرجع الإمام أكثر البلاد التي أخذها منه الأمير حيدر . (٣)

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٢ ص ٩٢

(٢) الشرفي - اللآلئ المضيئة ص ٢٣١

(٣) الكبسى - اللطائف السننية ص ١٢٩

وكان لهذه الموقعة أثر عظيم في نفوس أصحاب الإمام إذ قوت من عزائمهم بعد ما سلبت جميع البلاد التي أخذها الإمام أثناء فتنة عبد الله شلبي ، وحتى البلاد التي كانت للإمام أيام صلح سنة ١٠١٦ هـ وأصبح الإمام صفرالدين ، هذا من جانب الإمام القاسم أما العثمانيون فكان لها وقع سيء عليهم ، مما جعل كثير من الجنود العثمانيين يلجأون للإمام القاسم ، بالاضافة إلى أن الأمير حيدر خرج للانتقام من الإمام القاسم بعد علمه بمقتل الأمير درويش والأمير عبد الله ابن المعافا في خمر ، رغم ما كان يعانيه من خوف من الإمام ، فهم مسرعا إلى صنعاء واضطربت أحواله ، فأشار عليه عبد الله بن المطهر بالثبات في خمر ، وقوى عزيمته على ذلك فرجع مرة ثانية إلى خمر .

لما بلغ علي بن القاسم انتصار أبيه في موقعة غارب أثله ، وكان هو محاصرا لصعدة ، أراد أن يهجم على من فيها من العثمانيين علّه يظفر بهم ، فجمع أصحابه وأتباعه وقصد هم في موضع يسمى الشقاب بالقرب من صعدة ، وهو مكان سهل مكشوف ،^(١) لذا أشار عليه بعض أصحابه بالبعد عن هذا المكان ، لكنه صمم على زوال العثمانيين فيه ، فوقعت حرب عظيمة ، كانت خيل العثمانيين فيها كثيرة العدد بالنسبة لما مع علي بن القاسم ، وانتهت المعركة بقتل علي بن القاسم وقطع رأسه ، وحملها إلى صنعاء ، وقتل معه جماعة من مشايخ خولان أيضا ، وكان ذلك في يوم السبت ١٩ جمادى الأولى سنة ١٠٢٣ هـ = ١٦١٤ م^(٢) وقد حزن الإمام القاسم كثيرا على مقتل ولده .

(١) الشرفي - اللآلي المضئية ص ٢٣٣

(٢) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ٢٢١

بعد موقعة الشقاب وقتل على بن الإمام القاسم ، أخذ العثمانيون يعملون على افساد القبائل بشتى الطرق ليقضوا على الروح المعنوية المرتفعة عند أصحاب الإمام بسبب انتصارهم في معركة غارب أظهروا لهم فلك ، وفي أول شهر الحجة سنة ١٠٢٣ هـ = ١٦١٤ م تمردت قبائل عفار وكحلان وبلاد مسور وحجة على الإمام فدخلها العثمانيون ، وأخذ حيدر يعمل فيها السيف كما استولى على عزان قهرا وأسر جماعة منهم وقتلهم وأرسل برؤوسهم إلى صنعاء ، ثم وقعت موقعة الفايش التي انتصر فيها أصحاب الإمام وغنموا غنائم كثيرة من سلاح وآلات حربية ^(١) وكانت الحروب قائمة أيضا في الظفير والموسم ، وخلالها وقعت موقعة غريان المشهورة التي انتصر فيها أيضا أصحاب الإمام وولى حيدر منهنما هو وجميع جنوده إلى خمر .

بعد موقعة غريان مل العثمانيون القتال وقتل شوكتهم وأنهكتهم الحروب المتتالية " وكما راموا سد ثغرها افتتح عليهم آخر " ^(٢) وظلوا هكذا حتى وصل الخبر إلى صنعاء وبغزل جعفر باشا من منصبه وتعيين محمد باشا بدلا منه ، وذلك سنة ١٠٢٥ هـ = ١٦١٦ م فسعى جعفر باشا حينذاك إلى عقد صلح مع الإمام لمدة عام لأنه كما قيل " خالف (خاف) أن يسير والفتنة في اثره " ^(٣) وقد أشار على جعفر باشا بعض أصحابه بأن يوسط الحسن بن الإمام القاسم المأسور في صنعاء بطلب الصلح من والده على أن يترك الإمام الأمير صفر يخرج

(١) الشرفي - اللآلي المضيئة ع ٢٣٩

(٢) نفس المرجع ع ٢٤١

(٣) الجرmozى - النبذة المشيرة ع ٢٣٥

من صعدة سالما ، والا سوف يأخذ الحسن معه إلى الأستانة ، ولكن الحسن
اعتذر بحجة أن هذا الأمر ليس في يده ، ولكن جعفر باشا أرغمه على إرسال خطاب
له ، فأرسل هذا الخطاب على هيئة أبيات من الشعر بدون أن يذكر اسمه قائلا:

مولاي ان الصلح أعذب مورد فاسلك له سبيلا سويا أجردا
ارسل ولاء الحلم في ضافية كي يروى ظمأه المسلمين عند الصدا

فقرأ الإمام الخطاب ولم يعرف أنه من ولده بل ظن أنه من أحد المتوددين
إليه فأجابه بقوله :

يا ما نجا محض النصيحة مرشد إن الهدى عندي لمن يفي الهدى
والحلم نحن تجاره يروى لها ظامي الحشا ويثور عدلي عقيدتي

ووافق الإمام على عقد الصلح ، وتمت المكاتبة بهذا الصلح سرا ، وأرسل
الإمام الفقيه جمال الدين بن عامر الزماری إلى صنعاء لعقد الصلح . (١)

كانت شروط الصلح كالتالي : أن يترك للإمام ما تحت يده وقت الصلح
الأول وهي بلاد الحيمة وحضور ، وجبل مسور وبلاد صعدة ، وإن الأسرى فـسـى
صنعاء مثل الحسن بن القاسم يبقون في صنعاء ولا ينقلون منها إلى مكان آخر ،
لأن الإمام خاف أن جعفر باشا يأخذ ولده معه إلى الأستانة ، ثم أرسل الإمام
من أخرج الأمير صفر من صعدة ، وجعل ولاية صعدة للأمير صلاح بن أحمد بن
الحسين المؤيدي ، وأما مدة الصلح فسنة واحدة تبدأ من أول رجب سنة ١٠٢٥ هـ

الى سنة ١٠٢٦ م وتم الصلح على هذه الشروط .

ان الإمام القاسم بذلك أحرز نجاحا عظيما في توسيع حدود ممتلكاته ،
ان سقطت أغلب أقاليم المنطقة الشمالية في يده ولم يبق للعثمانيين بها الا بعض
المراكز الرئيسية مثل صعدة ، التي ما لبثت هي الأخرى أن سقطت في يده
القبائل الموالية للإمام ، ولم يبق للعثمانيين غير خمر وكوكبان فقط في المنطقة
الشمالية ^(١) ، لكن هذه الانتصارات التي أحرزها الإمام لم تكن تخفى حقيقة
هامة ، وهي أن العثمانيين مازالوا أكثر عددا وأحسن تسليحا بالنسبة لقوات
الإمام ، بالإضافة إلى أن الأرض التي أخذها الإمام كانت أرض فقيرة جبلية يكلف
الاحتفاظ بها الشيء الكثير ، لذا كان على الإمام أن يسعى في استمرار الصلح
بينه وبين الوالي الجديد محمد باشا .

قبل أن نبدأ في المفاوضات التي جرت بين الإمام القاسم ومحمد باشا
لا بد أن نتعرض لهذا الوالي الجديد وسياسته في اليمن ، ان يعتبر هذا
الوالي ضمن الولاة الذين حاولوا تثبيت أقدامهم في داخل ولاياتهم بطريقتة
سلمية ، كما فعل جعفر باشا من قبل ، فقد أدخل محمد باشا بعض الإصلاحات
أيضا ، التي حاول بها أن يهدئ من الأحوال في اليمن ، لأنه دخل اليمن
وأحواله مضطربة بسبب كثرة الحروب بين الدولة العثمانية والإمام القاسم ، وقد
صور لنا عيسى بن لطف الله حالة اليمن قبيل وصول محمد باشا فقال " كان



حدود صليح ١٠٠٠م بين جغرياش والإمام القاسم

وصوله واليمن قد عمته الخطوب والفتن ، وشملته النصب والحزن ، وتفرقت قبائله ^(١) " لذا كان عليه أن يسير وفق خطة معينة ليستطيع أن يجذب إليه قلوب اليمنيين ، والأول سوف تزداد الحروب وتشتعل نيرانها ، وقد تميز محمد باشا بصفات أهله لأن يقوم بتلك الإصلاحات ، ووصفه كثير من معاصريه مثل المحبى بقوله " كان رجلاً حليماً ، حازماً فى جمع الأموال صبوراً على الشدائد ^(٢) كما وصفه الكبسى كذلك بقوله " كان هذا الباشا من أعقل العقلاء ، الوافر الذهن الحاضر ، والتدبير النافع " ^(٣) كما أنه استطاع أن يجذب قلوب اليمنيين إليه وخاصة الزيديين منهم فقد أحسن إلى الأسرى فى سجن صنعاء ، ومنهم الحسن بن الإمام القاسم ، الذى أسره جعفر باشا وأودعه سجن صنعاء المعروف بالدار الحمراء كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، فقد فك عنه القيود ورخص للعلماء بالدخول إليه ، وأعطاه سرية وهى أم ولده أحمد ، وكان يأذن له بالخروج لكن بصحبة الحرس ^(٤) ، مما كان له أعظم الأثر فى نفس الإمام القاسم ونفس الحسن كذلك فحصلت بينهما المودة ، وتبادلا الهدايا ، وأنشأ الحسن قصيدة يمدح فيها محمد باشا نظير احسانه إليه ^(٥) ، وعندما وصل إلى تعز أطلق جميع الأسرى

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٢ ص ٩٣

(٢) المحبى - خلاصة الأثر ج ٤ ص ٢٩٦

(٣) الكبسى - اللطائف السنية ص ١٣٠

(٤) نفس المرجع ص ١٣٠

(٥) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥٨

من قلعة القاهرة ، ففرحوا بخروجهم أشد الفرح ، ما كان له أثر عظيم فى نفوس أهل اليمن ورضائهم عن ولايته لهم ^(١) ، ما جعل أحد المؤرخيه يصفه بقوله : " أنه الين من وطىء اليمن قدمه " ^(٢) ، الا أن محمد باشا قد أخذ عليه أنه بخيل ، حريص على جمع المال ، حتى قيل أنه جمع كثيرا من الأموال عند دخوله تعز " لأنه خرج من الروم ^(٣) وهو فقير " ^(٤) .

وصل محمد باشا إلى اليمن فى شهر شعبان سنة ١٠٢٥ هـ = ١٦١٦ م ، قادما من مصر ، ولا غرابة فى ذلك فان السلطنة كانت فى أغلب الأحيان تختار ولاية اليمن من بين من تولوا نيابة غزة أو من بين ولاية مصر ، أو ممن تقلدوا وظائف هامة بها ، وذلك حتى يكونوا على دراية بأحوال اليمن ، وعلى علم بأخباره ، فقد كان محمد باشا كاتب الديوان بمصر للوزير حسن باشا قبل توليته على اليمن ، لذا نجده يقول : أنه أدرى الناس بأحوال أهل اليمن ، كما أن محمد باشا قد نهج على نهج جعفر باشا فى تقريب العلماء والفقهاء إليه ومناقشاتهم ومنهم السيد عبد الرحمن بن الصديق الطباطبى ، والسيد عيسى ابن لطف الله ، والفقيه حسن أفندى ، كما كان كثير القراءة فى جميع الفنون ، ولديه مكتبة غاصة بالكتب ^(٥) ، واهتم محمد باشا أيضا باقامة العدل فى اليمن ،

(١) النموذجى - الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٧١

(٢) فاروق عثمان أباطه - الحكم العثمانى فى اليمن ص ٢٤

(٣) الروم - جرت العادة باطلاق كلمة روم على سكان القسم الاوروبى من الدولة العثمانية ، ان كانت ممتلكات الدولة العثمانية فى أوروبا من قبل ممتلكات رومانية .

(٤) الشرفى - اللائى المضيفة ص ٢٤١

(٥) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٥٦

وأقام الديوان في صنعاء عقب وصوله ، للنظر في مظالم الأهالي " فأنصف المظلوم من الظالم ، وساوى بطريق الحق بين المالك والمملوك ، والغنى والصعلوك . . . فطمع الضعيف في انصافه ، وخاف القوى من انحرافه ، فحصل له في القلوب هيبة ورهبة ومحبة " (١) ، كما صرف محمد باشا بعض جهوده للقيام ببعض المنشآت العمرانية ، فاهتم بتجديد سور صنعاء ، وبتعمير مسجد طلحه الصحابي بها وإقامة منارته العظيمة ، وشيد مسجدا كبيرا في بريم وعمر المدينة نفسها بعد تهدمها أثناء الحروب مع الإمام القاسم ، وأقام حولها سور يحفظها ، وفي نفس الوقت اهتم ببناء القلاع والحصون ، وخاصة قلاع حجة ، ورمم ما تهدم منها (٢) وحفر بئرا في صنعاء وهي المعروفة باسم بئر باشا (٣) وأكمله من بعده فضلى باشا ، وأمر بعمارة البركة التي بجوار ضريح الشيخ أحمد علوان بتعز وزاد في المصلى ، وفرش جامع صنعاء ، وتنبه محمد باشا إلى شىء هام عند وصوله وزيارته لجبل الكبريت بزمار ، حيث وجد الكبريت فيه بكثرة ، وهذه المادة تستعمل فى صناعة البارود ، فأمر فى الحال بتحصيله وجعل الجند حوله ، والسبب فى ذلك أنه علم بأن أصحاب الإمام القاسم أصبحوا يجيدون استعمال البنادق ، لكثرة ما اغتنموه من عسكر العثمانيين خلال حروبهم ، وما أن البنادق تحتاج إلى البارود الذى يصنع من هذا الكبريت فلا بد من استغلاله وحراسته ، فارتفعت أسعاره ، " حتى بلغ رطل البارود بثلاث أحرف وقرش " (٤) ، كما اهتم محمد

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٢ ص ٩٥

(٢) نفس المرجع ص ٩٦

(٣) السيد مصطفى سالم - الفتح العثمانى الاول لليمن ص ٣٧٢

(٤) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥٦

باشا بالبحث عن السجلات والدفاتر ، ورواتب الجند ومحصول البلاد ، وكانت وظيفته في مصر قد أكسبته الاهتمام بمثل هذه الأمور ، وكذلك اشتهر العثمانيون بدقة التسجيل واهتمامهم بالسجلات والدفاتر الحكومية ، وذلك منذ قيام دولتهم^(١) ، لذا نجده عند وصوله يحاسب الباشا جعفر على ما في خزائنه من أموال ، وطالبه بمال ابراهيم باشا وعبد الله شلبي^(٢) ، واهتم محمد باشا كذلك بتجهيز قافلة المحمل اليمنى ، كعمل دعائي هام ، وذلك ليكسب جانب اليمنيين إليه ، بالإضافة إلى رضا السلاطين العثمانيين في الأستانة ، خاصة وأنه وصل اليمن وهو في حالة سيئة من الحروب والفتن ، وقد وصف الموزعي هذا الاهتمام بقوله " ومن المآثر العديدة الزيادة العظيمة التي زادها من المحمل الشريف اليمني ، في زيادة الجمال والرواجل لركوب الضعفاء والفقرا والأراذل ، وزيادة البقسماط والبر والأرز والسمن والعسل وغير ذلك مما يحتاج إليه المحتاج من المسافرين والحجاج حتى الكعبة ، جعل جميع ذلك كافيا زائدا بحيث يحصل فيه المدد للحاج ذاهبا وعائدا " .^(٣)

وقد يرجع اهتمام محمد باشا بالمحمل اليمني ، محاكاة منه لاهتمام ولاية مصر بالمحمل المصري .

(١) على همت - أبو الفتح السلطان محمد الثاني وحياته العدلية (ترجمه من

التركية محمد احسان) ص ٩١ .

(٢) الجر موزى - النبذة المشيرة ص ٢٣٥

(٣) الموزعي - الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٧٦

لما استقر محمد باشا في صنعاء اتصل الإمام به وطلب منه إطالة مدة الصلح الذي عقده مع جعفر باشا قبيل رحيله سنة ١٠٢٥ هـ = ١٦١٦ م إلى عشر سنوات بدلا من سنة واحدة وذلك بحجة عدم أهمية المناطق الجبلية ، وفقر سكانها وقلة خراجها ، ولكن محمد باشا رفض هذا الاقتراح لأنه لم يتعرف على أوضاع اليمن بعد لقرب وصوله إليه ، ولذلك " فلا ينبغي المبادرة إلى الهدنة الأبعد معرفة أحوال البلاد " ^(١) أما صلح جعفر فهو كما هو " لا ينقضه ناقض " ، وكان رفض محمد باشا هذا الاقتراح بداية النهضة الرابعة والأخيرة من مراحل دعوات الإمام القاسم ، فقد انتهت مدة صلح سنة ١٠٢٥ هـ = ١٦١٦ م في شهر جمادى الأولى سنة ١٠٢٦ هـ = ١٦١٧ م واستمرت الحروب بين الإمام القاسم والباشا محمد ، وكان أولها في بلاد حُضُور ، فوجه محمد باشا الأمير تكريم بجنده إلى هناك ، وكان قائد الإمام الشيخ عبد الله بن سعيد الطير قائد أهل الحيمة ، وقتل جماعة من الفريقين ، ثم جرت بعد ذلك حروب كثيرة في مسور وبنى مطر وحروب في منطقة القذف ^(٢) أيضا انجلت تلك المعارك عن قتل الشيخ عبد الله الطير ^(٣) واستطاع محمد باشا أن يأخذ تلك الجهات من الإمام .

وفي الثالث عشر من شهر شعبان سنة ١٠٢٦ هـ = ١٦١٧ م وقعت حروب في بني هيس وقدم وجنب ، استطاع أصحاب الإمام الانتصار على قوات

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن ص ١٥٥

(٢) القذف - منطقة غرب صنعاء ، وهي جزء من بلاد بني شهاب .

(٣) الكبسى - اللطائف السننية ص ١٣٠

العثمانيين ، كما استطاع أصحاب الإمام دخول حجة ، ثم فتحوا بلاد قراضة ولاعة ومسور في ٢٨ القعدة سنة ١٠٢٦ هـ ، وفي شهر جمادى الثانية سنة ١٠٢٧ هـ = ١٦١٨ م وقعت موقعة بنى على وانتصر أصحاب الإمام فيها بعد أن قتل منهم ستة رجال ^(١) ، ووقعت غيرها من الحروب التي أنهكت كلا الفريقين ، فما كان من الباشا محمد إلا أنه أرسل باستدعاء الأمير صفر من الأستانة لمعاونته في تلك الحروب ، فوصل في شهر ذى الحجة سنة ١٠٢٧ هـ = ١٦١٨ م .

والحقيقة أن الحروب بين الفريقين كانت سجالا ، وكان محمد باشا يأمل في أن يحرز نصرا حاسما أمام قوات الإمام القاسم ليرفع من شأنه لدى السلطان العثماني ، وخاصة أنه كان يقول أنه أدرى الناس بأحوال اليمن ، لأنه كان على اطلاع مستمر بأحواله من واقع تقارير ورسائل ولاته ، وقد اغتر محمد باشا بمعلوماته النظرية عن أوضاع اليمن وأصر على شن الحروب على الإمام ، إلا أن واقع اليمن خيب آماله ، فقد خاض غمار الحروب لمدة ثلاث سنوات متواصلة ، ولم يستطع أن يحرز انتصارا يذكر ، بل على العكس من ذلك تمكن الإمام خلال هذه السنوات أن يوسع ممتلكاته في المنطقة الشمالية على حساب العثمانيين ، لذا نجد أن محمد باشا قد عاد ووافق على الصلح الذي طلبه منه الإمام قبل ذلك .

أرسل الأمير مصطفى - عامل محمد باشا على خمر - إلى محمد باشا يبلغه بأن الإمام يطلب الصلح منه لأن الفتنة قد طال ، فجمع محمد باشا الأمراء

والأعيان ، وطلب منهم المشورة فى هذا الصلح ، وشرح لهم وضع البلاد وحال
العسكر وتمردهم رغم كثرتهم وزيادة العطاء لهم ، فردوا عليه بقولهم " الحركة
على الإمام فى هذا الوقت ليس فيها صلاح ، ولا استمرار ، غير بذل الأموال
ونهاب الأرواح وترك كل شىء هو الرأى الصائب ، ان أن الامام القاسم ليس
كما كان فى السابق ، وكذلك القبائل فقد عظمت شوكتهم وظهرت قوتهم وكثر معهم
السلاح . . . مع اقبال القبائل على الامام ، لأن الامام لا يأخذ منهم مالا ، ولا
يعرض عن سؤال ، ولا يقبض منهم الا الذى يطابق هواهم ، والعسكر الموجود
ليس فيهم من عساكر الأروام الذين عرفوا بالاقدام ومارسوا الحروب غير شرذمة
يسيرة " (١) ، ووافقوا جميعا على عقد الصلح ، فظهرت الأمور واضحة أمام
الباشا محمد ، وأجاب الأمير مصطفى إلى ذلك ، كما وصل إلى الباشا الأمير
على بن الشويح يطلب الأمان للسيد عبد الله بن شمس الدين بن جحاف
للوصول لعقد الصلح ، فأعطاه محمد باشا الأمان وقابله بالاكرام ، وتم إبرام الصلح
فى شهر جمادى الأولى سنة ١٠٢٨ هـ = ١٦١٩ م لمدة عشر سنوات ، على
أن يكون للإمام جميع ما تحت يده من البلاد ، وإخراج الأسرى من الجانبين ،
ماعدة الحسن بن الامام ، فقد اعتذر الباشا عن اطلاقه ، لأن جعفر باشا رفع
أمره للسلطان ، فلا يمكن اطلاقه الا باذن منه (٢) ، لكن محمد باشا أبى
استعداد له لاطلاق سراح الحسن بن الامام اذا ترك الامام البلاد التى كانت
تحت يده أيام صلح جعفر باشا ، ويقصد بها بلاد القذف من بنى شهاب غرب

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ع ١٥١

(٢) الكبسى - اللطائف السننية ص ١٣٠

صنعاء نظرا لقربها من صنعاء وكثرة خيراتها بالنسبة للبasha ،^(١) فلم يرضى الإمام بذلك لما في ذلك من المصلحة لأهل البلاد ، وفضل بقاء ولده أسيرا على تسليم تلك البلاد للعثمانيين ، فلم يكن من محمد باشا إلا أن فك قيود الحسن ، وأخلى له الطبقة العلوية من الدار الحمراء ، ولم يمنع من أراد الدخول عليه ، لاسترضاء الإمام ، أما البلاد التي وقع عليها الصلح فهي بلاد غريان ، وغشم ، وبنى مالك من وادعة ، وبنى غشيمة من وادعة أيضا ، وبلاد بنى قيس ، وبنى صريم ، ومرهبة وبنى جبر ، وبلاد بنى زهير إلى حدود بنى جرموز ، وإلى حدود بلاد نهـم وما ولاها إلى جهة الشمال ، وجهات شطب ، والموسم ، وبلاد عفار وجبل نيسا ، والظفير ، والشرفين ، وجزء من بلاد الحيمة ، وحراز وبلاد الظاهر وذي ثبان وعيال عبد الله ، وعيال أسد ، ظليمة ، والأهنوم ، وعذر والعصيمات ، وبنى سفيان وخيوان ، وعيان وجهات صعدة وجبل رازح فهي كلها للإمام ، أما بلاد الكلبين وخمر فهي للعثمانيين ،^(٢) وبعد تمام الصلح شرع كلا الفريقين في تنفيذ شروطه ، فانتقل الإمام من وادعة إلى شهارة ، ووصل الأسرى من صنعاء وكوكبان من أصحاب الإمام إلى شهارة ، وهم أكثر من مائتين وأربعين رجلا ، كما أطلق الإمام ما عنده من أسرى ، بعد أن كساهم كلهم وزودهم بالمال والزاد ، وكانوا فوق الأربعمئة ، ثم انسحب جميع جنود العثمانيين من بلاد الإمام إلى صنعاء ،^(٣) وبذلك تم الصلح على أحسن حال ، ووقف القتال بين الفريقين وهدأت الأحوال .

(١) الشرفى - اللألى المضئئة ص ٢٤٣

(٢) نفس المرجع ص ٢٥٧

(٣) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ٢٦٢



صلح ١٠٠٠ بين الامام القاسم ومحمد بن اسحاق

والحقيقة أن عقد الصلح كان في مصلحة الطرفين الإمام القاسم ومحمّد باشا ، لا اضطراب البلاد ، وليستطيع كل منهما تنظيم شئونه داخل أقاليمه ، فالإمام القاسم كان في أس الحاجة إلى هذا الصلح لتعرض بلاد له للقحط وانقطاع الأمطار مدة طويلة ، وتعرض البلاد إلى شدائد الجوع والفلاء ، مما كان سببا في اضطراب أهل البلاد ، وهجرتهم من بلادهم ، حتى أن البعض منهم هاجر إلى الحبشة سعيا وراء الرزق ، وكان البعض يموت جوعا و ((اشتد عليهم الضرر وعظم ، ثم عقبه الموت العام فيهم ، حتى تعطلت القرى عن سكانها ، وخلت المساكن عن قطانها ، فكان يموت أهل القرية جميعهم . . . فلا يجدون من يتولى دفنهم ، وهرب أكثرهم من الموت من بلد إلى بلد ، فأدركهم الموت إلى حيث هم)) ^(١) هذا من جانب ، ومن جانب آخر كانت أكثر البلاد التي عمها القحط مثل خولان العليا تنقض عهدا مع الإمام ، وأصبحت تستهزئ به ، لأن العثمانيين كانوا يبذلون لهم الأموال الكثيرة مقابل تخليهم عن الإمام ، وهم في ذلك الوقت في أشد الحاجة إلى تلك الأموال نظرا لظروف البلاد التي تعانيها من الحذب والقحط والفلاء ، وكان أول من نقض عهد الإمام وطاعته بنوا سحام ثم بنوا شداد ، وحاول العثمانيون إشعال الفتنة بين القبائل باثارة النعرة القبلية بينهم ، فاضطربت البلاد على الإمام ، بالإضافة إلى أن العثمانيين لما اشتدت عليهم الحروب ، واضطربت الأحوال ، حاولوا قتل الإمام القاسم ، ليستريحوا من هذه الفتنة ، بأن وضعوا له البارود تحت وسادته ، لكنه نجا من القتل واكتشف هذه المؤامرة ^(٢) ، كما أن الإمام خاف على بلاده وأولاده

(١) الموزعى - الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٧٧

(٢) الجرmozى - النبذة المشيرة ص ٢٥٩

بعد موته ، فان ترك البلاد على هذه الحال ، وهى مشتعلة بالحروب وقد عمها القحط ، ووهن أتباعه وضعفوا ، ولا يستطيعوا مناهضة العثمانيين ، ويُقضى عليهم كما فعل بأولاد المطهر ، وقد نقل الجرموزى حديث عن الإمام القاسم مما يبين أسباب موافقته على الصلح وطلبه قائلا : " قلت للإمام أراك تبذل الرغائب فى الصلح ، وقد عالجوك فيه مع وصول محمد باشا فلم ترضى ، والآن تطلبه فقال : الإمام الأولى انى رأيت أن أختتم عمرى بالجهاد وتتفخيم دنيى الظالمين (يقصد العثمانيين) ورأيت الأمر تفاقم ، وظننت قرب أجلى ، خفت أن يحدث الموت بى وأمور الاسلام على ما ترى فلا يتمكن أهله من النصر ويحصل فى الاسلام ما يحصل ، فرأيت المسارعة حتى ينتزع الأتراك عنا وفرج الله " (١).

أما من ناحية محمد باشا فقد كان فى حاجة أيضا لعقد الصلح ان أن جنوده قد ضجروا ، وطلبوا رفع مرتباتهم ، وحدث بينهم اضطراب ، حتى أنهم هموا بقتله وأخذوا منه أموالا كثيرة ، فان أكثر هؤلاء الجنود ليسوا من فرق الانكشارية الذين عرفوا بالاقدام ومارسوا الحروب ، بل كان أكثرهم من أهالى مصر الذين يجمعهم واليها من الفلاحين وقطاع الطرق عند ما تطلب منه النجدة (٢) ، بالاضافة إلى اضطراب الأحوال فى المنطقة الجنوبية مثل اقليم ريمه ووصاب وعتمه فهى بلاد جبلية وعرة تقوم فيها كثيرا الاضطرابات التى تثقل الدولة ، وكذلك الحال بالنسبة

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ٢٦١

(٢) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٦٦

لأقليم الحجرية ان تمرد حاكمها اليمنى الأمير على الشرجبي^(١) على طاعة الوالى العثمانى ، وكان أحد شيوخ هذه المنطقة ، وكان جعفر باشا قد قربه اليه ومنحه لقب أغا ، ثم رقا به بعد قليل إلى رتبة السنجق^(٢) ، وقد اتسعت هذه الاضطرابات فى إقليم الحجرية إلى حد كبير خاصة أن الشرجبي قطع طريق عدن إلى تعز ، وطريق المخامن طريق موزع وعظم أمره ، وقد وجهوا إليه كثيرا من الأمراء لحربه فهزمهم وقتلهم ، واستفحل أمره حتى قتل المؤيد على العثمانيين واضطربت أحوال عسكرهم وقد فشل كذلك محمد باشا فى حل النزاع القائم بين الأمير على الشرجبي وأحد جيرانه^(٣) ، واستمرت الحروب باقليم الحجرية حوالى عامين ، لم يستطع محمد باشا اخمادها الا بعد وصول الأمير صفر مدد اليه فى سنة ١٠٢٨ هـ = ١٦١٩ م ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، فذهب الأمير صفر إلى اقليم الحجرية على رأس قوة من الجند قدرها أربعمائة جندي .^(٤)

كما وجد محمد باشا أن الأقاليم التى تحت يد الإمام جبلية وفقيرة وخراجها قليل ، والا حفاظ عليها يكلف الكثير ، فلا يتحصل منها على نصف المثق عليها .^(٥)

لكل هذه الاسباب مجتمعة سواء من جهة الإمام القاسم أو من جهة محمد باشا فقد كان كل منهما يحبذ الصلح ، ومن ثم كانت الموافقة عليه وكان كل

(١) الشرجبي - نسبة لأقليم شرجب بالحجرية .

(٢) الموزعي - الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥١

(٣) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ٢٦١

(٤) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥٧

(٥) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٢ ص ٩٩

منهما حريصا على بقاءه لحاجته إليه ، لكن هذا الصلح لم يكن يخفى حقيقة هامة هي ظهور ضعف الحكم العثماني في اليمن وخلخلة نظمه ، بالإضافة إلى أنه أخفى الفشل العسكري الذي منيت به القوات العثمانية أمام المقاومة اليمنية ، كما أنه يرمز إلى ظهور قوة الإمام القاسم رغم شدة ظروف البلاد في الأيام الأخيرة ، ويظهر ذلك في قول أصحاب محمد باشا عندما استشارهم في عقد الصلح " فان الإمام القاسم ليس كما كان في السابق ، وكذلك أصحابه ليسوا الآن كما كانوا في ماضي الزمان ، بل صاروا أهل سلاح وعدة " (١) لذا نجدهم عند لقاء الإمام خاصة في الأيام الأخيرة يحسبون له حسابا ، وما يظهر ضعف نظم الدولة وخلخلة أوضاع العثمانيين في اليمن حينذاك قول محمد باشا عند رحيله من اليمن " كنت أعتمد على دقاترى وحفظي من أخبار اليمن ، وأقول ليس أحد أعرف مني بأحوال اليمن ، وأعترف الآن أنني دخلت اليمن وخرجت منه ولا عرفت ولا حققت قدر أنطة " (٢) .

وهكذا انتهت المراحل الأربعة من نهضات الإمام القاسم والتي وضعت الأسس الأولى للدولة القاسمية الزيدية في اليمن على يده ، ثم أيدى أولاده الذين استطاعوا اخراج العثمانيين للمرة الأولى من اليمن في العشر الأوائل من شهر جمادى الأولى سنة ١٠٤٥ هـ = ١٦٣٥ م .

-
- (١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن ص ١٥٨
 (٢) الموزعي - الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٧٤

بعد عقد الصلح بسنة توفي الإمام القاسم بن محمد فى ليلة الثلاثاء
الثانى عشر من ربيع الأول سنة ١٠٢٩ هـ = ١٦٢٠ م فى حصن شهارة ^(١) . ولم
يكنم أمر موته بل عرفه العامة والخاصة ، وكان سبب وفاته الحمى الحارة ، وكان
قبل وفاته يشتد به ألم فى بطنه ، فكان يقعه عن الخروج من بيته ، حتى أنه
ترك صلاة الجمعة أحيانا ، وطال به المرض ثلاثة عشر يوما ثم توفي ، وقبل وفاته
أرسل إلى الفقهاء من خارج شهارة ومن داخلها ^(٢) .

بعد وفاة الإمام القاسم اجتمع الأعيان والفقهاء الزيدية وتشاؤروا فيما
بينهم لمبايعة إمام جديد يجمعون عليه ، واتفقوا على مبايعة محمد ولد الإمام ،
وكان محمد بن القاسم فى ذلك الوقت مشغولا بتجهيز والده ، فطلبوه وأخوه
الحسين ، وأعلموهما بأمر اجتماعهم فقال محمد : " يختار الفقهاء والسادة من
يصلح من آل الرسول ، وأنا أول من يبايع وأقوم بمعاونته ، وأسلم ما لدى من
بيوت الأموال إليه ، وأن يده مع أيديهم " ^(٣) ولكنهم أبوا إلا قيامه بأمر الإمامة
من بعد والده ، وأنه لا يجوز له رفضها ، فقبلها مظهرا أنه كاره لها ، وقام
السادة العلماء والفقهاء بمبايعة محمد فى تلك اللحظة ، ولقب بالمؤيد ، وبايعه
أكثر من فى شهارة بيعة رضى ورغبة ، وكان الاتفاق ، ثم الاجتماع على مبايعة
الإمام المؤيد من العوامل الهامة التى أدت إلى استمرار وحدة القوى الزيدية ،
وتماسكها أثناء حروبها فيما بعد مع العثمانيين ، مما حقق لها فى النهاية
الانتصار عليهم ، وذلك على عكس ما حدث بعد وفاة الإمام المطهر ، ان تنازع

(١) الشوكانى - الدر الطالع ج ٢ ص ٥٠ ، ٥١

(٢) الجرmozى - النبذة المشيرة ص ٢٧٠

(٣) الشرفى - اللآلئ المضيئة ص ٢٥٨

أبناءؤه فيما بينهم على السلطة وكان مصيرهم الهزيمة والضعف ثم نفيتهم إلى الأستانة

وفي أثناء مبايعة الإمام المؤيد ، أمر المؤيد القاضين يحيى بن محمد بن صلاح الأهنومي ، ويحيى بن صلاح الثلالى وغيرهم بنسبيل والده وتجهيزه ، ثم دفنه ولده المؤيد قبيل الفجر في مسجد شهارة ، وأم المؤيد الناس للصلاة عليه ، وقد أجمع الفقهاء الزيدية على إقامة قبة فوق قبره ، رغم أن الإمام القاسم يكره ذلك ، وأمر الناس ألا يعمروا القباب فوق موتاهم ، لأنه يرى أن هذه العادة بدعة ، وكان يقول لأصحابه " لا بارك الله لمن عمر عليه أو عين لنفسه مشهداً ^(١) " وقد نحرت العقائر وتصدق بها في جميع البلاد وعلى أهل العلم وحفظ القرآن ، وقرأ القرآن على قبره عدة أشهر ، وجزن عليه الجميع ، وقيل في رثائه الكثير ، ومن ذلك ما قاله القاضي علي بن الحسين المسورى :

من الآن فلتبك العلى والفضائل ويهمل الا ذكرهن الفواضل
سلام على الدنيا سلام مسودع فقد أوحشت فيها علينا المنازل
وأظلمت الآفاق طرا وأكسدت علينا لداهى الخطب فيها المناهل ^(٢)

وبعد أن تمت البيعة للمؤيد ، أرسل بكتاب إلى محمد باشا في صنعاء أخبره بوفاة والده وأنه القائم بأمر الإمامة من بعده ، وأنه باق على الصلح الذي عقد مع والده " لا ينقضه ناقض " ، وأهدى إليه نسخة من كتاب الكشاف ^(٣) ، وكانت

(١) الشرفى - اللآلىء المضيئة ص ٢٥٨

(٢) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ٢٧٧

(٣) الكشاف - كتاب في علم التفسير واسمه الكشاف في حقائق التنزيل ، للعلامة

أبى القاسم جابر الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي المتوفى سنة

٥٢٨ هـ (كشف الظنون ج ٢ ص ١٤٧٥)

نسخة عظيمة ، ورد محمد باشا على المؤيد بالموافقة على استمرار الصلح بكتاب
هذا نصه : (((بسم الله الرحمن الرحيم . . لقد كان لكم فى رسول
الله أسوة حسنة ، وقدوة مستحسنة ، طريق سلكه سيد المرسلين وحبيب
رب العالمين ، لله الحمد ، ما قضى وقدر وأمضى ، كل نفس ذائقة الموت ، وكل
إنسان وإن طال عمره الى الفوت ، أنا لله وأنا إليه راجعون وصائرون ومنقلبون ،
فيعزى ولدنا المقام الأكمل الأعلم الأفضل متبع الفضائل عمدة الأفاضل مالك
أزمة المفار والمعارف الجسيمة محمّد بن القاسم بن محمد ، منحه الله صبرا
وكتب له أجرا بوالده الامام العلم الأطول الأعلم الأفضل يخشاه الله برحمته
ورضوانه واسكنه بحبوح جنته باحسانه وجعل نزلته فى عليين . . . والحمد لله
الذى جعلكم القائمين من بعده ، والشادين شدة لما اختاره الله من الخير من
عنده ، وقيامكم بالأمر بعد استخارة الله سبحانه ، ومواظبته من العلماء الأخيار
والقضاة الأطهار ، فانهم ان شاء الله لذلك أهل ولما وقع من اختياركم موضع
ومحل ، تولى الله عونكم وورزقكم الصبر ، وكتب لكم على فراقه الأجر . . . وأنستم
بمقامه أحق وإليه أسبق ، وذكرتم ان الذى بيننا وبين والدكم رحمه الله من
العهود والمواثيق ثابت أساسها ، محكمة امراسها زاد الله أساسها ومراسها
ثباتا وامراسا وقوة ، كما هى الارادة المرجوة ونحن ان شاء الله على ذلك
ما بيد ونا أمر مظهر فيه اختلال ، ولا يكون منا للموضوعات بقواعد ها وعقود ها
انحلال ، بل انا لكم كما انتم لنا وما هو الموجود عندكم هو كذلك عندنا والألفة
الصافية الخالصة الوافية ، كما هى ما يغير تلك القواعد مغير ولا يكرها مكر ،
ونحن لكم فى أمر الخير مساعدون ، وطرق مرغبات الله معاهدون ، والله يختار
لنا ولكم الخير ، وتأخذ بنواصينا إليه ومرشدنا ، ونحن دلائلنا عليه ، وحسبى
الله وكفى . تاريخ سابع عشر شهر ربيع الاول سنة ١٠٢٩ هـ بمحروس صنعاء)))^(١)

ومن هذا الخطاب يتضح لنا مدى محاولة الباشا محمد استمالة الإمام المؤيد ومدى تمسكه بالصلح معه ، مما يوضح اضطراب الأحوال وخلخلة الأوضاع بالنسبة للعثمانيين ، ومدى قوة الدولة الزيدية وتمسكها .

وتميزت بداية عهد الإمام المؤيد بالهدوء والاستقرار ، لا تفاقه مع محمد باشا ، وأدى هذا إلى استمرار الهدوء النسبي في اليمن حوالي ثمانى سنوات ، إذ لم تتجدد الحروب إلا في محرم سنة ١٠٣٦ هـ = ١٦٢٦ م حيث نقض الصلح قبل استكمال مدته بسنتين ، وكان السبب المباشر لنقض الصلح وإعلان الحرب ضد العثمانيين ، هو أن يحيى باشا كان قد قتل في رمضان سنة ١٠٣٥ هـ ١٦٣٥ م أحد الفقهاء من كبار أتباع الإمام المؤيد أثناء زيارته لصنعاء لقضاء بعض حاجياته (١) وذلك لاتهامه بأنه كان يدعو الأهالي إلى مبايعة الإمام ، وقد طالت المكاتبات بين الإمام المؤيد وحيدر باشا حول تسليم قاتل الفقيه إلى الإمام لمعاقبته ، أو لدفع دية القتل ، لكن هذه المكاتبات لم تنته إلى شيء ، وكان يشجع الإمام المؤيد على إعلان الحرب على العثمانيين أن كثيرا من رؤساء وشيوخ المناطق الشمالية وغيرها كانوا يرسلون الإمام سرا لتأييده ، ولمطالبته بالهجوم على العثمانيين ، بل وكانوا يرسلون أبناءهم إليه رهينة لديه لتأكيد الولاء له ، وقد أدى هذا إلى إشعال نيران الحروب في اليمن (٢) ، وفي خلال الفترة ما بين

(١) تاريخ دولة الترك ص ٣١ (المؤلف مجهول)

(٢) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن ص ١٦٢

عقد الصلح ونقضه فى سنة ١٠٣٦ هـ تحقق تغير واضح فى ميزان القوى ، بين
الزيديين والعثمانيين بالاضافة إلى أنها آخر فترات الهدوء الستى
سادت اليمن قبل خروج العثمانيين من اليمن .

الفصل الخامس

الحلل في الاستئانة

أ - نظرة عامة في أهم النظم العثمانية

ب - الحلل في الاستئانة وأثره على الأمة

ج - التوازن بين الامامة والولاية

شيد العثمانيون دولتهم على أسس سليمة من القوة والتعاون النادر ، والنظم الراقية ، التي مكنتهم من قهر أضخم القوى في العالم المعروف كله ، ولا يمكن الحكم على مدى هذه الأسس بدراسة نظم حكمهم في الأماكن النائية كاليمين ، فان أى نظام يخرج عن ميدانه الحيوى لابد أن يتعرض للفساد والإفساد ، أو التطهر على أى شكل كان ، ولكن اذا تطرق الخلل إلى تلك النظم في عاصمة الدولة ، فان ذلك لابد أن ينعكس بطريقة أو بأخرى على البلاد المحكومة .

والحق أن ظهور العثمانيين على مسرح التاريخ كان أشبه بمعجزة ، اذ تميز نمو الدولة بالسرعة الخارقة ، فلم يمض وقت طويل حتى سيطرت على الشئون العالمية ومصير الإنسانية ، وكانت في انتشارها في آسيا ، وأوروبا وأفريقيا أشبه بمحيط طىء بالعلوم والنظم والديانات المختلفة ، ولعل هذا هو السبب في أن الدولة لم تجد فسحة زمنية لدراسة الفرعات من هذه الأصول ، وتفهمها أو تدوقها ، كما حدث بالنسبة للزيدية في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم كان لطبيعة الدولة نفسها دخل كبير في تشكيل نظم الحكم فيها ، فالدولة العثمانية كانت قبل كل شيء آخر كإنها جيش قائم ، وقد ظل العثمانيون محتفظين ببعض ما كان للأتراك الرعاة من خصال خاصة ، أخصها أنهم ولدوا للحرب والفتح ، وكان الجهاد هو أول شيء في الدولة ، وكانت نظم الحكم لنفس هذا الغرض ، ولكن بمرور الزمن وخاصة بعد فتح القسطنطينية بدأت الدولة تتجه للعناية بالنظم الادارية ، وفي أيام

سليمان الأول اتحد هذان الشيخان ، وسارا جنبا إلى جنب ، بيد أن طبيعة الدولة الحربية ظلت هي الغالبة .

كانت مهمة الجيش فتح البلاد ، ثم الحكم ، وبدأت المهمة الأولى تحتل مكان الصدارة منذ عهد السلطان محمد الفاتح ، ومع ذلك فالمهمتان ارتبطتا ببعض أشد الارتباط ، فكانت الحرب تحرك معها الحكومة بأسرها إلى جبهة القتال ، وفي أغلب الأحيان كان كبار موظفي الدولة هم في نفس الوقت قواد الجيش ، وكانت أهم قوات الجيش الوحدات النظامية ، وهذه كانت تنقسم إلى الانكشارية وهم من المشاة والسباهية وهم الفرسان أو الخيالة ، وكان إلى جانبهما وحدات خاصة بالمدفعية وهم طوجيلر ، بالإضافة إلى بعض الوحدات غير النظامية ، وكانت أهم هذه الفرق توضع في مقدمة الجيش لتحمل الصدمة الأولى من ضربات العدو ، كما كانت الدولة تستخدمهم في العمليات الانتحارية والعمليات الشاقة عند اقتحام المواقع المنيعه ، أو فك الحصار ، فهم يعتبرون أخطر وحدات الجيش ، نظرا لبراعتهم في القتال .^(١)

وكانت الخيالة تنقسم إلى فرق السباهية ، وهم أهم الفرق ، ثم السلحدار وتليها فرقة العلوفه جي ، ثم فرقة الغرباء ، وهذه الفرق غير النظامية فرق احتياطية لم يكن لها مرتبات معلومة ، وإنما كانت معيشة أفرادها على ما يغنمونه من ساحة الحرب ، ولم يكن لدى العثمانيين خيل عربية ، وإنما بغال ، وأكاديش وخيل شبه الكدش ، وقد أجاد العثمانيون استخدام

(١) الشناوى - تاريخ أوروبا ج ١ ص ٥٣٠

المدفعية ، وكانت المدفعية العثمانية من القوة بحيث كان الواحد منها يقذف بكتلة الحجر التي تقرب من القنطار ، وما يدل على جودة صيغتها وصنعها أنها نقلت الى أسوار المحيط الهندي عن طريق السويس .^(١)

عرف عن القوة المحاربة العثمانية بسالة أفرادها ، والطاعة والنظام ، ونظافة المعسكرات ، واحتمال المصاعب ، والرغبة في الحرب وضبط النفس وقت الشدة ، وإلى جانب هذه المميزات كانت هذه القوة من الناحية العامة تتميز بالوحدة ، وتظهر هذه الوحدة بشكل واضح في القيادة ، بمعنى أن قائد القوة المحاربة هو السلطان ولا قائد غيره ، وهو الذى يقود الجيش فتتلف حوله الهيئة الحاكمة ، ويلتف حوله كذلك الانكشارية والسباهية ، وتظهر هذه الوحدة أيضا فى أن الجيش العثمانى بهذا الوضع كان غير قابل للتجزئة ، لا فى القيادة ولا فى صفوفه ، أى ليس للدولة العثمانية غير جيش واحد ، وكان لهذا عيبه حين اتسعت فتوحات الدولة ، ان كان معنى انشغال السلطان العثمانى مثلا فى الجبهة الشرقية أمام فارس ، أن الجبهة الغربية خالية من جيش رئيسى لمواجهة النمسا مثلا ، كما أثبت العثمانيون جدارة فائقة فى إقامة الاستحكامات والهندسة البحرية وكذلك عرفوا نظام الجاسوسية .

أما الأسطول البحرى ، فقد اعتنت به الدولة من عصر يزيد الثانى ، وفى عهد السلطان سليم الأول خطت البحرية خطوات واسعة ، نظرا لامتداد الدولة

واشرافها على البحرين الأبيض والأحمر ، مما زادها عددا ونشاطا ، ولكن التقدم فى البحرية العثمانية لم يسر جنبا إلى جنب مع اتساع الدولة ، ولا مع تقدم القوات البرية ، ومع أن الدولة أحرزت انتصارات حاسمة فى البر ، فإن الأمر لم يكن كذلك فى البحر ، ومع أنه كان قد مضى على فتح القسطنطينية وقت طويل ، فإن العثمانيين لم يفكروا فى بناء ترسانة فى استانبول إلا فى سنة ١٥١٨ م حينما بدأوا فى انشاءها على انقاض ترسانة البيزنطيين ،^(١) وإلى ذلك يعزى جزء كبير من فشل العثمانيين فى تحقيق مشروعاتهم فى المحيط الهندى وخليج فارس ، ومن ثم لم تتحقق الأغراض التى من أجلها فتحوا اليمن ، وقد امتدت السيطرة العثمانية إلى اليمن فى الوقت التى بلغت فيه الدولة أوج قوتها ومجدها ، ومعنى ذلك أن الدولة حينئذ كانت قادرة على دعم سيطرتها فى اليمن ، وعلى مد ولايتها هناك بما يحتاجونه من جنود ومعدات ،

ويتأكد هذا إذا عرفنا أن الدولة العثمانية كانت تمتد من المجر غربا إلى حدود فارس شرقا ، ومن شمالى البحر الأسود شمالا إلى عدن جنوبا ، وأن البحرين الأسود والأحمر قد أصبحا بحيرتين عثمانيتين ، كما أصبح للأسطول العثمانى السيادة العليا فى البحر المتوسط ، وكان الجيش العثمانى حينئذ يفوق كثيرا الجيوش الأوربية من ناحية نظامه وتجهيزاته وذلك بالرغم من

(١) البحراوى - فتح العثمانيين عدن ص ١٩٥

الإصلاحات التي أدخلت على تلك الجيوش في ذلك الوقت ،^(١) وحين كان السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٦٦ م على رأس الدولة العثمانية بلغت الدولة أوج عظمتها ، بفضل ما تميز به هذا السلطان من صفات جعلت معاصريه يطلقون عليه لقب الكبير أو العظيم .

وبلغت الدولة العثمانية حينئذ شأوا بعيدا في التنظيم العسكري ففى القرن السادس عشر الميلادى ، لكن بعد عهد السلاطين العظماء أخذ الخل يتطرق إلى نظم الدولة ، ومن بينها النظام العسكري ، مما جعله ينعكس على جميع ولاياتها ومنها ولاية اليمن ، ففى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر الميلادى أخذ الضعف يستشري إلى فرق الانكشارية ، الذين كانوا أساس قوة الدولة وسبب عظمتها ، ثم صاروا سببا فى توقفها وضعفها ، وخاصة حين اعتكف السلاطين فى السراى ، وأدى ذلك إلى ضعف الروح والنظام العسكري ، وكانت الدولة قد سمحت لأفراد فرق الانكشارية بالزواج والإقامة خارج ثكناتهم ،^(٢) وكان من نتائج هذا الإجراء أن أصبح الانتماء إلى فرق الانكشارية وراثيا بدون اعتبار للكفاءة العسكرية ، وقد حدث أن أدخل السلطان مراد الثالث ١٥٧٤-١٥٩٦ م فى فرق الانكشارية الأفراد الذين أسهموا فى المحافظة على النظام فى الاحتفالات التى كان يقيمها ، مما جعل

(١) السيد مصطفى سالم - الفتح العثماني الأول لليمن ص ١٥٥

(٢) د . محمد البحراوى - حركة الإصلاح ص ٨٢

(٣) محمد فريد - الدولة العلية ص ١٠٨

ضمن فرق الانكشارية أخلاط من العامة والسوقة وقد نجم عن فتحها بالالتحاق بفرق الانكشارية أن زاد عددهم زيادة ضخمة بحيث أصبحوا عبئا ماليا على خزانة الدولة ، هذا الفساد الذى استشرى بين أفراد فرق الانكشارية انتقل إلى سائر فرق الجيش ، ودب الحقد فى نفوس أفراد فرق السباهى بوجه خاص ، وقد هالتهم المنح والامتيازات التى اغدقت على الانكشارية ، وأخذوا كلما سنحت لهم الفرصة يمارسون أعمال السلب والنهب ، وإشغال الحرائق فى استانبول ، وكأنها غدت مدينة معادية فتحت عنوة وتستباح فيها أعمال العنف ^(٢) ، وبعد ذلك أصبحت الحكومة العموية فى أيدي الانكشارية ، وكان هؤلاء يمارسون نشاطات إجرامية فى أوقات السلم ، ويشاركون فى خلع السلاطين طمعا فزيادة العطايا ، وتاريخ الدولة حافل بمثل هذه الأحداث منذ مطلع القرن السابع عشر الميلادى ، فالسلطان مصطفى الأول ١٦١٧-١٦١٨ م خلع بعد ثلاثة أشهر فقط من توليته ، وولى مكانه ابن أخيه السلطان عثمان الثانى سنة ١٦١٨ - ١٦٢٢ م ، وهذا أيضا عزلة الانكشارية سنة ١٠٣١ هـ - ١٦٢٢ م ، عندما أحسوا أنه يحاول القضاء عليهم بسبب إصرارهم على الراحة والكسل ، مما ألزمه عقد الصلح مع بولونيا سنة ١٠٢٩ هـ = ١٦٢٠ م وأعادوا مكانه السلطان مصطفى الأول ، ولم يكتفوا بعزله بل هجموا عليه فى قصره وقادوه قهرا إلى ثكناتهم ، وأهانوه ثم نفوه إلى القلعة المعروفة فى استانبول باسم يدى قلعه ، ثم أعدموه هناك ، وكان هذا أول سلطان يقتل بيد رعاياه ^(٣) ، ولم يمكث

(١) الشناوى - تاريخ أوروبا ج ١ ص ٧٥٥

(٢) الشناوى - تاريخ أوروبا ج ١ ص ٧٥٧

(٣) سرهنك - حقائق الأخبار ص ٥٧٦

، محمد فريد - الدولة العليقة ص ١٢٣

السلطان مصطفى الأول الذى أعيد إلى الحكم ثانية إلا عاماً واحداً ، ثم عـُزل وعين بدلاً منه السلطان مراد الرابع الذى لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره ، والذى غي عهده انفصلت اليمن عن السيادة العثمانية ، رغم ما قام به من جهـود لارجاع مجد أجداده وإصلاح الخلل الذى أصاب دولته ، لكن هذه الجهود التى بذلها السلطان مراد الرابع فى إصلاح شئون دولته ، والحروب التى قام بها فى المناطق القريبة من عاصمته ، هى التى شغلته عن الاهتمام بالبقاء على اليمن تحت السيطرة العثمانية أو باستعادته بعد خروج العثمانيين منه .^(١)

ويمكن القول أن حركة الانكشارية فى تمرد ها وعصيانها فى القرن السابع عشر حتى نهايته ، كانت فى صورة واحدة ومتكررة من حيث الأسباب والنتائج ، ولم يتسنى للدولة إزالة فساد أو تحقيق إصلاح ، بعد أن اختلت هذه الإدارة العسكرية ، وبعد أن استشرى الفساد وتأخرت مرافق الحياة ، وضع الناس بالشكوى وسلطين الدولة فى العاصمة عاجزين عن اتخاذ أى إجراء بسبب هذا الفساد ، انعكست تلك المظاهر الفاسدة على أكثر البلاد التابعة للدولة العثمانية خاصة البعيدة عنها مثل اليمن ، إذ كان يغلب على الحملات الزاهية إلى هذا الميدان العنصر غير النظامى ، فقد كان على والى مصر امداد الولاية فى اليمن بالجنود ، لعجز الدولة العثمانية عن إرسال الجنود النظاميين لانشغالها بالحروب فى العراق ، والميدان الأوروبى ، وبسبب تمرد الانكشارية وفسادها ،

(١) السيد مصطفى سالم - الفتح العثماني الأول لليمن ص ١٥٧

فكان والى مصر يرسل عسكريا مطلقا من كل نوع من الأساكة والصناع وقطاع الطرق والفلاحين المصريين غير النظاميين ، لأن الجنود العثمانيين بمصر تقاعسوا عن الاشتراك فى الحروب لأنهم ألفوا الراحة والدعة ، وتنعموا فى مصر بالذات المتنوعة وتعلقوا فيها بكل أسباب الحياة ، وكثرت أولادهم ، وصارت مصر موطنا لهم .^(١) وزاد من هذه المساوىء وضاعف من أضرارها أن الدولة لم تكن توفر لهذه العناصر غير الصالحة ضروريات الحياة ، ولذلك كثيرا ما كانوا يركنون إلى النهب والسلب للحصول على هذه الضروريات لذلك اضطرت القواد العثمانيون فى حالات كثيرة إلى سلوك طريق يتنافى مع النظام العسكري ، مثل التحايل وتقديم الرشوى لسد حاجات الجند واسترضائهم ، كما كان ينظر إلى اليمن باعتباره منفى للمجرمين والعصاة ، فكان رجال الدولة يرسلون إليه هذه الفئات للتخلص منها ولتأديبها ، فقد أرسلت استانبول إلى مصر أثناء ولاية محمد باشا الصوفى ١٦١١-١٦١٥ م حوالى ألفى جندي " لينفوا إلى اليمن لفساد وقع منهم " ^(٢) وذلك فى أثناء ولاية جعفر باشا ، وقد امتنع هؤلاء الجنود عن الذهاب إلى اليمن بعد وصولهم إلى القاهرة ، واعتصموا فى إحدى دورها فاضطر الوالى لارسال قوة من الجند لمحاصرتهم ، ولاخراجهم بالقوة فاستسلموا لمصيرهم بعد أن قتل منهم ثلاثة جنود أثناء المقاومة التى بذلوها بعد أن فشلت الوساطة السلمية فى اقناعهم بالتوجه إلى اليمن ،^(٣)

(١) قطب الدين النهروالى - البرق اليماني فى الفتح العثماني ع ١٩٩

(٢) محمد أبى السرور - المنح الرحمانية ع ١٤٠

(٣) محمد أبى السرور - المنح الرحمانية ع ١٥٦

وقد رأينا فى الفصل الرابع الانقسام والفوضى التى عمت اليمن بعد عزل
جعفر باشا سنة ١٠٢٢ = ١٦١٣ م وما حدث بينه وبين عبد الله شلبى وجنوده
مما أدى إلى ازدياد الاضطرابات بين صفوف العثمانيين وانقسامهم ، وفى
عهد الامام المؤيد بن القاسم وبالأخص فى ولاية حيدر باشا الذى تسلم ولايته
اليمن سنة ١٠٣٤ هـ = ١٦٢٥ م ظهرت ظاهرة خطيرة تدل على أنه يـسـار
الأوضاع بين صفوف الجند العثماني ، فقد تعددت حوادث هروب الجند من
اليمن نتيجة صعوبة وخطورة هذا الميدان ، وذلك لعجز الوالى العثماني عن دفع
مرتباتهم ، ولضيقهم بمناخ تهامة الحار ، وكانت بعض الفرق العثمانية تعمل على
الهرب إلى مكة أثناء توجهها إلى اليمن ، أو تلجأ للإمام مباشرة وترفض
الانضمام إلى صفوف العثمانيين ، كما حدث أثناء محاصرة حيدر باشا صنعاء ،
ان رفض الجنود النزول إلى ميناء المخا ، وتوجهوا إلى ميناء اللحية حيث
لجأوا إلى ميناء القنفذة للذهاب إلى مكة . (١)

وهكذا انعكس ضعف الانكشارية وفسادها على الفرق العسكرية فى اليمن
أيضا ، ان تبدوا الفروق واضحة بين الانكشارية فى عصرها الذهبى ، وبين
الانكشارية فى عصر الاضمحلال ، فقد كانوا يتلهفون على الخروج إلى الحرب ،
ويعتبرون النفي العام حادثا سعيدا ، ينتظرونه وهم فى شوق شديد إليه ، وكان
هذا فى عصر قوة الدولة أى فى عصرها الأول .

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٦٦

أما من الناحية الإدارية ، فإننا نلاحظ أن مرونة النظم العثمانية ، وخاصة في فترة نمو الدولة استطاعت أن تستوعب النظم التي وجدت في البلاد المفتوحة ، وأن توائم بطريقة عمليّة بين نظم العثمانيين الأصلية وبين أوضاع البلاد المختلفة التي خضعت لسيطرتها ، ولذلك اختلفت النظم العثمانية من بلد إلى آخر ، مما ساعد العثمانيين في النهاية على حكم بلاد كثيرة مترامية الأطراف ، فقد تشابه الحكم المحلي في الولايات العثمانية مع الحكم المركزي في الدولة ، فكان على رأس كل ولاية وال أو بكربكي بمعنى أمير الأمراء وسلطانته في داخل ولايته تشبه سلطات السلطان المركزية ، وكذلك يساعد الوالي في حكم ولايته مجموعة من الموظفين تتشابه أعمالهم وألقابهم مع أعمال وألقاب موظفي الحكومة المركزية ، ومعه مجموعة من الكتاب والمحصلين لمعاونته في جمع الأموال المقررة على الأهالي وتحديد أوجه صرفها ، وإلى جانب هؤلاء جميعا كانت هناك مجموعة السناجق ، أمراء المقاطعات والمدن الهامة في داخل الولاية ، وكان إلى جانب كل سنجق بدوره مجموعة من الموظفين تشبه مجموعة موظفي الوالي ، مما أدى بمرور الوقت إلى تضخم جهاز الدولة التنفيذي ، فشكل هذا خطرا كبيرا فيما بعد على كيان الدولة .^(١)

وكان النظام الإداري في اليمن يقوم على نفس هذا النمط حيث يمثل الوالي العثماني السلطة العثمانية في اليمن ، ويعتبر الوالي قائدا حربيًا وإداريًا معًا ، وكان يقود الجيوش بنفسه ، وقد رأينا خلال فصول الرسالة كيف

(١) السيد مصطفى سالم - الفتح العثماني الأول لليمن ص ٤٣٤

قاد حسن باشا و سنان باشا الكخيا الجيوش فى مناهضة دعوة الإمام القاسم بن محمد ، وهذا الوالى يكون له الحق فى تكوين قوة من أهل الأقاليم لمساعدة قواته بصرف النظر عن الاختلافات المذهبية ، فتولى اليمنيون حكم بعض الأقاليم ، وقادوا الفرق العسكرية ، وتولوا الوظائف الادارية والمالية ، وذلك للاستفادة من خبراتهم بشئون البلاد ، بعد منحهم الألقاب العثمانية ، أى اعتبارهم أمراء أو سناجق عثمانيين ، ومنحهم كذلك مرتبات من الدولة العثمانية ، وقد مرت بنا أمثلة من هذا النمط الادارى خلال فصول الرسالة ، فقد عين العثمانيون أمثال حسن باشا ، و سنان باشا وغيرهم من ولاية اليمن أمراء آل شرف الدين فى مثل هذه المناصب ، مثل أحمد بن شمس الدين حاكم كوكبان ، وابن المعافا حاكم السود و عبد الرحيم بن عبد الرحمن حاكم حجة ، هؤلاء دخلوا فى خدمة العثمانيين ، وقد رأينا كذلك كيف استعان الوزير حسن باشا بعدد كبير من أمراء وزعماء المنطقة الشمالية فى الحملة التى أرسلها تحت قيادة سنان الكخييا للقضاء على الاضطرابات فى إقليم الحجرية ويافع . (١)

ثم يأتى بعد الوالى الكتخدا ثم مجموعة حكام الأقاليم والمدن الهامة أى السناجق والكشاف ، وهم فى نفس الوقت قادة القوات العثمانية ، ثم يأتى بعدهم أمراء الآليات والصوفا شية وحكام المدن ثم رؤساء القوات التى تعمل

على حفظ الأمن في البلاد ، وكان ضعف الولاة وفسادهم يؤدي إلى انتشار الظلم والفوضى في البلاد ، لضعف الاشراف العظمى على حكام الأقاليم ، وقد رأينا الفوضى واندلاع الحروب في إقليم اليمن أثناء ولاية سنان باشا الكخيا ، الذي اشتهر بالقسوة والغلظة ، فلما أتى اليها جعفر باشا بعد عزل سنان باشا كانت اليمن في حالة فوضى كاملة .

لقد تحرر السلاطين ورجال الدولة العثمانية الدقة في اختيار الولاة وخاصة قبل أن ينتشر الفساد في نظم الدولة وأجهزتها ان كان يتم اختيار هؤلاء الولاة ممن يثق بهم السلطان ، أو ممن نشأوا في السراي حتى يكونوا موضع ثقته ، أو ممن تولوا نيابة غزة أو مصر ، وذلك حتى يكونوا على دراية بأحوال البلاد ، غير أن تفشى الفساد في أجهزة الدولة قد أتاح الفرصة أمام بعض الولاة الضعفاء لتولي أمور اليمن ، واعتمد بعض الولاة في اليمن للوصول إلى مناصبهم على الهدايا والرشوى لرجال الدولة في عاصمة الدولة ، فقد اعتمد أمير صعدة على قرابته من أحد رجال الدولة في استانبول في عزله جعفر باشا رغم صلاحيته ، كما أوضحت ذلك في الفصل الرابع ، وكان بعد اليمن عن مقر السلطنة العثمانية كذلك ، سبباً في تأثر اليمن بما أصاب نظم الدولة من اضطراب ، وانجراف ، مما أدى إلى تولي بعض الولاة الفاسدين ، والذي انتشر الرغبة بين العمال والجنود في ابتزاز أموال الأهالي ، مما أدى إلى ازدياد اضطراب الأمور في اليمن .

اشتهر العثمانيون بدقة التسجيل واستخدام الدفاتر الحكومية ، واتضح

ذلك بصورة جلية في اليمن ، فكان الولاة والعمال يهتمون بتسجيل أوجه الصرف والمرتبات ، واتفاقيات الصلح التي يتم إبرامها ،^(١) وقد أصاب هذه الناحية الهامة من نواحي النظم الادارية العثمانية ما أصاب باقى نواحي النظم من الجمود والفساد ، ويدلنا على ذلك ما أظهره محمد باشا من تلاعب في محتويات السجلات الموجودة باليمن حين توليه الأمور بها سنة ١٠٢٥ هـ = ١٦١٦ م ، اذ كان قد دون بها " اناسا كان يجرى عليهم من السلطنة أرزاق ولا لهم وجود " .^(٢)

أما الحريم ، فكان في عهد السلاطين الأوائل ، أى في عصر قوة الدولة في شبهعزلة عن بقية الخاصة السلطانية ، ولذلك فأنهن كن قليلات التأثير على تسيير أمور الدولة في عهد هؤلاء السلاطين ، ولكن عندما بدأ الضعف يدب في شئون الدولة أصبح تدخلهن واضحا ، وكان سببا في فساد نظم الدولة وانحلالها ، وكان الاحتلال في الولايات النائية أكثر وضوحا منه في مركز الدولة ، حيث بدأت سيدات القصر في التدخل في شئون الحكم بعد أن كان مكانهن القصر فقط ، ولم تظهر بوادر هذا الخلل فجأة بل أخذ يظهر رويدا رويدا ، وزادت هذه المظاهر الاجتماعية والسياسية سوءا في عهد السلاطين الضعفاء ، فالسلطان مراد الثالث سنة ١٠٧٤م - ١٠٩٥م وقع تحت تأثير رجال

(١) على همت - أبو الفتح السلطان محمد الثاني وحياته البعدلية ص ٩٦

(٢) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٢ ص ٢٠٢

حاشيته وندائه وخضع أيضا لسيطرة أربعة من السيدات هن والدته وزوجته ، ،
وكبيرة وصفات السراى ، وأخذت هذه الفئات فى التدخل فى شئون الدولة
العامة لتحقيق مصالحها الخاصة ، وعملت على إجبار رجال الدولة بما فيهم
الصدر الأعظم على تنفيذ رغباتها ، كما عملت على الإحاطة بالصدر العظام ،
وتدبير المؤامرات أحيانا اذا رفضوا تنفيذ هذه الرغبات . (١)

قد ترك السلاطين للعلماء وكل مظاهر التكريم والاحترام كتراسة الاحتفالات
والتصرف المطلق فى أمور القضاء والثقافة ، ومن ثم استقر فى الأذهان أن علماء
استانبول وحدهم هم الأهل لذلك ، وساعد على ذلك حماسة العلماء وصرامة
خلقهم فى أيام الدولة الأولى ، مما أكسبهم تأثيرا على غيرهم ، وكان العلماء
متواضعين على جانب من الطاعة طالما كان السلاطين يقودون الجيوش بأنفسهم ،
ويتوجون بالنصر ويسيطرون على قواتهم ، وحين ترك السلاطين قيادة الجيوش
للوزراء بدأ يقوى نفوذ العلماء ويشدد سلطانهم ، ومن ثم أخذوا يحسون بأهميتهم
السياسية (٢) ، ولما تطرق الخلل إلى أنظمة الدولة ومنها نظام القضاء ، ظهرت
منهم مجموعة تتصف بالجهل بالاسلام وتعاليمه ، ان أصبحت بعض مناصب القضاء
والافتاء تعطى كإنعام ، وكان أولاد كبار العلماء يعفون أحيانا من الدراسة
المنتظمة والامتحانات ، وتمنح لهم الألقاب العلمية وهم فى بيوت آبائهم ، وقد

(١) السيد مصطفى سالم - الفتح العثمانى الأول لليمن ص ٢٨٨

(٢) البهراوى - حركة الإصلاح ص ٨٠

(١) وصل كثير من ذلك الصنف ، الى قمة هيئة علماء استانبول .

وقد انعكست تلك المظاهر على البلاد النائية البعيدة عن قلب الدولة وظهر هذا الفساد بشكل واضح في ولاية اليمن ، ومن ثم نرى الجرموزى صاحب سيرة الإمام القاسم قد هاجم القضاة العثمانيين بشدة لأنهم أساءوا إلى الشريعة الإسلامية التي كانوا يحكمون باسمها ، مما زعزع ثقة الزيديين في هؤلاء العلماء ولذلك سموهم الكفار والجهال والظالمين وغير ذلك من الصفات ، لأن هذه الوظيفة قد تدهورت عندما تولوها غير مستحقيها ممن كانوا يسعون إليها لما كانت تدره على صاحبها من دخل ، لأن القاضي كان يحصل على رسوم محددة من المتقاضين من ناحية ، ولحصوله من ناحية ثانية على الرشاوى ففسى القضايا المختلفة . (٢)

أما من حيث التنظيم المالى ، فقد أدى اتساع الدولة وظروفها التاريخية إلى وجود نظم خاصة لحكومات الولايات ، فكانت حكومة كل ولاية تجمع الضرائب من الولاية ، وتقوم بالانفاق منها على الولاية ، كما كانت هناك أوقاف خاصة ، تخصص إيرادها للانفاق على المنشآت الدينية والمساجد ، ولما اتسعت الدولة وكثرت مصروفاتها ، وبدأ الخلل يذب في أوصالها أخذت تعاني من الأزمات المالية الشديدة (٣) ، بسبب الاضطرابات الداخلية والخارجية التي أشرنا إليها من قبل ، وبدأ في الدولة العصر الذى أطلق عليه المؤرخون العصر المخيف (٤)

(١) البحرأوى - حركة الإصلاح ص ٨٩

(٢) الجرموزى - النبهة المشيرة ص ٩٨

(٣) على همت - ابوالفتح السلطان محمد الثانى وحياته العادلة ص ٩٦ ،

الدسوقى - الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص ٦٦

(٤) البحرأوى - فتح العثمانيين عدن ص ١٠٢

وقد انعكس كل ذلك على الولايات البعيدة وعلى الأخص اليمن ، وبعد أن كانت الدولة تقوم بدفع مرتبات الجند من خزانة الدولة في عهد السلاطين الأوائل وكان هؤلاء الجند يقنعون بتلك المرتبات لأن هدفهم كان فتح البلاد ونشر السلام بها ، وكانت التربية العسكرية التي تدرّبوا عليها قد عودتهم على الحياة الخشنة المبسطة ، إلا أن هذا النظام أصابه هو أيضا الخلل وأصبحت مرتبات الأمراء والجنود ضئيلة بالنسبة إلى حياة الترف والبذخ التي تعلقوا بها في عهد السلاطين الضعاف ، مما كان من أهم العوامل التي أدت بهؤلاء إلى ظلم الأهالي وابتزاز أموالهم لكي يعوضوا قلة المرتبات ، كما أن نظم العثمانيين المالية كانت تترك بعض الثغرات التي تتيح لبعض كبار موظفيها الفرصة لاستغلال وظائفهم للحصول على الثروات الضخمة ، لأن الخزانة العامة للدولة كانت تصرف لبعض كبار موظفيها جزءا من مرتباتهم ، أما الجزء الباقي فكانوا يأخذونه من الأهالي أو من العوائد مقابل ما يقدمونه من خدمات^(١).

وقد اتبع العثمانيون في اليمن شتى الوسائل المطبوعة للحصول على المال ، فقد عمد كثير من ولاية اليمن إلى جمع الأموال لتحقيق أغراض شخصية لتولى حكم مصر مثلا وطلب الهدايا الكثيرة من الأهالي عند وصوله أي بلد من بلاد اليمن ، وذلك كما فعل محمود باشا الذي تولى أمر اليمن سنة ٩٦٨ هـ = ١٥٦١ م^(٢).

(١) على همت - أبو الفتح السلطان محمد الثاني وحياته المعدلية ص ١٩٥

(٢) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٣٠

واتصف هذا الوالى بكل صفات الانتهازية لتحقيق أغراضه ، فقد قتل رئيس سك النقود واستولى على أمواله الوفيرة بتهمة التلاعب بالعملة وغشها بغلبة النحاس على الفضة ، وكانت تهمة باطلة ،^(١) كما غير سنان باشا الكخيا فى اليمن سنة ١٠١٣ هـ = ١٦٠٤ م العملة مما أغضب الناس ، وكذلك كان يعطى رؤساء القبائل الذهب الأحمر المغشوش ليميلهم إليه أثناء مناهضة الامم للقاسم بن محمد ، واستعمل العثمانيون فى أحيان كثيرة الشدة فى جمع الأموال من الاهالى وذلك لحصول الجيوش على احتياجاتهم بالقوة من المناطق التى ينزلون بها ، وذلك يرجع إلى التناقض بين ضخامة الأعباء المالية وبين ضعف الأحوال الاقتصادية فى البلاد ، وقد أشار الجرmozى إلى هذه القسوة فى جمع الأموال بقوله : " أما المال فلهم فى أخذه قوة سطوة ، فلقد يعذبون أهله العذاب العظيم مثل ضرب السياط قليلا وكثيرا ، وقد يجلدون بعضهم حتى يموت مع المشاهدة والكى بالنار " .^(٢)

أما نظام الضرائب الذى أخذ به العثمانيون ، فكان متعدد الجوانب ، فهناك نظام العشور والخراج ونظام الالتزام التى سارت عليه الدولة العثمانية فى جمع الضرائب فى كثير من ولاياتها ، وقد طبق هذا النظام فى أرض اليمن^(٣) بخلاف الحجاز التى اقتصرت موارد الدولة فيها على رسوم التجارة فى موانئها

(١) قطب الدين النهر والى - البرق اليماني فى الفتح العثماني ص ١٢٨

(٢) الجرmozى - النبذة المشيرة ص ٧٦

(٣) البهراوى - فتح العثمانيين عدن ص ٢٠٠

الهامة مثل جدة ، كان نظام الالتزام موضع سخط أهالي اليمن في كثير من الأحيان لما فيه من ثغرات تسمح للقائمين بتنفيذها باستغلال الأهالي وجمع الثروات الخاصة ، لأن حكام الأقاليم هم الذين كانوا يلتزمون بجمع خراج أقاليمهم ، وكان هؤلاء يحرصون على جمع الثروات من وراء بيع التزاماتهم مما كان في النهاية يزيد الأعباء على الأهالي ، كذلك كانت تجمع الضرائب على النخيل والأبقار ، سواء كانت هذه الأشجار باقية أم غير باقية ، وكذلك الحال بالنسبة للابقار والاراضى مما جعل هذه التصرفات موضع تذمر كثير من الأهالي حتى ان جعفر باشا عند توليه الحكم وجد هذه الظاهرة موجودة ، فأزال هذه المظلمة على المفقود من النخيل والبقر ، ^(١) غير أن أعمال جعفر باشا الإصلاحية كانت مواقف نادرة في تاريخ العثمانيين باليمن .

بعد هذا المرض لأهم النظم للدولة العثمانية ، نجد أن الدولة بلغت في عصر قوتها شأواً بعيداً من التنظيم الإدارى والحربى وغيرهما ، بيد أن هذه النظم لم يكن لها الأثر الإيجابى أو الوجود الفعال في أطراف الدولة وجهاتها النائية ، وكأنها كانت تختفى أو تتلاشى تبعاً للقرب ، أو البعد عن مجال الدولة الحيوى ، ومركزها الرئيسى ، شأنها شأن الحملات نفسها ولا سيما في جنوب غرب الجزيرة العربية ، وحينما انهارت تلك النظم في مركز الدولة ذاته وفي مجالها الحيوى في أوائل القرن السابع عشر الميلادى ، انهارت أكثر في الأطراف التى منها اليمن .

(١) الموزعى - الاحسان ودخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤١

انعكس الخلل الذى دب فى النظم العثمانية والذى أشرنا إليه على موقف الدولة الخارجى ، ففي نهاية القرن السادس عشر الميلادى كان على الدولة أن تخوض حروبا عدة فى ميادين مختلفة لأسباب كادت أن تكون متشابهة سواء على الحدود مع فارس أو فى الشمال الأفريقى ، بل وفى أوروبا أيضا ، فى وقت برزت فيه روسيا كدولة حديثة تمثل عبئا ثقيلا اضافيا على الدولة العثمانية وتمثل أيضا عائقا من أهم لعوائق لاستقرار الدولة وللإصلاح فيها ، كذلك كانت الحالة خطيرة بالنسبة للدولة فى حوض البحر المتوسط ، لكن كيف السبيل إلى مواجهة هذه الأخطار مع وجود هذا الخلل فى عاصمة الدولة وفى كل أجزائها ؟

من ثم نرى الدولة تضطر لعقد معاهدات واتفاقيات صلح ، وهذا واضحا فيما تعقده الدولة من معاهدات للصلح مدى ما آلت إليه من ضعف ، ومضى تأثير ذلك الخلل ، وإذا أخذنا الميدان الفارسى كمثال تطبق لهذه الحالة ، فقد كان شاه فارس على استعداد لنقض الصلح مع الدولة بمجرد علمه أن العثمانيين قد اشتبكوا فى حرب مع أى دولة أخرى ، انتقاما للعار الذى لحق الفرس فى الحروب الماضية ، فقد نقض الشاه اسماعيل الصفوى الصلح الذى عقده مع فرهاد باشا سنة ٩٩٨ هـ ثم عاد للصلح ثانية مع نصوح باشا سنة ١٠٠٢ هـ على غرار الصلح الأول ، وما لبث أن نقض هذا الصلح أيضا عندما رأى انشغال الدولة وكثرة اضطراباتها ، واستطاع دخول بغداد سنة ١٠٣٢ هـ - ١٦٢٣ م^(١) ،

كما أصيبت الدولة العثمانية أيضا بضربة قوية في سوريا ولبنان وذلك بخروج أمير لبنان فخر الدين المعنى على السلطان أحمد الأول سنة ١٦٠٣ م فقد اشترك مع جان بلاط الكردى وهددوا سوريا نفسها بالاحتلال ، واستولى فخر الدين على بعلبك سنة ١٦١٠ م^(١) ، وبذلك أصبحت الدولة مرهقة في الداخل والخارج ، فقد عقد السلطان أحمد صلحا مع الشاه عباس ابن طهماسب سنة ١٦١٢ م تنازل فيه عن كل ما فتحه العثمانيون من بلاد منذ عهد سليمان بما في ذلك بغداد ، وكان عقد صلح ستوارتورلغى الغرب وإبرام الصلح مع الفرس على هذا النحو اسقاطا لأهمية اليمن من حيث اتخاذها قاعدة ارتكاز فقد الانتشار الأوربي في المحيط الهندي ، وتهديد فارس من الجنوب ، وهكذا انعكست أوضاع الدولة العثمانية العامة على أوضاع اليمن الداخلية .

كان إبرام العثمانيين الصلح مع الإمامة الزيدية أكثر من مرة دليلا على حدوث التوازن بين القوتين في اليمن وخاصة بعد أن تعلم أصحاب الإمام القاسم استعمال البنادق ، وترنوا على إطلاق البارود ، فقد حصل اليمنيون على كثير من أسلحة العثمانيين النارية أثناء الحروب الطويلة بين الطرفين كما سنفصل ذلك في النتائج والتحليل ، وكانوا ينقلون هذه الأسلحة إلى حصونهم ومعقلهم ، خاصة المدافع الكبيرة ، وكان حصول الزيديين على الأسلحة واستعمالهم إياها من الأمور التي شجعتهم على الوقوف في وجه العثمانيين بعد أن كانوا يخشون مواجهتهم في بداية الأمر .

(١) كارل بروكلمان - تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٥١٣

كما أنهم حافظوا على كثير من الوظائف والنظم التي اكتسبوها عن العثمانيين بعد أن ظلوا قرونا طويلة عبارة عن زعماء دينيين يسكنون قسم الجبال الشمالية ، وبذلك بدا أن وجود العثمانيين في اليمن قد بدأ ^{يته} منها ، يتضح ذلك جليا من قول محمد باشا عندما استشار الأمراء والأعوان في عقد المصلح مع الامام سنة ١٠٢٨ هـ " قد طلبتكم لهذا الأمر الذي دامت الفتنة بيننا وبين الإمام مع تضاعف عدد المعسكر ، وزيادة المدد لها واتسع مدارها ، ولم يحصل فيها كفاية في فتح بلاد الإمام ، وما برحوا واقفين في الحدود ، فأجهوا بأجمعهم وقالوا : الحركة على الإمام في هذا الوقت ليس فيها صلاح ولا استمرار غير بذل الأموال وذهاب الأرواح ، وترك كل شيء هو الرأي الصائب فأن الامام القاسم ليس كما كان في السابق ، وكذلك القبائل ليسوا كما كانوا ، أما الآن فقد عظمت شوكتهم وظهرت قوتهم " كثر معهم السلاح " (١) بالاضافة إلى أن الدولة القاسمية في هذه الفترة كانت تمثل الجديد القابل للنمو والامتداد بينما الحكم العثماني كان يمثل القديم المثقل بالأعباء والأخطاء معا ، وعلى سبيل المثال ، فقد كان الحكم الإمامي غير مرتبط بالتكاليف المالية المرهقة التي تثقل كاهل الأهالي بالضرائب الفادحة ، على عكس الحكم العثماني الذي كان يشتد في جمع الأموال من الأهالي لتغطية حاجاته الكثيرة المتزايدة ، وانعكس هذا بوضوح في " أن الامام كان لا يأخذ منهم (٢) مالا ولا يفرض سؤالا ، ولا يقبض منهم إلا الذي يطابق هواهم " (٣) .

(١) يحيى بن الحسين - أنباء - أبناء الزمن ص ١٥٨

(٢) أي القبائل

(٣) يحيى بن الحسين - أنباء - أبناء الزمن ص ١٥٨

ومن ناحية ثانية ، نجد أن صفوف الزيديين فى هذه الفترة التى نحن فى صدده الحديث عنها كانت تتمتع بوحدة الصف تحت زعامة الإمام القاسم وأولاده من بعده ، بينما كانت المنازعات والانقسامات بين صفوف العثمانيين تشير الحروب بين بعضهم البعض ، وتضعف من شأنهم ، وذلك كما رأينا أثناء النزاع بين جعفر باشا وعبد الله شلبي الكخيا ، وقد رأينا من خلال هذا الفصل الخلل الذى أصاب نظم الدولة العثمانية وانعكس على اليمن بأوضح صورته مما أضعف من قوتهم ، ومن قوة وجودهم فى اليمن ، وبذلك تحقق فى آخر أيام الإمام القاسم تغير واضح فى ميزان القوى بين الزيديين والعثمانيين ، أى حدوث التوازن بين الإمامة والولاية ، ثم حدث تغيراً آخر فى إمامة أبنائه من بعده وهو رجحان كفة الإمامة على القوة العثمانية والوجود العثماني مما أدى فى النهاية إلى اخراج الدولة العثمانية من اليمن جميعه .

الحائِمة

النَّجْمُ وَالْخَالِ

ان الخاتمة تعنى أن أبين النتائج أو ما توصلت إليه من خلال بحثى ،
 هذه الخاتمة جعلتها قسمين : أحدهما خاص بالقاسميين ، والثانى خاص
 بالدولة العثمانية ، لأبين وجهة نظرى التحليلية بالنسبة للقاسميين والدولة
 العثمانية .

وفىما يختص بالقاسميين فقد بدأت بفترة الاستقرار التى سبقت حكم
 القاسم ، لأن الفترة التى سبقت ظهور دعوة الإمام القاسم بن محمد كانت كما
 بينا من قبل فترة استقرار للحكم العثمانى فى اليمن ، وقد تضافرت عدة عوامل
 لجعل هذه الفترة تتميز عن غيرها من فترات الحكم العثمانى فى اليمن ، ولجعلها
 تتصف بالهدوء والاستقرار ، وقد بدأت هذه الفترة بداية قوية لأنها كانت
 تستند إلى جهود حسن باشا والكخيا سنان ، اللذان استطاعا أن يحافظا على
 النتائج التى حققوها فى اليمن ، وساعدت ظروف اليمن الداخلية على هدوء
 الأحوال نسبيا فى هذه الفترة ، فقد توفى المطهر دون أن يخلفه شخص قوى
 يستطيع أن يتزعم اليمنيين ، أو أن يقودهم ، بل خلفه أبناء ضعاف تنازعوا الأمر
 فيما بينهم ، فضعف شأنهم حتى أصبحوا ألعوبة فى أيدي العثمانيين ، مما
 ساعد العثمانيين على القضاء على أى حركة منوطة لهم بسهولة ، وبالرغم
 مما كانت تعانيه الدولة العثمانية من خلخلة فى نظمها فى هذه الفترة ، إلا أن
 نجاح العثمانيين فى فرض سيطرتهم فى اليمن حينذاك لا يرجع إلى قوة الدولة
 أو إلى قوة مساندتها للولاة فى اليمن ، بل يرجع إلى قوة شخصية الولاة العثمانيين
 وضعف موقف اليمنيين ، فقد توفى المطهر وأتاح الفراغ من الإمامة الفرصة
 أمام العثمانيين لفرض سيطرتهم على أقاليم اليمن المختلفة وتدعيمها " لقد

كانت وفاة المطهر بالنسبة للأتراك (العثمانيين) نصرا عظيما ويشرى سعيدة
 لتأخست لهم المزيد من السيطرة وسط النفوذ والتتكيل بأعيان البلاد " (١) ،
 فأصبحت المنطقة الشمالية موضع طمع العثمانيين بعد أن كانت مصدر إقلاق
 لهم ، وكان ظهور الإمام الحسن فى هذا الوقت أمرا متوقعا نظرا لاضطراب
 الأحوال فى المنطقة ولسوء سياسة الأمراء القائمين بها ، وقد ساعد على
 ظهور هذا الإمام ، أن المذهب الزيدى بطبيعته يبيح لأى من الأشراف الزيديين
 اذا توفرت فيه الشروط اللازمة ، أن يعلن إمامته ويدعوا الناس إلى مبايعته ،
 ولقد نجحت الدعوة فى بداية الأمر إلا أن هذا النجاح لم يستمر طويلا لموقف
 الحكام المعادى منها ، فضعفت الأحوال اليمنية الداخلية ، بالإضافة إلى
 انهيار الأحوال الاقتصادية نظرا للحصار البحرى البرتغالى ، ونظرا لكثرة
 الاضطرابات والحروب الداخلية ، لافتقاد اليمن الشخصية القوية التى تجمع
 حولها العناصر اليمنية ضد العثمانيين ، مما مهد الطريق أمام الولاة العثمانيين
 مثل حسن باشا وكتخداه سنان باشا أن يوطدوا سيطرتهم على اليمن ، وأن يمدوا
 كل منهما إلى أقصى امتداد لها ، بعد أن تخلصوا من العناصر القوية من
 أبناء المطهر وغيرهم من الأمراء الشماليين ، بالإضافة إلى أنهم كانوا
 يوجهون الضربات القوية لأى حركة مناوئة لحكمهم ، خاصة فى إقليم ريمه ،
 وصاب ، ويافع ، والحجرية ، وهناك ملا حظلة هامة وهى بالرغم من أننا

(١) أحمد حسين شرف الدين - اليمن عبر التاريخ ص ٢٦٤

أطلقنا على هذه الفترة فترة استقرار للحكم العثماني ، الا أن هذه الفترة لم تهدأ فيها الأحوال نهائيا ، نظرا لطبيعة اليمن الجبلية التي كانت طجأ حصينا بالنسبة لليمنيين في أثناء الوقوف في وجه العثمانيين ، بالإضافة إلى مرونة المذهب الزيدي ، وانتشاره في المنطقة الشمالية ، فلاغربة أن يعلن الإمام القاسم إمامته بعد نفى أبناء المطهر والإمام الحسن بسنوات قليلة ، وان يقود اليمنيين ضد الحكم العثماني ، فكان فترة الاستقرار هذه كانت ارهاصا لظهور دعوة الإمام القاسم بن محمد ، الذي نجح في وضع أساس دولة قوية ، بفضل ما تميزت به شخصيته من مميزات ، جعلت له القدرة على إقامة هذه الدولة الرسيّة الزيدية ، فقد كان شديد العزيمة قوى الارادة ، صبورا على المكاره ، قائما بالعظائم ، وليس أدل على ذلك ما تحمله من الأذى والمشاق في سبيل نشر دعوته ، لأن ذلك لم يكن بالأمر السهل ، كما أوضحنا من قبل ، وقد رأينا كم من العقبات والانتكاسات صادفته ، فكان ينتقل من مكان الى آخر يتلمس الأعوان والأنصار ، وكان العثمانيون يضيقون عليه الخناق ليستسلم دون جدوى ، كما أن سنان باشا عرض عليه بعض البلاد ليحكمها مع كفايته هو وأولاده ، لكي يكف عن دعوته ، فلم يرغب الإمام بذلك لأن هدفه كما قال هو لم يكن امتلاك الأراضي أو الحكم ، كما أن القبائل كثيرا ما كانت ترفض اقامته ليسيها خوفا من بطش العثمانيين ، وكان الإمام يتقبل هذه الأمور بتجلد وصبر ، ويدعو الله محتسبا به ، ومثال ذلك حين دب الرعب في قلوب القبائل بعد أسر ولده الحسن في بلاد عُذر وظُلمية والأهنوم وبلاد صعدة ، وفي هذا يروى لنا السيد عبد الله العرياني ما يدل على ذلك في قوله : " كنا مع الإمام في نواحي حُور ، فأتخذ الإمام موضعا خاليا . . وتوارى الإمام في بعض

الشعاب ثم كشف رأسه ودعا الله سبحانه بدعاء ، وكما بكاء كثيرا حتى سمعه
الفقيه ” (١)

وهناك الأمثلة العديدة الأخرى التى تدل على تحمله للمشاق ، فقد
ضاع من الامام نعاله أثناء خروجه من شهارة سنة ١٠٠٩ هـ متخفيا من
العثمانيين ، فكان يربط بعض ثيابه على أقدامه ليتابع سيره فى هذه
المناطق الجبلية الوعرة إلى برط ، هذا بالإضافة إلى إيمانه الشديد بالله
الذى تميزت به شخصيته ، وذلك يرجع إلى النشأة الدينية التى نشأها ، ويظهر
ذلك جليا فى خطابه التى يرسلها للناس كافة أو إلى أولاده وولاته فى
البلاد ، فكثيرا ما كان يبدؤها بآيات قرآنية مطابقة للفرع من هذه
الخطابات فمن كتبه لأهل وادعة حاثا على الجهاد بقوله ” يا أيها الذين
ءامنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله ،
وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون (٢)

ومن كتبه لأصحابه ” اذا عزمتم فتواكلوا على الله وابقوه ، وحافظوا على
الصلوة ، ولا ترضوا منكرا ينصركم الله ، وتواضعوا لله ، وتيقنوا أن ليس النصر
الا من عند الله ” (٣) كما يظهر تمسكه بالدين وإيمانه بالله فى توجيه أبنائه

(١) الشرفى - اللآلىء المضيئة ص ٢٢٤

(٢) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٩ - القرآن الكريم صورة الصف آية : ٩

(٣) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٧

فقد أوصى ولده محمدا (المؤيد) بقوله " إني أوصيك أن لا تترك القرآن يوما واحدا ، ولو في كل يوم جزئين ، أو جزءا واحدا ، ولا تترك ذلك أبدا ، عليك بصلاة الجماعة ، فانها من الواجبات ، ولا يغرك قول من يقول أنها سنة ، عليك بملازمة العلم وطلبه فانه من أكبر الفرائض . . " (١)

وهناك العبارات التي كثيرا ما ردها الإمام تعبيرا عن شدة إيمانه بالله ، فعندما سجن ابنه الحسن قال " أنا قد أودعت ولدى الله سبحانه وتعالى ، وهو لم يخيب لديه الودائع . . " (٢) واني أترك ولدى وديعة لله سبحانه وتعالى حتى يفرج الله عليه " (٢) وذلك لأن العثمانيين منعوا إطلاقه من السجن ورضوا باخراج سائر المسجونين في صلح سنة ١٠٢٨ هـ ، كما أشير لذلك في الفصول السابقة ، كذلك كان الإمام اذا هزم أو تعرض لأذى العثمانيين ينسب ذلك الى تقصيره في حق الله فقد قال لأصحابه أثناء هروب الكورة الثالثة مع جعفر باشا " أترون هذه الشدائد ، انما آتتنا من قبل تقصيرنا في حق الله ، فهلما نستغفر الله العظيم " (٣) كما أن الامام كان كثير التفاوض قليل التشاؤم ، فقد تفاؤل بالشيخ عبد الله بن مسعود - أحد مشايخ قارة - وكان أول المبايعين لدعوته ، ان كان وسيم الوجه وافر اللحية ، كما أنه استبشر بالفرس الذي أهداها له الشيخ أبو زيد - شيخ بني سنحان وأول من ناصر دعوته - ان سأل الإمام عن اسم الفرس ف قيل له اسمها الفتح فتيمن بها ،

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة - ص ١٤٢

(٢) الشرفى - اللالكى المضيئة ص ٢٨٣

(٣) الجرموزى - النبذة المشيرة - ص ٢١٥

وقد سمع الفقيه عماد الدين يحيى بن محمد يقرأ أثناء حصار شهارة سنة ١٠٠٩ هـ قوله تعالى : " يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا " وكان الإمام مفكراً في أمره فتقابل بذلك وخرج إلى برط ، وفي أحد الأيام سمع صوت طائر قبيح المنظر فتشائم قائلاً " معنا في هذه الليلة غدر " (١) .

وبالإضافة إلى هذه الصفات المميزة لشخصية الإمام ، فإنه كان محارباً وسياسياً محنكاً ، فكان يستطيع أن يحمل البندقية ويقاتل بها ، وهذا شيء عظيم بالنسبة لذلك الوقت الذي نحن بصدده الحديث عنه ، لأن استعمال البنادق كان شيئاً حديثاً بالنسبة لليمنيين ، وكان استعمالها مقصوراً على أرباب الدولة العثمانية فقط ، كما تظهر قدرته الحربية كذلك في مهاجمة قوات العثمانيين ومناوشته دون التصادم معها ، وهو ما يعرف حالياً بحرب العصابات التي تعتمد أساساً على الكر والفر السريع وعلى عدم الصدام الجماعي بالجيش النظامية ، بل تعتمد على الجهود الفردية ، وتكبيد العدو أكبر قدر ممكن من الخسائر ، وقد استغل هذه الطريقة لمعرفة أصحابه بطبيعة أقاليمهم ، وعلى خفة حركتهم ، ومرونتهم التي تمكنهم من الاختفاء السريع بعد الحاق الضرر بعدوهم ، فكان الإمام كثيراً ما يلجأ إلى جبال حصينة ، مثل جبل شهارة ، وجبل برط ، التي يصعب على العثمانيين نقل عددهم الثقيلة إليها ، كما يصعب على خيولهم صعود هذه الجبال مما كان له أكبر الأثر في نجاح حروبه

ضد العثمانيين ، كما تظهر هنكته السياسية حين هرب ابراهيم بن المعافا بمعاونة بعض رجال شهارة المعادين للإمام ، أثناء تسلّم الإمام شهارة سنة ١٠١٥ هـ وكان الإمام قد احتجزه ليخرج به ولده محمد من أسر كوكبان ، فتظاهر الإمام أن هذا الرجل هرب بنفسه من غير عمل أحد ، وتظاهر بالتفتيش عنه ، رغم معرفته بمكانه ، وذلك لكي لا يشير الفتن والقتل في شهارة ، بعد أن تسلمها ولكي يتمكن من القبض على بن المعافا وتحقيق غرضه منه ، ومن حسن سياسته أيضا تعظيمه لعبد الرحيم بن عبد الرحمن رغم معرفته التامة بخداعه ، وشراسة أخلاقه ، وانما كان غرضه من تعظيمه أمام السامعين أن تخلص مولا تهم للإمام ، وأن يكسب عبد الرحيم وهو أحد أمراء آل شرف الدين إلى جانبه وهم يمثلون الجبهة الثانية في حرب دعوته لأن العثمانيين استخذوا أمراء آل شرف الدين لمحاربة الإمام ، فكان يرى الإمام في كسب عبد الرحيم إلى جانبه قوة معنوية ليتقوى بها ، خاصة وأن نفوذ عبد الرحيم اتسع وتقوى أثناء بدء دعوة الإمام وتحقق بالفعل ما كان يرمى إليه الإمام من وراء تلك السياسة ، إذ تشجعت القبائل على الإعلان عن أنفسهم دون خوف من العثمانيين ، أو دون خوف من عبد الرحيم نفسه الذي كان يشتهر بالغلظة والشدّة .

كما اشتهر الإمام القاسم بقدرته على جذب القبائل إليه متخذًا الجانب الديني واتصال نسبه بالرسول صلى الله عليه وسلم لتقريب هذه القبائل إليه ، وذلك نظرا لتعلق الجبليين بالسلوك الديني وفقا لطبيعة هذا العصر ، كذلك استخدم المال في تقريب بعض القبائل إليه ، كما أن الإمام قد عبر بمهارة

عن تذمر اليمنيين من سياسة العثمانيين وأخطائهم الفردية أو الجماعية ، فكان يحرض الأهالي على القتال بتذكيرهم بما ارتكبه العثمانيون من أخطاء ومظالم ، وكانت كتبه إلى القبائل المختلفة تمتلئ بمثل هذه الاشارات ، فقد وجد الإمام القاسم في أخطاء العثمانيين ومفاسدهم مادة غزيرة لتقوية مركزه وإلى حض اليمنيين على التخلص من حكم العثمانيين وإلى اخراجهم من بلادهم ،

وقد لجأ الإمام القاسم أحيانا إلى ادعاء الكرامات مستغلا في ذلك جهل العامة في تفسير الظواهر الطبيعية ، ونرى في المخطوطات التي تعرضنا لها الكثير من هذه الكرامات مثل ربط خسوف القمر أو خسوف الشمس بحادثة لها أثر عظيم في الدولة ، وقد أبرز أحد الخطابات لأصحابه مدعى أنه من علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) فيه ذكر قيام إمام في ذلك الوقت ، وقد أظهر هذا الخطاب عندما وجد أن بعض أصحابه قد انفضوا من حوله .

وكان الإمام القاسم كثيرا ما يلجأ إلى رفع الروح المعنوية لدى أتباعه باشعال النيران فوق قمم الجبال في الليل لاعلان انتصاره وارهاب العثمانيين ، ان كانت العادة المتبعة لدى اليمنيين اذا وقع حرب بين قبيلتين ، فان القبيلة المنتصرة تشعل النيران فوق قمة جبلها لإعلان فرحها وسرورها بالنصر الذي حققته على القبيلة الأخرى ، وقد فعل ذلك الإمام القاسم عندما تمكن من الخروج من شهارة إلى بوط سنة ١٠٠٩ هـ ، كما تحلى الإمام القاسم بصفة الشفقة والرحمة ، فكان يتفقد المساكين من حين إلى آخر كما شطت رأفته الحيوانات فقد قال لأحد أصحابه عندما دخل شهارة في سنة ١٠١٥ هـ " يا قوم

ها هنا بقية هرر من سناجيب العجم قد بلغت من الجوع ، ولا تأكل العنب
تأذنوا بتفريق هذه لها (يعنى قطع من اللحم) ” (١) .

هذه أبرز السمات الشخصية التى تميز بها الإمام القاسم ومكنته من
وضع أسس الدولة القاسمية التى استمر نموها فى عهد أبنائه من بعده ، ان
استطاعوا فى عهد ولده الإمام المؤيد اخراج العثمانيين سنة ١٠٤٥ هـ = ١٦٣٥ م
ان كانت أسس هذه الدولة قائمة على تعالم الدين الاسلامى الحنيف والسنة
النبوية الشريفة ، فقد اقام الإمام الحدود على السارق والزانى وشارب الخمر
وغيرهم ، وقضى على البدع والخرافات التى انتشرت فى اليمن ، وطلب من الأهالى
التمسك بأهداب الدين ومحاربة العادات المنتشرة بينهم ، فقد أمر بقطع
شجرة كان الأهالى يتقربون إليها بالذبايح والقربان ، (٢) كما كان يمنع
الناس من اقامة القباب على الأضرحة ، لأن ذلك من البدع التى ابتدئها
الأهالى لتعظيم الموتى ، وكان اذا فتح بلدة أراق ما بها من أدنان الخمر ،
ففى أثناء حصار شهارة سنة ١٠١٥ هـ ودخوله إليها ” وجد الخمر باقية
فأمرهم الإمام براققتها ” (٣) وقد نشر العدل بسين الناس وحرى على اقامة
الجماعة ، وكان يشاور أصحابه فى جميع الأمور فى الحرب والسلم ، ويأمر بالمعروف
وينهى عن المنكر ، وينصف المظلوم من الظالم ، ويرعى الفقير والغنى على السواء
ولا يأخذ من الرعية الا ما يوافق هواهم من الخراج ، كلا على حسب قدرته ،

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٢٢

(٢) نفس المرجع ص ١٧٠

(٣) نفس المرجع ص ١٦٥

بهذه الدعائم بنى الإمام قواعد دولته التى استطاعت أن تستمر ويقوى ساعدها فى عهد ابنه المؤيد الذى تسلم الحكم من بعده عن طريق الاختيار وليس بالنص، لأن التوريث ليس من مذهب الزيدية ، وانما اشترطوا أن يخرج الإمام داعياً ، وذلك يدل على خلو اليمن من إمام قوى ينافس المؤيد ، والآن انضم إليه البعض دون البعض وحدثت الفتنة فى اليمن ، لكن تميز أول حكم المؤيد بالاستقرار والهدوء بفضل الصلح الذى عقد بين الإمام القاسم ومحمد باشا سنة ١٠٢٨ هـ ، واستمر فى عهد ولده محمد من بعده ، فأخذ الإمام المؤيد يقوى قبضته فى داخل ممتلكاته حتى يثبت دعائم حكمه ، ومن ثم يبدأ خطواته التالية لـخـراج العثمانيين من اليمن بمعاونة أخواته أحمد والحسن والحسين ، واستطاع أن يستولى على الأقاليم الشمالية جميعها سنة ١٠٣٦ هـ بعد نقض صلح سنة ١٠٢٨ هـ كما سبقت الإشارة الى ذلك ، ولم يبق فى أيدي العثمانيين الا حصناً عمراً ن وثلاً ، كما لم يبق فى أيدي حلفائهم آل شمس الدين بن الإمام شرف الدين غير حصنى كوكبان والطويلة^(١) ، حتى هذه الحصون الباقية لم تمكث طويلاً ، ان تساقطت هى وغيرها من الحصون الأقل أهمية فى أيدي قوات الإمام المؤيد ، وكان الأمير عبد الرب بن على بن شمس الدين أمير كوكبان هو ركيزة العثمانيين الوحيدة الباقية من أسرة الامام شرف الدين الذى ظل متعاوناً مع حيدر باشا ضد اتباع الإمام المؤيد حتى اضطر أخيراً إلى التسليم فى ٢٥ رجب سنة ١٠٢٦ هـ = ١٦٢٧ م فأبقاه الإمام المؤيد فى حصنه فى كوكبان وأمن حياته^(٢) ،

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٣ ص ٣٤٤
 (٢) تاريخ دولة الترك - ص ٣٩ (المؤلف مجهول)

وأصبح حينئذ هو وأسرته من أكبر أعوان الإمام وحاربوا إلى جانبه ، وبعد ذلك أخذت الأقاليم اليمنية المختلفة تخلع طاعتها للعثمانيين ، وتعلن انضمامها إلى الإمام المؤيد ، ودان أشراف صبيا وجيزان والجوف للإمام بعد مناوشة بينهم وخضعوا له مقابل ابقائهم في مراكزهم ^(١) ، ومن ثم أصبح هؤلاء الأشراف وخاصة أمير الجوف من أهم أعوان الإمام المؤيد إذ استطاع أن يستولى على تعمر بمعاونة الحسن بن الإمام القاسم ، لما لجأ أمير زمار ^(٢) (التركي) إلى الحسن ابن الإمام القاسم لاختلافه مع حيدر باشا ، فأبقاه الحسن في ولايته واستعان به في قيادة بعض قواته ^(٣) ، ثم اتجه الحسن بن القاسم إلى تشديد الحصار على صنعاء سنة ١٠٣٦ هـ ، حتى أن حيدر باشا طلب الصلح على أن يغادر صنعاء سالماً بجنوده وعتاده إلى جنوب اليمن ، ولكن هذا الصلح لم يتم ، وأصر الحسن على خروج حيدر باشا من صنعاء بدون قيد أو شرط ، وطال الحصار على صنعاء لمدة عامين كاملين ، حتى اضطر حيدر باشا أخيراً للاستسلام لقوات الإمام المؤيد ، وسلم لها المدينة بعد أن اشترط أن يخرج منها سالماً إلى زبيد ، وكان ذلك في أول رجب سنة ١٠٣٨ هـ = ١٦٢٩ م ^(٤) ، وبعد سقوط صنعاء اتجه الحسن والأ مير عبد الرب بن شمس الدين لاختضاع المنطقة الجنوبية حتى عدن فيسقط يده على تعمر ، ثم سارع أمير عدن إلى اندخول في طاعة الإمام المؤيد ^(٥).

(١) العقيلي - من تاريخ المخلاف السليماني ، القسم الثاني من الجزء الأول ص ٣٣٥

(٢) زمار جنوب صنعاء

(٣) الكبسى - اللطائف السننية ص ١٠٤

(٤) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٣ ص ٣٨٣

(٥) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٦٥

وهكذا تم للإمام المؤيد في خلال عامين فقط من مسيرته سيطرته إلى أقاليم اليمن المختلفة بما في ذلك صنعاء ، وتعز ولم يبق في يد العثمانيين سوى زبيد والآخرين قالسيم التهامية المحيطة بها مما أثار ذلك الرغبة في قلوب العثمانيين ، فأرسل وإلى مصر وإلى وإلى الحبشة بالتوجه إلى اليمن لنجدة العثمانيين به ، فوصل عابدين باشا إلى ميناء المخا على رأس ألف جندي سنة ١٠٣٧ هـ = ١٦٢٢ م^(١) . ولكن عابدين باشا فشل في انقاذ موقوف العثمانيين في اليمن ، فقد ظل في ميناء المخا حتى تقدم الحسن بن القاسم إليه وحاصره به فكان ذلك سببا في تقوية الروح المعنوية لقوات الإمام المؤيد ، فما كان من ولاية مصر إلا أن أرسلوا قانصوة باشا لاستعادة أملاك العثمانيين هناك ، رغم ما كانت تعانيه الدولة في ذاك الوقت من ضعف عام وخلخلة نظمها ، وقد بذل قانصوة باشا جهودا من أجل استرجاع أملاك العثمانيين ولكن هذه الجهود منيت بالفشل ، وركز قانصوة باشا جهوده في تهامة فقط ، نظرا للاستعدادات الضخمة التي أعدها الإمام المؤيد تحت قيادة أخويه الحسن والحسين ، حين علم بضخامة قوات قانصوة باشا ، وتعهد الأخير النزول عند أبي عريش في أقصى شمال الساحل اليمني لاشاعة الخوف بين اليمنيين ولا سترجاء شمال تهامة من الإمام المؤيد وذلك سنة ١٠٣٩ هـ = ١٦٢٩ م ، وقد نجح قانصوة باشا بعض الشيء في مد السيطرة العثمانية في أقاليم تهامة ، بعد

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٦٥

أن تخلص من عابدين باشا ، لكن قانصوة باشا فشل فى احراز نجاح بعد ذلك ، فقد دارت جهوده الحربية فى داخل دائرة ضيقة محدودة ، يمتد قطرها بين زينيد والمخا فقط ، وذلك بعد أن فشل فى التقدم إلى تعز حيث لقيت جنوده هزيمة فى آخر رمضان سنة ١٠٣٩ هـ = ١٦٣٠ م وهرب قائد الجيش مذعورا قبل بدء القتال ^(١) ، مما اضطر قانصوة باشا لطلب الصلح لمدة سنة من المؤيد ، وتم ذلك سنة ١٠٤٠ هـ = ١٦٣١ م .

وقد رأى المؤيد وأخوته برأيهم الصائب ، أن فى عقد الصلح فرصة لتثبيت أركان حكمهم ، ولتنظيم شئون البلاد للاستعداد لتوجيه الضربة الأخيرة للعثمانيين ، فقد قام الحسن بتفقد البلاد ، واصلاح الحصون والقلاع ، وتوفير ما يلزم من السلاح والعتاد لجميع الجيوش فى الأقاليم المختلفة ^(٢) ، ثم قضى الحسن على الاضطرابات حول عدن حتى لا ينتهز العثمانيين الفرصة لاسترجاعها ^(٣) هذا فى الوقت الذى كانت قوات العثمانيين تتمزق من الاضطرابات ومن قلقة الأموال .

ثم تجددت الحرب ثانية سنة ١٠٤٣ هـ ، ولم يحرز قانصوة باشا أى انتصار

(١) تاريخ دولة الترك - ص ٥٦ ، ٥٧ (المؤلف مجهول)

(٢) نفس المرجع ص ٥٨

(٣) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٦٨

يذكر في تلك الحروب التي تركزت حول زبيد والمخا أمام قوات الحسن بن القاسم ،
بالإضافة إلى التفاف أهالي المنطقة الجنوبية حول الحسن وانضمامهم إلى
جيوشه ،^(١) مما اضطر قانصوة باشا لطلب الصلح مرة ثانية لمدة سنة ، فوافق
الموئيد بالرغم من معارضة أخيه الحسن ، فعقد الصلح في ٢٠ محرم سنة
١٠٤٥ هـ = ١٦٣٥ م^(٢) ، إلا أنه بعد عقد الصلح بشهر تحايل قانصوة باشا
حتى هرب من زبيد ولجأ إلى معسكر الحسن بن القاسم وسلم نفسه له لضعف
شأنه وموقفه ، ولا زدياد تمرد الجند وتعددهم عليه ، وقد أكرم الحسن وفادة
قانصوة باشا حتى غادر اليمن بحرا إلى مصر ،^(٣) فجاهر بعض الجنود بالذهاب
إلى معسكر الحسن بن القاسم أو إلى خارج اليمن ، وبإيعاب البعض الأخير
الأمير مصطفى الكتخدا واليا عليهم لمواصلة الدفاع عن أنفسهم ، غير أن الأخير
لم يمكث طويلا ، بل طلب الصلح مع الحسن على شرط مغادرة اليمن هو
وجنوده سالمين ، فتم خروج العثمانيين في العشر الأوائل من شهر جمادى الأولى
سنة ١٠٤٥ هـ = ١٦٣٥ م^(٤) .

وهكذا تم إجلاء العثمانيين في هذا الوقت ، فأصبح اليمن أول ولاية عربية
تنفصل عن السيادة العثمانية ، التي امتدت إلى كافة أجزاء الوطن العربي
ماعدا المغرب الأقصى ، خلال النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي ،

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٣ ص ٣٢٣

(٢) تاريخ دولة الترك - ص ٦٢ (المؤلف مجهول)

(٣) نفس المرجع ص ٦٤

(٤) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٣ ص ٣٩٣

وقد ظل حكم الأئمة الزيديين من أبناء القاسم بن محمد ما يزيد عن المائتي عام حتى عاد العثمانيون ثانية إليه سنة ١٨٧٢م ، وكان خروج العثمانيين من اليمن بهذه الطريقة على أيدي أبناء الإمام القاسم يرجع إلى حسن توعية الإمام لأبنائه وتنشئتهم نشأة صالحة مبنية على تعاليم الدين الحنيف وعلى التعاون ووحدانية الصف ، وعلى حسن تدريبهم تدريباً عسكرياً صارماً ، فقد كان يشركهم معه في جميع المعارك منذ نعومة أظافرهم ، إذ خرج الحسن إلى ساحة القتال وهو في سن الخامسة عشرة من عمره عندما خرج إلى بني جبر في أيام استقرار الإمام في وادعة سنة ١٠١٣هـ = ١٦٠٤م وكذلك أخيه محمد الذي تعرض لأشد الأزمات أثناء حصار شهارة سنة ١٠٠٩هـ = ١٦٠٠م ولم يرضى بخروجه رغم أن أصحاب والده جاءوا لاستخراجه هو وأخوانه ، وذلك حرصاً على أرواح أهل شهارة حيث قال " لقد وهبت نفسي لله سبحانه ، ولمن في شهارة المحروسة بالله مع المسلمين ، والعلماء ، والمستضعفين ، وأن الإمام للم يأمرني بذلك ، وفي بقائي سلامة لمن في شهارة " (١) ، هذه الكلمة يظهر أثر التربية الصحيحة ، وحرص الولد على تنفيذ أوامر والده الذي هو بمثابة قائده العسكري ، ولو كان ذلك على حسب عواطفه ونفسه ، وتظهر كذلك آثار تلك التربية الصالحة في الخطابات التي كان يوجهها الإمام لأولاده في المناطق التي كان يعهد إليهم بإدارتها ، فقد أرسل لابنه أحمد حين ولاه أعمال صعدة في النهضة الرابعة في شهر رجب من سنة ١٠٢٧هـ = ١٦١٧م بقوله :

” استخرت الله سبحانه وتعالى ، وجعلت للسولد صفى الدين أحمد ولاية صعدة وبلادها . . وما ولاها من البلاد تقيم فيها الجمعات ، وتقضى الحقوق والواجبات ، وتقيم الشريعة المحمدية ، وتقسم فى الناس بالسوية ، وتنصف المظلوم من الظالم ، وتؤدب أهل الحرام ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتوفير الحقوق ، وجعلها حيث تأمر به والأمثال لما قلنا والا استفهام لنا فيما التبس عليه من الأمور . . وعلى ازالة البدع والمنكرات ، وعليه العمل بتقوى الله ، والتواضع ، وتقريب أهل الفضل ، والحث على طلب العلم ، وافتقاد المساجد ، والمصالح والطرق ، واقامة الشريعة وتنفيذها ، وتعهدا ، وابطال الأحكام الخارجة عن الشريعة ” (١)

هذه كلها وصايا ثمينة متضمنة أحكام الشريعة ، حيث أنه لم يترك جانباً الا وأوصاه به ، حتى طلب العلم ، واصلاح المساجد والطرق بما فيهم الصالح العام والخاص ، وهكذا الحال مع أولاد جميعا ، ومن وصايا الامام لابنه :

” يا بنى اتقوا الله بكممكم الله ، وصلوا أرحامكم يطول الله أعماركم وبارك فى أموالكم ، وأمروا بالمعروف وانهاوا عن المنكر . . اياكم وداء الناس ، فان تبعاتها فى الدارين عظيمة ، واصلحوا المال ، واكرموا الضيف بما تجدون ،

ويكن لكم عن طلب العلم مانع يستغرق أوقاتكم ، ولكن قسموا أوقاتكم واجعلوها خيرا وأكثرها في طلب العلم الا ما كان لا بد منه في اصلاح حالكم ” (١) .

فكان لهذه التربية الحكيمة أثر عظيم في تعليمهم الحنكة في معاملة القادة السياسيين ، مثلما فعل محمد بن القاسم مع محمد باشا بعد وفاة والده لاستمرار الصلح ، لأن في ذلك فرصة لاستقرار حكمه ، خاصة وهو في بدء حكمه اليمن ، وتوثيقا للصلات بينهما أهدى محمد المؤيد إلى الباشا كتاب الكشف ، كما تعلموا من والدهم طريقة التخفي في الخروج من بلد الى آخر ، وفي ارسال الخطابات بأسماء تعطى المعنى دون التعرف عليهم وذلك لحماية أنفسهم ، وهي كطريقة الشجرة المعروفة حديثا في ارسال الخطابات السرية ، فقد أرسل الامام يطمئن على ولده الحسن عندما أسرف في الدار الحمر أحد رسله متخفيا فـى زى (قهوجى) حيث وضع فى اناء القهوة ورقة لمعرفة أحوال الحسن ، فقرأ الحسن الورقة ورد عليها بتوقيع موسى بن على قائلا ” ان لكل فرعون موسى ، فأنا موسى الترك وابن على يريد جده عليا رضى الله عنه ” (٢) .

بهذه الوصايا وهذه التربية التى ربى الامام عليها أولاده استطاعوا أن يقيموا صرح دولتهم القاسمية وأن تنمو قوة الامامة الزيدية التى استطاعت أن تفرض وجودها فى اليمن كله بعد خروج العثمانيين منه سنة ١٠٤٠ هـ = ١٦٣٥ م ،

(١) الشرفى - اللالىء المضيق ص ٢٦٦

(٢) الجر موزى - النبذة المشيرة ص ٢٨٢

وقد اتسعت رقعة الدولة في عهدهم ، خاصة في عهد المتوكل على الله اسماعيل ، ان امتدت حدود الدولة حتى عمان وفي سنة ١٦٤٤ امتد نفوذها حتى شملت لحج وعدن وحضرموت والشحر ، فكان أول إمام يشمل نفوذه اليمن بأسره ، وكان عهده أزهى عهد الإمامة الزيدية في اليمن ، فقد كثرت في عهده الخيرات وازداد عدد العلماء والمتعلمين ^(١) ، وذلك لأنه تسلم مقاليد الحكم بعد أخيه المؤيد الذي سلمه إياه وقد استقرت دعائم الدولة ، فحكم الإمام المتوكل اسماعيل لمدة ٣٣ عاما لم يحدث خلالها أى اضطرابات ، وكانت تصرفاته يغلب عليها العدل والسخاء والحكمة والدهاء والبراعة في الإدارة ، وحسن اختيار الولاة وقواد الجيوش وحماة الأطراف وسن الأنظمة ، ومع هذا فقد كان أستاذا في فنون العلم ، كرس أوقاته اليومية وقصرها على أمور ثلاثة : إدارة شئون البلاد ، وتدريس العلم لتلاميذه الذين يفدون إليه من الآفاق حتى أصبح معظم علماء عصره من خريجي مدرسته ، بالإضافة إلى العبادة والذكر ، كما اتصف الحسن بن القاسم أكبر أبناء الإمام بالشجاعة والاقدام وله الفضل في انتصار جيوش المؤيد في معاركه مع العثمانيين ، وقيل عنه " انه نظير المطهر بن شرف الدين أو أرفع منه في الشجاعة والرياسة " ^(٢) .

(١) جاد طه - السياسة البريطانية في اليمن ص ٢٩ ،
العرشي - بلوغ المرام ص ٦٧

(٢) أحمد حسين شرف الدين - تاريخ اليمن الثقافي ج ٤ ص ٢٥٢

وقد أقامت الدولة علاقات ودية مع الدول المجاورة لها ، مثل بملاد الحبشة ، فقد أرسل الامبراطور فاسيلاداس Fasiladas امبراطور الحبشة بعد قطع علاقته مع أوروبا ، وبعد أن أخذ يتلمس طريقا للاتصال بالمسلمين ليقم معهم علاقات سياسية وتجارية ، فأرسل للإمام المؤيد سنة ١٠٥١هـ = ١٦٤١م وفدا محملا بالهدايا الثمينة ليعقد معه معاهدة ودية تسمح للحبشة باستعمال موانئ اليمن بعيدا عن الموانئ التي تقع تحت السيطرة العثمانية ، وقد أعاد الامبراطور الكرة مرة ثانية في عهد الامام المتوكل على الله اسماعيل سنة ١٠٥٧هـ = ١٦٤٧م ^(١) ، ولكن لم تذكر المصادر هل تمت هذه المعاهدة أم لا . . . ؟

هذا وقد ظهرت نهضة علمية في عهد الدولة القاسمية كان بد * مظاهرها في عهد الإمام القاسم بن محمد ، وحمل لواءها من بعده أولاده الذين أكثروا التأليف ، اذ كان الإمام القاسم كثير التأليف حتى في أثناء خوض المعارك مع العثمانيين ، ففي أثناء اختفائه في بئر ط ألفت كتابه (الأساس) في أصول الدين في مجلد ضخيم ، وقد قال في آخر مقدمته هذه الأبيات :

هذا الأساس كرامة فتلقيه يا صاحبي بكرامة الأنصاف
وأحرز نفيسا من نفائس نشره جمعت بغوصي في خضم صافى ^(٢)

(١) الحبيد - مقالة سفارة الامام المتوكل الى الحبشة (مجلة كلية الشريعة

والدراسات الاسلامية) ص ٣٠

(٢) أحمد حسين شرف الدين - تاريخ اليمن الثقافي ج ٤ ص ٢٧٠

وقد تعرض لشرح هذا الكتاب جماعة ، واعتزى على بعض ما فيه آخرون منهم الكردى المكى بكتاب سماه (النيراس) وأجاب العبدى على اعتراض الكردى بكتاب سماه (الاحتراس)^(١) ، فكأنه أوجد بكتابه هذا حركة فكرية ، وكان كتاب الأساس مرجع أهل اليمن من الزيدية فى أصول الدين ، كما ألف كتابا آخر فى النحو سماه (التحفة) ، وله كتاب (الارشاد فى معرفة أعمال العباد عند فقه الاجتهاد) ، وبعد ما استقر الإمام فى شهرة ألف كتاب (الاعتصام) فى الفقه ، جمع فيه بين كتب أئمة آل البيت وكتب المحدثين من الأمهات ، ثم رجع كل مسألة بما يقتضيه اجتهاده ، ولكنه توفى قبل اكمال هذا الكتاب ، فلم يبلغ فيه الا إلى كتاب الصيام ، وقد أكمله بعده حتى كتاب الحج السيد أحمد بن يوسف بن الحسين بن أحمد زباره المتوفى سنة ١٢٥٢ هـ ، وقد سلك فى تتمته سلك الإمام القاسم بن محمد ، فجاء كتابا نفيسا سماه (أنوار التمام المشرقة بضوء الاعتصام) فى مجلد ضخيم ، وقد بلغ من أهمية الاعتصام والأساس أنهما أصبحا من أهم مصادر الفقه والأصول حديثا ، وله كتاب (التحذير من المعاونة على الفتنة) الذى رد فيه على العلماء الذين أصدروا فتوى بجواز مدارة الظلمة ، وله كتاب (الجواب المختار على مسائل عبد الجبار)^(٢) ، وقد بسرع الإمام القاسم كذلك فى انشاء القصائد الشعرية ، فله قصيدته المشهورة فى انكار الصوفية وأعمالهم القبيحة وسماها الكامل المتدارك فى بيان مذهب المتصوف الهالك ، التى قال فيها :

(١) الشوكانى - البدر الطالع ج ٢ ص ٤٧ ، ٤٨

(٢) نفس المرجع ج ٢ ص ٤٨

(٣) الجرهموزى - النبذة المشيرة ص ٤٦

معاول الأقوام ثمت أحدثوا بدعا تخالف آل أحمد عن بد
وبرا المسجد لا يقوم بركعة إلا لشخص قاعد متمهد
يارب والحقني غد لمسرتني ان كان أغراق الزنادق في غد

ولما ظهرت هذه القصيدة شكا الصوفية إلى سنان باشا ، فأمر الأخير
الشريف محمد بن عبد الله بن الامام شرف الدين ، أن يجيب الإمام القاسم عليها ،
فرد الامام قصيدة أخرى سماها (حتف أنف الافك) قائلا :

الحق أبليج واضح للمهتدي يهتدي إلى سنن السبيل الأقصـــــد
والدين قد وضحت معالمه وضوح الشمس لا يخفى على المسترشد

ومن هذه القصائد والرد عليها نستنتج بأن هناك انتعاش في حركة
التأليف في عهد الإمام القاسم ، وبالإضافة إلى تلك القصائد ، هناك الكثير من
الشعار في مناسبات مختلفة منها :

يضيع حق الآله في الناس أجمعا تضعع دين الله حتى بصنعا
وأضحى كتاب الله فيهم مهجرا وبدله الفارون شعر مزرعا
وسنة خير الرسل في الناس أهملت واضحت صنوف اللهو مشيعا

ومما قاله في إحدى مرات اختفائه :

الا يا الهى أنى خاضع وانى فى الاحسان منك لطامع
وأنتك رحمن رحيم وواهب لخلقك الا فضلك جامع (١)

وفي أثناء تخوفه من العثمانيين وهو في برط قال قصيدته المشهورة باسم
استفتاح الفرج وبدأ بقوله :

يا حي يا قيوم يا غوث الـذي يشكو إليك من الذي قد حـار
(١) يا من يجبر بفضله مستضعفا مستصرخا متضرعا لك حـار

كما أن له نظم في المواعظ والعلوم والزجر والتهديد فمن ذلك قوله :
يا ذا المريد لنفسه تثبتا ولد يـنه عند الاله ثبوتا
اسلك طريقة آل احمد واسألن سفن النجا يسألوا يا قوتا

ومن قصائده إلى السيد عبد الله بن علي المؤيدى الذى دعا إلى نفسه
ورام معارضة الإمام بقوله :

ان كنت تبغى هدم دين محمد فانا المريد أقيمه بدعائـم
(٢) أو كنت تخبط فى غيابه باطل فانا المزيل ظلامها بعزائـم

وله قصائد متعددة فى الرثاء ، فقد رثى عمه عامر عندما قتله العثمانيون
وكذلك ابنه على عندما قتل فى موقعة " الشقاب " التى مر ذكرها .

وبذلك نرى أن الامام القاسم قد حمل لواء النهضة العلمية فى عصره وأكملها
أولاده من بعده ، فقد أخذ أبناء الامام القاسم العلم عن والدهم ، وعن كبار

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٢١

(٢) الشوكانى - البدر الطالع ج ٢ ص ٥٠

علماء الزيدية مثل الشيخ لطف الله بن محمد الغياث وغيره من العلماء ، ففى أثناء أسراؤلا لإمام محمد وأحمد فى كوكبان أحرز محمد (المؤيد) ىنابيع العلوم لأنه حبس مع أعيان العلماء فاشتغلوا بالدرس ،^(١) فلم يضيعوا الوقت هباء ، وقد نبغ أبناء الإمام القاسم فى العلوم البىانية والمنطقية والنحوية وقد اشتغلوا بالحديث والتفسير والفقه ، ولهم مؤلفات كثيرة فى هذه لمجالات ، فقد ألف الحسين بن القاسم كتاب (غاية السؤل فى علم الأصول) ذلك الكتاب المشهور الذى وصفه الشوكانى قائلا :

” هذا الكتاب أصبح مدرس الطلبة وعليه المعول فى صنعاء وجهاتها ، وهو كتاب نفيس يدل على طول باع صانعه فقد ساق فيه الأدلة سوقا حسنا ”^(٢)

وقد ألفه الحسين أثناء خوض المعارك ضد العثمانيين مع أخيه المؤيد ، وله كتاب (شرح هداية العقول) ، وكذلك ألف اسماعيل بن القاسم (العقيدة الصحيحة فى الدين النصيحة) وشرحها وكتاب (المسائل المرتضاه إلى جميع القضاة) ووضع حاشية على كتاب (المنهاج) للإمام المهدى فى أصول الفقه^(٣) وجمع أربعين حديثا تتعلق بمذهب الزيدية وشرحها ، وله رسالة فى التحسين والتقييح .

(١) الكبسى - اللطائف السنبة ص ١٢٦

(٢) الشوكانى - البدر الطالع ج ٢ ص ٢٣٩

(٣) المحبى - نفحة الريحانة ج ٣ ص ٢٤٩ ، ٢٥٠

هذه المؤلفات وغيرها أدت إلى ظهور حركة علمية زيدية ، فصلت اليمن علميا وثقافيا عن الدولة العثمانية ، ولكن لا ننكر أن لوجود العثمانيين فى اليمن أثر غير مباشر فى انتعاش حركة التأليف فى ذلك الوقت ، وذلك لاندماج اليمن فى إطار الدولة العثمانية ، مما أدى إلى سهولة اتصال اليمنيين بباقي أجزاء الدول التى تسيطر عليها الدولة العثمانية ، كما أن كثرة الحروب التى دارت بين العثمانيين والزيديين أدت من ناحية أخرى إلى قيام النزاع بين علماء وفقهاء السنة والشيعة ، وخاصة الشافعية فى تهامة اليمن ، مما أدى بالتالى إلى كثرة المؤلفات فى ذلك الوقت ، إذ كان كل من هؤلاء العلماء ينجاز إلى جانب أحد الفريقين المتنازعين ، فيعمل على الدفاع عن فريقه من ناحية ويورد على التهم التى يوجهها إليه الفريق الآخر من ناحية أخرى ، وكان العثمانيون يمنحون العلماء الذين ينحازون إليهم الهبات والعطايا ، أو يولونهم المناصب الكبيرة لأغرائهم على الوقوف إلى جانبهم ، هذه الحركة العلمية والثقافية التى ظهرت فى الدولة القاسمية أدت إلى ظهور الوعى لدى اليمنيين ومهدت الطريق أمام الإمامة الزيدية لأن تظهر قوتها على العثمانيين ، فبدأت هذه القوة فى عقد صلح معها ثم انتهت باخراجهم من اليمن سنة ١٠٤٥هـ = ١٦٣٥م .

هذه الحضارة تظهر مدلولاتها الفكرية فى أسلوب مؤلفي المخطوطات للفترة المعاصرة أى التى ظهر فيها الإمام القاسم وأولاده من بعده مثل مخطوط الجرموز النبذة المشيرة ومخطوط الشرفى : اللآلئ المضيئة ، فنرى هذه المدلولات الحضارية واضحة ، وإذا قارنا بينها وبين المراجع العربية التى رجعنا إليها فى هذا البحث ، فأننا لا نكاد نجد فروقا جوهرية من حيث الأسلوب أو منهج البحث

ولو نظرنا إلى نظم الدولة القاسمية التي وضع أسسها الإمام القاسم ،
لوجدنا أنها وصلت إلى مستوى جيد بالنسبة لمستوى العصر الذي ظهرت فيه
على الرغم من حداثة عهدهم بالحكم ، ومن ثم بدأت تنمو وتتأثر ببعض الآثار التي
أخذوها عن العثمانيين ، فبالنسبة للنظم الإدارية والحربية وغيرها من نظم
الدولة القاسمية ، فإننا نجد أن أكثر المخطوطات التي رجعنا إليها وكانت
العمود الفقري في هذا البحث لم تهتم بمثل هذه الجوانب الحضارية بصورة
واضحة ولم تهتم إلا بالناحية السياسية بشكل كبير ، ولكننا استطعنا أن
نستخلص هذه النظم على قدر الامكان ،

استعمل اليمنيون القوس والرمح والحرب في حروبهم في بادئ الأمر ،
فكانوا يرمون بها من فوق رؤوس الجبال ، كما كانوا ينحتون من الأحجار الرخام
البيض ما يشبه الرصاص ليرموا به اعداءهم ، واستخدموا الحجارة التي يلقيها بها
من فوق رؤوس الجبال ، واشتهروا باستخدام السيوف اليمنية الشهيرة ، ومن
أدوات حروبهم آلة الريح ^(١) ، والطبول والطاسة ، التي يدقون عليها عند بدء
القتال ليزيدوا من حماس المقاتلين ، ومن طرقهم في الحرب أيضا ، اشعال
النيران على رؤوس الجبال ، وهي طريقة قبلية قديمة ، وتعتبر وسيلة اعلامية

(١) لم أعر على وصف لهذه الآلة ولكنني أعتقد بأنها آلة بسيطة لمعرفة اتجاه
الريح ، ليساعدتهم ذلك على رمي رماحهم في نفس الاتجاه

تعبر عن انتصاراتهم ، ولزوع الرعب والفشل في قلوب الأعداء من جهة أخرى ، وهذه العادة القبلية استخدمت أيام الرسول صلى الله عليه وسلم في أثناء فتح مكة ، إذ رأى عدم المساس بأهل مكة واشعال النيران فوق الجبال ليدب الرعب والفشل في قلوب قريش وتم له ما أراد ، وقد استخدم نفس الطريقة الإمام القاسم في حروبه ، خاصة بعد خروجه من شهارة أثناء حصارها سنة ١٠٠٩ هـ ، فقد اشعل ثلاث منارات على رأس الجبل الأسود لعلام من فسي شهارة من أبنائه بسلامة خروجه هو وأصحابه من بين أيدي العثمانيين .^(١)

وقد وجد اليمنيون من خلال حروبهم مع العثمانيين أن تلك الآلات الحربية التي في حوزتهم غير كافية لملاقاة جيوش جرارة ، تحمل أحدث الأسلحة في ذلك الوقت ، بالرغم أن الممالك عند دخولهم اليمن ، كانوا يحملون هذه الأسلحة معهم إلا أنها كانت قليلة الأثر في اليمن ، وذلك يرجع لقصر مدة حكمهم فيه من جهة ، ثم انهم كانوا أقلية لم تتعد مناطق نفوذهم منطقة زبيد فقط فسي أغلب الأحيان ، لكن عندما احتك اليمنيون بالعثمانيين حصل اليمنيون على كثير من أسلحتهم النارية ، أثناء الحروب الطويلة التي دارت بين الطرفين ، فكانوا ينقلون هذه الأسلحة إلى حصونهم ، ومعاقلهم وخاصة تلك المدافع الكبيرة وكان حصول اليمنيون على الأسلحة واستعمالهم إياها من الأمور التي شجعتهم

(١) الجرmozى - النبذة المشيرة ص ١٣٦

على الوقوف في وجه العثمانيين ، بعد أن كانوا يخشون مواجهتهم في بداية الأمر ، ولكن نلاحظ أن اليمنيين لم يظهروا ميلا في استخدام مدافع الميدان الثقيلة ، بل كانوا يستخدمون الجنود العثمانيين المتمردين أو الذين فسروا إلى الأئمة بعد استقلالهم ، خاصة في عهد المؤيد ، في استخدام تلك المدافع التي احتفظوا بها في قلاعهم ، كما كانوا يستولون على الخيول والخيام من ساحات القتال ، رغم أن الخيول ليس من السهل استعمالها في المناطق الجبلية لأنها صعبة المرتقى ، فكان اليمنى خفيف الحركة ، سريع الصعود إلى تلك الجبال الوعرة ، وقد أجادوا فن التحصن في تلك الجبال حيث كانوا يختبئون تحت الصخور والحجارة الكبيرة ، وهكذا إدارة الحروب مجالا ضرب فيه الأئمة بسهم وافر من النجاح والكفاءة ، حتى عدوا أنفسهم قوة مواجهة لقوة العثمانيين .

كما استخدموا الزيارات ، وهي آلة حربية ضخمة تستخدم في رمي النقاط وغيره من القذائف على العدو ، وبعد أن تعلم اليمنيون استعمال البنادق أخذوا يصنعون البارود والرصاص ، ففي سنة ١٠١١ هـ أثناء وجود الإمام في بمرط ، استخرج الإمام الرصاص من خمسمعادن ، فكثرت خزائن الامام بالبارود ،^(١) كما أن محمد باشا سنة ١٠٢٥ هـ وضع حراسة مشددة على جبل الكبريت ، لأن أصحاب الإمام كانوا يصنعون البارود من هذا الكبريت مما جعله غالى الثمن ،

ومن طرق اليمنيين في الحرب ، طرق التسلل والتخفى من العدو ،
ففى أثناء خروج الإمام من شهبارة إلى برط سنة ١٠٠٩ هـ ، كان خروجهم على
دفعات متخفين ، حيث خرج الإمام والفقير على الشهبارة ، ثم خرج أتباعه
بعده على دفعات ، ومن ثم ابناه الحسن والحسين .^(١)

أما طرق تموينهم أثناء الحروب ، فكان أكثر أكلهم من ثمر العنب الذى
تجود زراعته فى أرض اليمن ، أو من النذور التى يحضرها القبائل الموالية لهم ،
فكانت القبائل تقدم إلى الإمام وأصحابه اللحوم ليتقربوا إليه بهذه الطريقة ، أو
كانوا يأكلون الأرز ، حيث كان الإمام يقيم مخازن لها ،

أما أسرى الحرب فكان الإمام يوزعهم على القبائل لينتفعوا بهم فى أعمال
الزراعة ، فإذا وقع الصلح أو معاهدة بينه وبين العثمانيين كان يجمعهم
ليفتدى بهم أسرى اليمنيين ، بعد أن يكسيهم ويزودهم بالطعام والزاد ، كما
فعل فى صلح سنة ١٠٢٨ هـ .

أما النظم الادارية ، فقد كان الإمام يولى على البلاد التى يفتحها أصحابه
من الأشراف والسادة ، فقد ولا بالأهنوم السيد عبد الله بن محمد بن على المحراثى
وبلاد شطب وظليمة السيد ابراهيم بن جحاف القاسمى ، وبلاد الظاهر السيد
صالح بن عبد الله العريانى ، وبلاد ثلا وما يليها كبنى قطيل وبنى حيس

وبلاد عفار وكحلان وبلاد مدع والبون عين السيد شرف الدين الحسن بن شرف الدين الخمرى ، وولا بلاد الحيمة وما ولاها وجبل تيس عمه السيد عامر بن على ، وعلى بلاد مور وقراضة ولاعه وما يليها السيد أحمد بن محمد المحرابى ، وولا حجة وما يليها السيد أمير الدين بن عبد الله بن نهشل ، وبلاد الشرف ، وجهات الحقار السيد أحمد بن محمد بن صلاح القاسمى الشرفى ، وولا فى بعض جهات خولان صعدة السيد محمد بن صلاح القطايرى ، وبلاد خولان صنعاء وما يليها الحاج أحمد بن عواض الاسدى ، ولما شب أولاده كان يعين منهم كذلك على تلك الأقاليم فقد عين ولده أحمد على صعدة سنة ١٠٢٨ هـ .^(١)

وقد أخذ اليمنيون كثيرا من النظم الادارية للعثمانيين ، فقد أبقوا على بعض الوظائف والألقاب والتقاليد الادارية بعد انسحاب الدولة العثمانية من اليمن ، فمنذ وضع الإمام القاسم أسس الدولة القاسمية أخذت دعائم هذه الدولة تظهر بالمظهر اللائق للدولة ، بعد أن كان الأئمة الزيديين عبارة عن زعماء دينيين لأقلية تقطن قمم الجبال الشمالية .

كما نجح الإمام القاسم وأولاده فى موازنة ميزانياتهم وجعل مصروفاتهم تتمشى مع الدخل العام ، فكان الإمام لا يأخذ من القبائل مالا ولا يقبض منهم الا الذى يطابق هواهم ، فلا يرهق الأهالى بدفع الضرائب الباهظة ، وكان أكثر

(١) الشرفى - اللآلىء المضيئة ص ١٥٦

دخل الامام من النذور التي يقدمها الأهالي للإمام ، كما كان يأخذ الخمس من المعادن المستخرجة من الأرض ، وهو ما يطلق عليه الركاز ، والخراج على الأرض المزروعة بنسبة العشر ، خاصة أن أرض اليمن تجود فيها زراعة البن والعنب والأرز ، وفي عهد أولاد الامام عندما بسطوا سلطانهم على السواحل أضيف إلى دخل الدولة بعض الرسوم على الموانئ ، أما مصروفات الدولة فكانت تتمثل في النفقات الخاصة بالامام ، والهدايا التي يقدمها لبعض الجهات ، أو ما يقوم به من منشآت دينية ، كذلك كان الامام يلتزم بصرف الأقوات على الضعفاء والمساكين والفقراء من بيت المال ، ففي سنة ١٠٢٨ هـ تعرضت البلاد لقطع شديد ، فكان الإمام القاسم يصرف لكل واحد من رعاياه طعاما مصنوعا وبعض الحب ،^(١) وكان يخصص لكل ولد من أولاده حصة من بيت المال ، وكذلك عمه السيد عامر ، فان مات أحد منهم فحصته لورثته .^(٢)

أما بالنسبة للعملة المستعملة في الدولة القاسمية ، فقد ضرب الامام القاسم السكة باسمه سنة ١٠٠٧ هـ أثناء بقاءه بالسودة ، وأطلق عليها الضريبة المنصورية ، نسبة إليه لأنه كان يطلق عليه الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد وهي عبارة عن نصف درهم مكتوب عليه في جانب منها لا اله الا الله محمد رسول الله وفي الجانب الآخر اسمه والتاريخ ، وانتشر استعمالها بين الناس^(٣) إلا أن - استعمالها - كان قليلا ، وأكثر العملات المستعملة حسب ما جاء في المخطوطات

(١) الشرفى - اللآلىء المضيئة ص ٢٥٧

(٢) نفس المرجع ص ٢٦٦

(٣) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ٨١

هى : درهم ، بقشة ^(١) ، حرف ، حرف أحمر ، قفلة ، ذهب كبير - قرش وأغلب هذه الأسماء أسماء محلية عربية ان أنها ذكرت فى مخطوطات ابن العيىع الذى عاصر الطاهريين ، وكذلك الحال نجدها فى المخطوطات التى عاصرت الحكم العثمانى فى اليمن ، الا أنه كان يضاف إلى جانب اسم العملة لفظ عثمانى دلالة على أن العملة ضربت فى العصر العثمانى ، أما الموازين والمكاييل المستعملة فهى الكيلة الثلوثى ^(٢) ، والوقية ، والقدح الصناعى .

وكان الامام فى بدء دعوته مشغولاً فى الحروب ، إلى أن عقد صلح سنة ١٠١٦ هـ مع جعفر باشا حيث اطمأن الامام ، وكذلك الناس ، فأخذ يشرع فى تعمير الاراضى الزراعية ، فبنى وادى صومل ، وهو وادٍ معروف فى جانب عذر الغربى بالقرب من ساحل الأهنوم ، حيث استقر فيه مدة وأمر بزراعته وغرس أشجار البن فيه وهى ذات نفع اقتصادى هام للبلاد ، وزرع فيه كذلك العننب التى تجود أرغى اليمن بزراعته ، وكذلك الأرز والذرة ، وكذلك الحال فى وادى وعمر وأعمال بطنسه حجور ، فكثرت انتاجه وظهر انتعاش فى الزراعة فى تلك الفترة حتى أصبح دخل الدولة القاسمية منه أكثر من دخل بيت المال من الموارد الأخرى ^(٣)

(١) البقشة : تتخذ من النحاس ، وهى باللغة التركية (باقجه) أى صرة أو خرقة ، وهى الخرقة التى تلف بها الدراهم فسميت بذلك ، وهى أساس النقد عند اليمنيين .

الأب انستاس الكرملى - النقود العربية وعلم النميات ص ١٦٨
(٢) الكيلة الثلوثى - نسبة الى سوق الثلوثاى السوق الذى يعقد يوم الثلاثاء .

(٣) الجرmozى - النبذة المشيرة ص ١٨٥

كما أن الوافدين للدراسة في المدرسة المنصورية كانوا يأكلون من ثمار هذه المزروعات مثل الأرز .

أما بالنسبة للنظم العمرانية ، فإن أول ما عمر الامام قرية الهجـرة في برط سنة ١٠١٠ هـ بعد خروجه من شهارة ، فقد حفر بئرا ، وبنى مسجدا وسماها بالهجرة ، حيث كانت العادة المتبعة أن المدينة أو القرية التي يهاجر اليها أحد الأئمة للاستقرار بها عند ضعف نفوذه يلقبونها بالهجرة ، وذلك تشبيها لها بدار هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة ، كما أسس جامع شهارة في رابع من شهر محرم عام ١٠١٥ هـ وانتهى من انشائه في العشر الآخر من محرم سنة ١٠١٨ هـ ، وكان الانفاق على بنائه من النذور التي تقدم للإمام ، وقد ساق حجارته من خارج شهارة ، وكان هذا الجامع متسعا به محراب ومهـل ومنازل لقراءة القرآن ، وبعد استقرار الامام في شهارة كان يدرس فيه طلبة العلم فأصبح مركزا علميا شهيرا في شهارة ، كما أسس الامام السمسرة^(١) في مدينة الهجر وهي عظمة البناء ، فان أهل النظر في العمائر يقولون ان هذه السمسرة وأساطين جامع شهارة الكبير وعقودهما من عجائب اليمن ، واليمن شهورة بأبنيتها الأثرية العظيمة البناء ، وقد أوقف الإمام دخل هذه السمسرة على مسجد شهارة ومسجد الهجر الذي أسسه بعد ذلك بالقرب من جامع شهارة ، وقد عمر الإمام طريق المدرج إلى شهارة الفيش

(١) السمسرة في اليمن - جمعها ساسر - وهي تشبه الخانات ، وهي التي ينزل فيها الغرباء من التجار اثناء تنقلهم بين البلاد ، وذلك لعرض بضائعهم للاقامة فيها مقابل أجر معين .

حيث مهد طريقها للجمال والخيول ، حتى أول الطريق إلى شهارة الفيش ، أي إلى قمة الجبال ، وأقام الحوانيت والبيوت والسوق وأنشأ السمسرة التي فسى سوق الثلوث والمسارحة ، فانه أبدع في بنائها ، وتمت عمارتها على أحسن وجه مع سعة فيها واحكام^(١) ، وقد أسس المسجد المعروف بمسجد علي بن الإمام في مدينة صعدة وقد دفن ابنه علي الذي قتل في معركة الشقاب فيه

لم تقف الأعمال العمرانية على عصر الإمام القاسم فقط ، فقد شارك أولاده في هذه النهضة العمرانية في أثناء حياة والدهم ، ثم حين حكموا هم البلاد من بعده ، فقد عمر الحسن بن القاسم بعض الحصون التي خربها سنان باشا أثناء هروبه ، وكذلك عمر الحسين بن الإمام السمسرة في شهارة الفيش والأسواق حولها ، وقد اختط الحسن مدينة في جبل طوران^(٢) ، فبنى بها حصونا وأقام الأسواق حولها وأصلح الأراضي وغرس الفواكه ، فأصبحت مدينة عظيمة بأسواقها وحماماتها ومساجدها وأمر كل أمير من أمرائه أن يبني بها بيتا ، فاتبعوا أوامره وعمر ما حولها من القرى ، وقد دفن الحسن بمدينة ضوران إلى جانب مسجده سنة ١٠٤٨ هـ ، كما عمر أحمد بن الإمام القاسم

(١) الشرفى - اللآلى المضئئة ص ٢٧٩

(٢) ضوران - اسم جبل في اليمن فوق حصن من حصون اليمن لبنى الهرش ، وهو يقع بقضاء أنس على مسافة ٦٨ كم جنوبى صنعاء - هذه هى اليمن - عبد الله الثور ص ١٦٤

(٣) المحبى - خلاصة الأثر ج ٢ ص ٣٩ ، المحبى - نفحة الريحانة ج ٣ ص ٢٤٤

عطرة جامع الروضة المشهور في صنعاء^(١) ، وقد اختط الحسين مدينة الحصين التي عمرها تحت حصن الدامغ بالقرب من زوران سنة ١٤٠١ هـ ، وأقام بها عمارة عظيمة وأجرى الماء وغرس الاشجار^(٢) .

أما الامام المؤيد فقد عمر المسجد الجامع في مدينة أقر^(٣) وهو جامع كان أصله مسجدا صغيرا يسم نحو عشرين رجلا فجعله جامعا كبيرا ذات اسطوانات وأجرى السقاية تحته من جهة الشرق ، وأنشأ البركة هناك ، وبنى السقوق في مدينة أقر أيضا ، وحفر بئرا بها كان عليها مدار الناس كلهم حيث كان ماءه غزيرا يكفي كل من ورده ، وكان هذا الموضع قليل الماء ، ولم يكن فيه غير بئر صغير ماءه قليل فكان الناس يجدون مشقة في الشرب منه أيام الامام القاسم فحفر الامام المؤيد بئره هذا ، وحفر بئرا آخر بالقرب منه لكن ماءه لم يكن غزيرا مثل بئر أقر ، كما مهد الطريق الممدود بين أقر إلى شهارة فسهلها وجعلها للجمال والخيول ، حتى ان من مر من وادي رجم بجمال أو غيرها صار إليها بسهولة ، ولم يكن طريق الجمال والخيول قبل ذلك من أقر إلى شهارة الا من جهة المسارحة ووادي رجم ، فكان هذا الطريق من أحسن مآثر الامام المؤيد^(٤) .

(١) الواسعي - تاريخ اليمن ص ٥٣

(٢) أحمد حسير شرف الدين - تاريخ اليمن الثقافي ج ٤ ص ٢٥٣

(٣) أقر - اسم موضع باليمن ، الهزاني - صفة جزيرة العرب ص ١٨٠

(٤) الشرفي - اللآلئ المضيئة ص ٢٧٩

أما بالنسبة للجانب العلمى ، فقد كانت المساجد والجموع هي المدارس التى يذهب إليها طلبة العلم حيث يتلقون فيها العلوم الدينية ، مثل قراءة القرآن والحديث والتفسير والفقه ، وكان الإمام القاسم نفسه يقوم بالتدريس فى جامع شهارة ، وكذلك الحال بالنسبة لأبنائه من بعده ، فكانوا يقومون بمهمة التدريس إلى جانب مهام الحكم ، وخاصة اسماعيل (المتوكل على الله) حيث وصلت الدولة فى عهده إلى ذروة العظمة والتنظيم ، فلم يكن له هم الا الاشتغال بالعلم والتفكير فى أمور الرعايا ، فأمنت السبل فى أيامه ورخصت الأسعار ، ولم يتمكن أحد من ظلم آخر فى ولايته ، ولم يجسر أحد من عماله على ظلم أحد من رعاياه ، وأمن الناس على أنفسهم وأولادهم ، وحريمهم ، وترددت التجارات لسائر الأقطار ، فانشرح الناس لحكمه ، خاصة وأنهم كانوا قريبي عهد بالاضطراب والحروب فى عهد العثمانيين .

من هذا العرغى لنظم الدولة القاسمية التى وضع أسسها الإمام القاسم وحمل لواء المسيرة من بعده أبنائه ، نصل إلى أن حكومة الإمامة كانت شيئاً ايجابياً ، على جانب من التنظيم الذى أساسه طاعة الافراد وصلاح الإمام ، وهذا ما يجعلنا ننفى الفكرة الشائعة بأن الإمامة عبارة عن سلب ونهب ، أو كما صورها بعض الكتاب والمؤرخين على أنها مجرد صراعات ، بيد أننا نرى من خلال هذا العرغى أنهم النظم القاسمية انها وصلت أو كادت تصل لمستوى العصر فى التنظيم والادارة والبناء والتعمير ، ولهذا فلا عجب أن ظهرت حكومة الامام بأنها أقرب لمظاهر العدل والانتاج والتنظيم أكثر مما كان الحكم العثمانى فى جنوب غربى الجزيرة وبدت الإمامة وكأنها ملجأ وحصن من مظالم العثمانيين وفساد ادارتهم كما أن الدولة القاسمية كانت تمثل الجدي المتطور بينما كان الحكم العثمانى فى اليمى يمثل القديم البالى .

أما فيما يختص بالدولة العثمانية ، فينبغى لنا قبل تحليل نظمها فسى اليمن وما يختص بأحوالها ، أن نعرف أهمية اليمن فى القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، فاذا عرفنا أنه كانت للعرب السيطرة على أغلب طرق التجارة العالمية القديمة ، ومن أهم هذه الطرق طريق البحر الأحمر الذى تقع مصر عند طرفه الشمالى واليمن عند طرفه الجنوبى ، وقد حقق كل من القطريين من وراء موقعه الجغرافى رخاء اقتصاديا كبيرا ، وازدهارا حضاريا ملحوظا منذ أقدم العصور ، وتردد فى كتب الجغرافيا اسم جزيرة العرب السعيدة Arabia Felix ، وهو اسم أطلق على أقصى جزئها الجنوبى الغربى حيث سعدت موانيه بمرور تجارة التوابل بها ، وظلت فترة طويلة محطات أو مخازن لهذه التجارة التى كانت فى القرن السادس عشر أهم مجال للنشاط الدولى ، وأهم باعث للكشف الجغرافى ، وكذلك أهم مورد مالى فى الشرق والغرب على السواء ، وكانت لليمن بحكم موقعها نصيب وافر من ذلك كله ، ان كانت اليمن أهم نقطة ارتكاز على الساحل الجنوبى والحارس عليه ، وكان من العسير على السفن التى تسافر الى الهند أو العائدة منها ألا تمر على موانئها ، فهى تتحكم فى مدخل البحر الأحمر بحكم هذا الموقع .

بالإضافة لأهمية موقعها الاستراتيجى نجد أن اليمن أكثر خصوبة ، ومناخها أكثر اعتدالا كما أنها غنية بمواردها الطبيعية ، ففي جبل صبر عند تعز يوجد الذهب ، وفى مأرب يوجد الرصاص والكبريت والالمنيوم ، وفى بلاد حجور يتوفر الطلق ، كما يوجد الحديد بكثرة فى صعدة ، وقرب بيت الفقيه يوجد تل

يتكون من أعمدة بارزلية استخدمها القوم في إنشاء درجات الصعود إلى التلال وفي مناطق استنبات البن ، كما اشتهرت اليمن بالزراعة ، وخاصة زراعة البن ، ذات النفع الاقتصادي وزراعة الصبر الذي يستخرج منه أنواع الزيوت ، وتتمسـو غابات على الجانب الغربي للجبال في اليمن (١) .

هذه الأهمية الاقتصادية جعلت اليمن موضع طمع كثير من الدول الأوروبية وخاصة البرتغال ، ففي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي نجحت البرتغال في الوصول بحرا إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، كما نجحت في احتكار التجارة الشرقية بعد الوصول إلى الهند بقليل ، وقد أدى تحول تجارة الشرق إلى الطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح ، إلى حرمان العرب من مصدر هام من مصادر ثروتهم ، وأدى هذا بدوره إلى ضعف بنائهم الاقتصادي ، وحاول العرب مقاومة هذا الغزو الأوربي الجديد ، واسترداد سيطرتهم على نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل ، وتم للبرتغال احتكار هذه التجارة ، وكان موقف اليمن تجاه الغزو البرتغالي موقفا اتسم بالضعف ، نظرا لانشغال حاكمها حينذاك عامر بن عبد الوهاب بتوطيد دعائم حكمه ، من جهة ، ولعدم معرفة اليمنيين بالأسلحة الحديثة التي أتت بها البرتغاليون معهم من جهة أخرى .

وقد حمل لواء الدفاع عن اليمن المالك ومن بعدهم العثمانيون ، فقد ارتبط فتح العثمانيين لليمن مع فتحهم لمصر سنة ١٥١٧ م ، حيث وجد العثمانيون أنه لا بد من الدفاع عن البحر الأحمر ، لأن الخطر البرتغالي كان يشتد ويهدد هذا البحر وغيره من البحار الشرقية بوجه عام ، فقسد أدرك العثمانيين بعد دخولهم إلى مصر أهمية اليمن الاستراتيجية بالنسبة إلى نزاعهم مع البرتغاليين ، إذ أن الساحل العربي من باب المندب ، حتى الخليج العربي من الناحية الجغرافية لا نجد فيه موقعا آخر له صفات اليمن ومزاياها ، ومع أن الساحل العماني حوى بعض الخلجان الصغيرة إلا أنه كان مأوى للصيود البحر ومحط لغارات القبائل البدوية ، وكان الارتكاز عليها بالنسبة للعثمانيين في أعمالهم في المحيط الهندي خروجاً مبالفا فيه عن مجال الدولة الحيوى ، لأنه لم يكن من المعقول أن تأخذ الدولة العثمانية قاعدة رئيسية لها على الساحل العماني أو الخليج العربي نظراً لعلاقتها العدائية مع فارس على الدوام ، فأصبح الخليج العربي طريقاً شبيهاً بمقول من الشمال إلى الجنوب ، لذلك رأت أن تتخذ من اليمن قاعدة ارتكاز لشن هجوماتها على البرتغاليين ، ولا حكام غلق البحر الأحمر في وجه السفن البرتغالية خاصة ، والسفن الأوروبية عامة ، وجعله بحيرة إسلامية ، كما أنها وجدت أنه بالامكان قطع الاتصال البرتغالي الحبشى عن طريق هذا البحر أيضاً ، إذ أن تحالف البرتغاليين مع الأحباش كان بمثابة تهديد خطير في هذا البحر ، بالإضافة إلى تطهير السواحل العربية الجنوبية من الجيوب البرتغالية المتناثرة بها ، فتحوّلت السواحل اليمنية بذلك إلى قاعدة بحرية هامة عند

مدخل البحر الأحمر الجنوبي ، كما تحول هذا البحر بدوره الى بحيرة عثمانية.

ولعبت هذه الحقيقة الدور الرئيسى فى رسم سياسة العثمانيين البحرية فى البحار العربية الجنوبية لفترة امتدت حوالى قرن من الزمان ، وهى السياسة التى انتهت الى منع البرتغاليين وباقى القوى الأوربية التى وصلت الى المياه الشرقية مع نهاية القرن السادس عشر من التوغل فى البحر الأحمر.

كذلك كانت الأهمية الاستراتيجية هى العامل الرئيسى أيضا فى حرص العثمانيين على ابقاء نفوذهم فى اليمن ، بل وتدعيم هذا النفوذ كلما أمكنهم ذلك حتى خرجوا من اليمن سنة ١٦٣٥ م ، فقد قال أحد الكتاب المحدثين " كانت اليمن احدى أمنيات السلطان سليمان وغاية ما يصبوا إليه ، نظرا لأهميتها من الناحية العسكرية ، والموقع الاستراتيجى المهيمن على شواطئ البحرين العربى والأحمر " (١).

فكان هدف العثمانيين الأساسى من اتخاذ اليمن قاعدة الارتكاز ضد البرتغاليين فى المحيط الهندى والبحر الأحمر هو حماية الأراضى المقدسة من الخطر البرتغالى ،

(١) أحمد حسين شرف الدين - اليمن عبر التاريخ ص ٣٥٨

يوضح هذا الغرض قول السلطان سليم الثاني عندما أرسل سنان باشا إلى اليمن لفتح قائلًا " ان استرد ادنا لمملكة اليمن وان كان ذلك مما يتعين علينا لأنها ميراث أبينا المرحوم المقدس ، لكن جل قصدنا من ذلك انما هو حفظ ثغره عن صونا للحرمين الشريفين على الكفار الملاعين " (١)

لذلك فرضت الدولة العثمانية تقليداً جديداً يقضى بمنع دخول المراكب المسيحية في البحر الأحمر بحجة أنه يطل على الأماكن المقدسة للمسلمين في الحجاز وهو التقليد الذي ظلت الدولة العثمانية متمسكة به حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، فقد كان العثمانيون يرون تشريفاً لهم حماية الأماكن المقدسة في الحجاز وكذلك بسبب انتقال خلافة المسلمين اليهم ، حتى تتوفر لهم الزعامة الروحية والسياسية اللازمتين لمواجهة الغرب المسيحي ، يضاف إلى ذلك عاطفة دينية متأججة ، وحب شديد لأهل الحرمين الشريفين عرف بهما سلاطين آل عثمان ، بالإضافة إلى أن العثمانيين حاولوا إدخال النفوذ العثماني في الخليج العربي من قاعدة اليمن لتوجيه الضربات من هناك إلى فارس ، فقد اتضح للعثمانيين أن الأراضي الجبلية وقسوة الطقس في منطقة الحدود بين الدولتين قد جعلت من الصعب الانتصار أو هزيمة إيران من ناحية الشمال ، فقد غزا السلطان سليمان القانوني فارس سنة ١٥٣٤ م ، ١٥٣٥ م ،

(١) قطب الدين - البرق اليمني في الفتح العثماني ص ٢١٢

فحاربت الطبيعة حرباً مهلكة ، وأضحى العثمانيون كالموتى المدفونين ففسى وسط الثلوج ، وتحطمت خيامهم بسبب العواصف ، وكان السلطان نفسه في خطر شديد وغطيت الأرض بجثث القتلى منهم وفاجأ العثمانيين المطر ليلاً فكان الغرس كالذئاب وسط الأغنام وهرب القواد العثمانيون ، وأسرع سليمان بما تبقى من جيشه إلى الفرار بعد أن اذاقته الطبيعة شر هزيمة .^(١)

وكانت هذه الهزيمة من أهم أسباب فتح اليمن والتفكير في الوصول إلى فارس عن طريق الخليج العربي ، وكانت أهداف العثمانيين من حرب فارس هي تحقيق الزعامة على العالم الاسلامي ، فقد كان الاستحواذ على الزعامة في العالم الاسلامي شيئاً مقرراً في سياسة العثمانيين وهذه الزعامة آلت اليهم في مصر بعد فتحها وفي الحجاز تبعاً لذلك ، غير أنهم فشلوا في الوصول إليها في فارس ، وكان فتح اليمن أمراً ضرورياً لتحقيق هذه الزعامة وتكملة لها ، وخاصة لما كان يسود الجزيرة العربية من زعامات مذهبية كان ينبغي أن تنصهر جميعاً ليتمكن خضوعها للزعامة الجديدة خضوعاً طبيعياً ، وكان اليمن حجر الأساس للسياسة العثمانية في ذلك الجزء من الجزيرة العربية .

كان نشوب الحروب بين مسلمي عادل وغيرها من مسلمي الشاطئ الغربي للبحر الأحمر ومعهم العثمانيون في بعض الموانئ من جانب وبين الأحباش

(١) البحراوي - فتح العثمانيين عدن ص ١٤٦

يشجعهم البرتغاليون ويمدون لهم يد العون من جانب آخر ، من أهم الأسباب كذلك لفتح العثمانيين اليمن ، وكان حلول العثمانيين محل الممالك في مصر توريثا لهم الخلافة والزعامة ، كما أورثهم أيضا مهمة حماية العالم الاسلامي من ذلك الخطر الداهم ومحاولة انقاذ تجارة الشرق ، بعد أن أخذ معينها يثضب ، وأخذ الشرق الغنى يقف على أبواب فقر مدقع .

كما أن الموقف في الهند كان يستدعي عملا حاسما عاجلا من العثمانيين لأن الولايات الاسلامية كانت محاطة بأخطار جسيمة تتهددها ، فالبرتغاليون يحاولون تثبيت أقدامهم على السواحل ، ويملأون البلاد بالمؤامرات والدسائس ، والولايات الهند وكية تنتهز الفرصة المواتية للانقضاض وشن الحروب ، والخطر المغولي بين مده وجزره يفرغ عليها كثيرا من الارتباك ، وانهاالت على العثمانيين صيحات مسلمي الهند ، ورأى العثمانيون أن اجابة هذه الرغبة تحقق غرضا مزدوجا ، فالى جانب تحقيق الزعامة على العالم الاسلامي ، فقد بدت في الأفق الفرصة ليجدوا حلفاء طبيعيين في هذه الأماكن للاستعانة بهم في القنماء على النفوذ البرتغالي ، وانقاذ تجارة الشرق الغنية .

ولاشك أن ما بعث به المستغيثون إلى السلطان ورجال حكومته ، كسان مقياسا على ثراء وغنى هذه البلاد ، مما لفت نظر العثمانيين وزادهم رغبة في القيام بذلك المجهود ، ومن ثم أضحي فتح العثمانيين لليمن أمرا مقرا وخطوة تأسيسية لذلك المجهود كله .

ولم يمضى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى إلا وكان
العثمانيون قد طردوا البرتغاليين من البحر الأحمر واستولوا على الموانئ^{مة} الهامة
على شاطئتي إفريقيا وآسيوى ، وجعلوا من البحر الأحمر بحيرة عثمانية أطلقوها
فى وجه السفن المسيحية ،

وإذا كان العثمانيون قد تمكنوا من وقف التوسع البرتغالى وتأميمين
البلدان العربية وخاصة فى حوض البحر الأحمر من عدوان البرتغاليين ، فإنهم
عجزوا فى النهاية عن تحقيق غايتهم الرئيسية وهى تحطيم السيطرة البرتغالية
فى المحيط الهندى ، وإعادة التجارة إلى طرقها السابقة .

ولذلك بدأ ارتقاء قبضة الدولة على اليمن شيئاً فشيئاً ، ولم يكن هذا
الارتقاء مفاجئاً بل أخذ يظهر تدريجياً حسب تطور الأحداث ، فقد أدى تطور
الأحداث فى أوروبا إلى ضعف موقف البرتغاليين فى الشرق بوجه عام ، فقد
دخلت البرتغال فى حكم اسبانيا لمدة ستين عاماً أى من سنة ١٥٨٠م - ١٦٤٠م
وكانت البرتغال قد أجبرت على أن تشترك بأسطولها مع الأسطول الاسبانى
الذى عرف باسم الأرمادا الذى لا يقهر^(١) ، فى الهجوم على إنجلترا ، فقد
تحطم الأرمادا أمام الشواطئ الانجليزية ، وفقدت أسبانيا والبرتغال معاً
سيطرتهم على البحار ، واتضح ضعف البرتغال بجلاء عندما عجزت فى سنة

(١) حاطوم - عصر النهضة الأوروبية ص ٢٧٠ ، البحر اوى - فتح العثمانيين

١٥٩٥م عن صد هجوم انجلترا على سواحلها ^(١) ، وذلك عند ما هاجم الانجليز ميناء فارو البرتغالى ، كذلك بدأت البرتغال تفقد احتكارها لتجارة الشرق ففى فترة دخولها فى حكم اسبانيا .

وبذلك انتهت حدة الصراع البرتغالى العثمانى فى البحر الأحمر ، وبدأ اهتمام الدولة العثمانية باليمن يقل عما كان عليه فى الماضى ، أيام اهتمام سلاطين الدولة بمحاربة البرتغاليين ، واغلاق مداخل البحار فى وجوههم ، ثم أصبح جل اهتمامهم موجها إلى الكفاح ضد الدول الأوربية فى الميــدان الأوروبى ، بالإضافة إلى الاضطرابات الداخلية فى الدولة ذاتها ، ولذلك أخذت سيطرتهم على اليمن تضعف تدريجيا .

لكن هذا لم يمنع القوى البحرية الأوربية الكبرى من ارتياد هذه البحار ، اذ بعد أن ضعف البرتغاليون ، أتت هذه القوى فى اتجاه الهند ، لكنهم لم يعنوا كثيرا بأمر الصراع الصليبي ضد المسلمين ، ولم تفكر كما فـكـر البرتغاليون فى الاعتداء على الأراضى الحجازية المقدسة ، هذا إلى أن القوى البحرية الأوربية كانت تعنى بالدرجة الأولى بأمر التجارة ، خاصة أن النشاط البحرى الهولندى والانجليزى والفرنسى كان قائما على أساس شركات كبرى تجارية تسعى وراء الربح ، لا وراء التعصب الدينى الذى تميز به رجال شبه جزيرة أيبيريا ^(٢) .

(١) ل . ج . سيني - العالم الغربى ص ٢٢٦ ، ٢٢٧

(٢) نوار - الشعوب الاسلامية ص ١٠٩

فقد نجحت هولندا في سنة ١٥٩٥ م. في إرسال أول حملة بحرية لها حول رأس الرجاء الصالح ، وذلك بقيادة أحد مواطنيها ويدعى هوتمان الذي عمل بعض الوقت على ظهر السفن البرتغالية ، ورغم أنه كان من المتوقع أن تنجح باقى قوميات أوروبا فيما بعد فى منافسة البرتغال فى تجارة الشرق ، فقد كانت سياسة فيليب الثانى الأوربية هى التى دفعت الهولنديين الى التعجيل باتخاذ هذه الخطوة الجريئة التى أنهت إلى الأبد احتكار البرتغال لتجارة الشرق ، فقد كان فيليب الثانى قد أطلق أسواق لشبونة فى وجه تجار الأراضى الواطئة سنة ١٥٩٤ م ، وبدأ هؤلاء يتلمسون طريقهم الخاص إلى المصادر الأصلية للتجارة الشرقية ، ونجحوا فى الوصول إليها فى العام التالى مباشرة (١) .

ونجحت كذلك انجلترا بعد قليل فى الوصول إلى الهند بحرا عن طريق رأس الرجاء الصالح ، كما نجحوا فى خلال رحلتهم الأولى هناك سنة ١٦٠٣ م فى تأسيس العلاقات التجارية واقامة المحطات والمراكز التجارية فى سومطرة وجاوه وغيرهما من جزر الهند الشرقية (٢) .

وقد بدأ النفوذ البرتغالى منذ ذلك الحين يأخذ طريقه إلى الانهيار للمنافسة الخطيرة التى واجهها على يد الانجليز والهولنديين ، وكان نجاح الانجليز والهولنديين فى هذه المناطق سريعا وحاسما ، فلم ينتصف القرن

(١) جاد طه - السياسة البريطانية ص ٢٦

(٢) البحر اوى - فتح العثمانيين عدن ص ١٠٤

السابع عشر الميلادى تقريبا الا وكانت البرتغال قد فقدت معظم أجزائها
امبراطوريتها الساحلية الواسعة التى كانت تمتد على السواحل الافريقية
والآسيوية من رأس الرجاء الصالح إلى الصين واليابان .

ويرجع نجاح هؤلاء القادمين الجدد إلى الشرق فى الغالب إلى ترحيب
أمرأء وأهالى الشرق بهم ، وذلك نكاية فى البرتغاليين أو للاستعانة بهم فى
التخلص منهم ، وقد وجد الانجليز طريقهم إلى المخا سنة ١٦١٨ م فكانت
المحاولات الأوروبية للتردد على ميناء مخا ، فقد حاول الكابتن الكسندر شارپسى
Sharpey الانجليزى فى سنة ١٦٠٩ م ، وتأرجح موقف العثمانيين
فى بداية الأمر ازاء تردد هؤلاء الانجليز على الساحل اليمنى ، فقد وافقوا تارة
على اشتغال الانجليز بالتجارة فى المخا ، ومنعواهم تارة أخرى ، وذلك حتى
عام ١٦١٨ م^(١) حين حصل الانجليز على ما يسمح لهم بحرية التجارة فى هذا الميناء
دون أن يتعرض لهم أحد بأذى ، واستقبل حاكم المخا العثمانى الكسندر شارپسى
بتسامح كبير سنة ١٦٠٩ م ولكن عندما جاء السير هنرى مدلتون Henry
Middelton من قبل شركة الهند الشرقية فى العام التالى
استقبله حاكم الميناء حينئذ بفتور شديد ، ثم أرسله إلى صنعاء وبعد أن سجنه
بعض الوقت فى مخا ، ثم أطلق سراح مدلتون بعد قليل بعد أن تعهد ألا يتردد
مرة أخرى على ميناء مخا أو أى موانئ عربية أخرى .

(١) هارولد . ف . يعقوب - ملوك شبه جزيرة العرب ص ١٧ ،
دعبد الحميد البطريق - من تاريخ اليمن الحديث ص ٣٦

ورغم ذلك ، فقد تقدم الكابتن ساريز Saris إلى ميناء مخا بعدد ذلك بقليل ، فلم يقابل بمثل هذا العنف الذى قوبل به مدلتون ، ولكنه لمس أن الروح العامة هناك لا تشجع على استمرار اشتغاله بالتجارة ،^(١)

والواقع أن موقف العثمانيين المتأرجح تجاه الأوربيين يرجع إلى السياسة التى وضعتها الدولة العثمانية فى هذه البحار التى تقضى بعدم توغل السفن الأوربية فى البحر الأحمر الذى يشرف على الحجاز والحرمين الشريفين ، ورغم ذلك فقد سمح العثمانيون فى تردد وحذر بأن تقوم السفن الأوربية التجارية بالتردد على ميناء مخا اليمنى ، والاشتغال بالتجارة فيه ، لكنهم منعوا هذه السفن من التوغل إلى داخل البحر الأحمر بل جعلوا السفن العربية تنقل البضائع من ميناء مخا إلى باقى موانئ البحر الأحمر حتى موانئ مصر .

وهكذا كان ضعف البرتغاليين وانتهاء النفوذ البرتغالى هو أهم العوامل التى جعلت الدولة العثمانية تصرف النظر بعض الشئ عن التمسك بوجودها فى اليمن ، وخاصة عندما اطمأنت إلى انتهاء التحالف الصليبي الحبشى البرتغالى حيث كان البرتغال يبذلون محاولات مستميتة لتدعيم نفوذهم فى الحبشة ، وذلك بربط كنيستها الأرثوذكسية بالكنيسة البرتغالية الكاثوليكية ، وكان ذلك من

(١) Play Fair/ A History of Arabia.p.1.5. 110

أهم الأسباب التي عجلت بمجيء العثمانيين إلى اليمن ، للقضاء على هذا التحالف الصليبي الذي يهدد البلاد الإسلامية ، وكان البرتغاليون قد اتخذوا الخطوات العملية لتنفيذ هدفهم الصليبي سنة ١٥٤٦ م عندما أرسل ملك البرتغال إلى النجاشي خطابا يصرح فيه أنه سوف يرسل بطريوكا من قبله لرياسة الكنيسة الحبشية ، وليهدى الأهالي إلى الطريق المستقيم ، ويساعد النجاشي فسي تدبير شئونه ، لكن رد النجاشي كان ردا غامضا عاما ؛ إذ لم يقطع برأى محدد في هذا الأمر حتى لا يحرم نفسه من مساعدات البرتغاليين له ، وذلك بسبب حاجته إلى المساعدات حتى ذلك الحين .

ولكن الملك البرتغالي أرسل مندوبا عن البطريرك لاتخاذ الخطوة اللازمة ، فوصل هذا المندوب إلى الحبشة سنة ٥٥٧ هـ ورأى أن العثمانيين قد بسطوا نفوذهم على مصوع^(١) واشتد النزاع والصدام العلني بين أباطرة الحبشة وبين المندوب البرتغالي ، واشتد هذا الصدام في عهد ميناس سنة ١٥٥٩ م لأن هذا الامبراطور اتبع سياسة دينية عنيفة ، فمنع الأقباش من دخول الكنائس اللاتينية .

وانتهت هذه المصادمات والحروب إلى إضعاف النفوذ البرتغالي في الحبشة فلم يعد البرتغاليون الحلفاء الأوفياء لأباطرة الحبشة ، ولم يعد

(١) البحراوي - فتح المثمانين عدن ص ٩٦ ، الحبيد ، مقال سفارة الامام المتوكل بن القاسم من مجلة كلية الشريعة

هؤلاء الأباطرة يثقون بهم أو يطلبون مساعدتهم ، هل عملوا بعد ذلك على التخلص منهم وطردهم خارج الحبشة ، لأن الأحباش رفضوا تغيير عقيدتهم ، وتطورت الخلافات التي دارت حول هذا الموضوع إلى حرب عنيفة بين الأحباش وبين البرتغاليين ، أدت في النهاية إلى فتور العلاقات الحبشية البرتغالية ، بل وإلى طرد البرتغاليين من الحبشة في نهاية القرن ١٦ م تقريبا .

وبذلك خف الضغط الصليبي سواء من الأحباش أو من البرتغاليين ، مما جعل أهمية اليمن تقل بسبب هذا الانهيار في القوى الحبشية والبرتغالية .

أما وقد أصبح اليمن في مأمن ولا خطر عليه ، فإن استمرار الحكم العثماني فيه أو عدم بقاءه قد أصبح رهن مكاسب الدولة العثمانية منه ، وحيث أن اليمن كان قد أبدى مقاومة دموية كلفت الدولة العثمانية الكثير من الجهد والمال والدماء ، فلماذا يستمر هذا التورط ، وحيث أن بقاء القوات العثمانية أصبح متعذرا ومكلفا وبدون هدف واضح فلا ضير من أن يترك اليمن لأهله .

بعد افتقار تجارة الشرق الغنية ، ونضوب معينها ، وبعد أن اكتشف البرتغاليون رأس الرجاء الصالح ، اتجه العثمانيون إلى استغلال ميناء مخا للتجارة بدلا من ميناء عدن لأن هذا الميناء تحول خلال النزاع البحري بين العثمانيين والبرتغاليين إلى قلعة حربية عند مدخل البحر الأحمر مما ساعد على اضعاف أهميته التجارية .

وكان اكتشاف زراعة البن في المنطقة الخلفية لميناء المخا وتحول محصوله إلى محصول اقتصادى ، قد جعل العثمانيين يحولون أنظارهم إلى هذه الزراعة الهامة ذات النفع الاقتصادى ، والتي تجود بها أرض اليمن ، حيث تتوفر فيها المياه الجوفية ، وخصوصية تربتها البركانية ، ونشاط شعبها ، واتقانه زراعة البن على المدرجات الجبلية ، هذا المحصول الاقتصادى بالإضافة إلى قرب ميناء المخا من السواحل الأفريقية المواجهة له ، جعلت العثمانيين يستفيدون من وراء تلك التجارة ، ولكن الحروب التي وقعت في اليمن في القرن السابع عشر أثناء مناهضة العثمانيين للإمام القاسم ودعوته ، جعلت هذه الثمرة الاقتصادية تيسر بسبب إهمال الأهالي للزراعة ، وبسبب الحروب المستمرة ، وخاصة في جبل صبره ، حيث تعرضت هذه الأشجار للقطع والحرق والآفات الزراعية " ولا سيما حين طلع أهل الحجرية سنة ١٠٠٦ هـ على المزارع فطفقوا البن قطعاً لأشجاره وتحريقاً لجذوعه وعروقه وآثاره " (١) .

وكان نزوب هذا المورد بالإضافة إلى ضعف النفوذ البرتغالى والتحالف الحبشى قد أدى إلى أن اليمن قد فقدت أهميتها الاقتصادية كذلك ، وقتل من أهميتها في نظر العثمانيين ، بالإضافة إلى الخلل الذى طرأ على الدولة حينذاك وانعكس على اليمن ، وما تكبدته الدولة من خسائر كبيرة بسبب كثرة الحروب المستمرة منذ وصولها إلى أرض اليمن ، فقد أصيبت الدولة العثمانية

(١) الموزعى - الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥٢

فى آخر القرن السادس عشر بالاختلال العسكرى والضعف فى كافة مرافقها وكانت الدولة فى حالة عجز تام عن القيام بأى عمل حاسم حتى فى اليمن ، فسان اعداد الجيوش الذاهبة إلى اليمن كان يوكل من أمرها إلى والى مصر ، غير أن ضعف الدولة العثمانية بوجه عام كان ينعكس على ولاياتها ، لذلك لم تستطع مصر امداد اليمن بالجيوش التى كان يلح فى طلبها ولاية اليمن ، فقد بدأ هذا الخلل من عهد السلطان سليمان القانونى يظهر فى نظم الدولة العثمانية وأوضاعها ، الا أن قوة شخصية السلطان سليمان ، وقوة نظم الدولة وتماسكها حتى ذلك الحين قد أخفى آثار هذه الاضطرابات إلى أمد بعيد ، لكن عندما تولى الدولة خلفاء ضعاف بدأ هذا الخلل يظهر فى أسمى معانيه على جميع أجزاء الدولة وخاصة فى الأطراف البعيدة النائية ، وخاصة اليمن التى تكثر بها الفرق المذهبية .

وقد تعرضت فى الفصل الخامس لهذا الخلل الذى دب فى أوضاع الدولة العثمانية وأسبابه وكيفية انعكاسه على أوضاع اليمن ، مما جعل الدولة تفرير أهدافها من فتح اليمن ، التى أخذت تقل أهميتها تدريجيا حتى انعدمت تلك الأهمية . أو كادت ، ومن ثم كان اخلاء اليمن ، بالإضافة إلى انشغال الدولة العثمانية حينذاك فى مشاكلها الأخرى الأكثر إلحاحا ، ثم ان بعد اليمن عن مقر السلطنة وصعوبة فرض السيطرة العثمانية بسبب ذلك قد عجل من ارتخاء قبضة الدولة عليها مما جعل هذه السيطرة تنكش تدريجيا .

ويضاف إلى ذلك كله سوء سياسة الولاة وعدم اهتمامهم برعاية شئون

الأهالي ، بالإضافة الى تقسيم اليمن الى ولايتين مما أضعف قوة العثمانيين الذاتية وذلك لتنازع الواليين حول الأموال والقوات وتعيين الحدود بين ولايتيهما ،^(١) وأدى تذمر اليمنيين من سوء الأحوال في بلادهم إلى الوقوف في وجه العثمانيين وكان لقوة شخصية الإمام ومهارته السياسية والعسكرية أثر في الاحتفاظ بوحدة الجبهة الزيدية تحت زعامته ، ثم تحت زعامة أولاده من بعده ، حتى تتم إخلاء اليمن في عهدهم .

وكان من أهم مظاهر ضعف الحكم العثماني ، وبداية نهايته في اليمن عقد الصلح لأكثر من مرة مع الإمامة الزيدية ، وكان أول صلح في عهد للدولة القاسمية في عهد الإمام القاسم سنة ١٠١٦ هـ مع جعفر باشا ، الذي أتى اليمن وقد تنازعتة الفتن والاضطرابات بسبب سياسة سنان باشا القاسية ، ووجد جعفر باشا أن من مصلحة الدولة عقد صلح مع الإمام لتهدئة الأحوال به ، وقد أطمى الإمام القاسم شروطه في هذا الصلح على جعفر باشا بما يظهر مدى التوازن بين القوتين ، وكان هذا الصلح في الحقيقة تنويجا لانتصارات الإمام القاسم في نهاية الكرة الثانية ، حتى ان الجرُموزي صاحب سيرته وصفه بأنه كصلح الحديبية ،

ولعل الجرُموزي قال بقولته هذه نتيجة مقارنته بين الصلحين ونتائجهما فقد استعاد المسلمون من صلح الحديبية اعتراف قريش بقوتهم ومركزهم واعترفت الدولة العثمانية بقوة الإمام القاسم ومركزه ، والآن لما عقدت معه الصلح ، فان

(١) الموزعي - الاحسان ودخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ١٣ ،

النهر والى - البرق اليماني في الفتح العثماني ص ١٥٩

عقد الصلح معناه فى الحقيقة الاعتراف بقوة الطرف الثانى ، وخاصة أن إمام القاسم هو الذى ألقى على جعفر باشا شروط الصلح ،

وكما تمكن المسلمون أثناء الهدنة من نشر الاسلام بين القبائل العربية ، فقد استطاع الإمام أثناء هذا الصلح ، أن ينشر دعوته بين القبائل ، التى كانت تتردد فى الوقوف إلى جانبه ، خوفاً من بطش العثمانيين ، بالإضافة إلى أن بعض القبائل الواقعة إلى جانبه كانت طامعة فى الغنائم وليس لنصرة دعوته ، إذ كانت هناك الكثير من البدع والخرافات المنتشرة بين أهل اليمن ، ولم يستطع الإمام القضاء عليها ، أو إقامة الحدود ، لانشغاله بالحروب المستمرة وتنقله من إقليم إلى آخر ، فكان هذا الصلح تدعيماً لنفوذه فى البلاد حيث استطاع أن يقيم الحدود الشرعية ، ويقضى على البدع ، ويضع البذرة الأولى للدولة القاسمية .

(١) كما كسب المسلمون عطف القبائل العربية بعد أن منعتهم قريش من الحج فقد استطاعت القبائل أثناء الصلح أن تتصل بالإمام دون خوف من العثمانيين وناصروا دعوته ، وانضموا إليه بالآلاف لأنهم آمنوا واطمأنوا بهذا الصلح .

(١) أمين دويدار - صور من حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ص ٤٦٧

(٢) الشرفى - اللآلئ المضيئة ص ٢١٠

وهكذا كان لهذا الصلح أثر في تطور تاريخ اليمن فيما بعد ، فقد أعقبه عدة مصالحات ، كانت ظروفها تقريبا متشابهة ، معبرة عن مدى ضعف نظام الحكم العثماني وخلخلة نظمته ، ففي صلح سنة ١٠٢٨ هـ الذي عقده الإمام القاسم أيضا مع محمد باشا ، بعد أن رفض الأخير أول الأمر هذا الصلح ، لأنه اغتر بمعلوماته النظرية عن أوضاع اليمن ، وأصر على شن الحرب على الإمام ، إلا أن واقع اليمن خيب آمال محمد باشا ، فعاد إلى الموافقة على الصلح مع الإمام بعد حروب استمرت ثلاث سنوات متواصلة ، لم يستطع أن يحرز فيها نصرا يذكر ، بل على العكس تمكن الإمام خلالها من أن يوسع ممتلكاته في المنطقة الشمالية على حساب العثمانيين .

وكذلك صلح سنة ١٠٤٠ هـ الذي عقد بين الإمام المؤيد وقانصة باشا الذي أتى لانقاذ السيطرة العثمانية بعد ما أصابها من تدهور على أيدي أولاد الإمام القاسم الحسن والحسين ، وبعد أن استطاعوا في خلال عامين من وفاة والدهم مد سيطرتهم إلى أقاليم اليمن المختلفة بما فيها صنعاء وتعز ، ولم يبق في أيدي العثمانيين سوى زبيد ، وقد أتى قانصة باشا لارجاع هيبة العثمانيين في اليمن كله ، لكن أعماله باءت بالفشل وتقهضت قانصة باشا عن القيام بأي عمل إيجابي ، مما اضطره إلى طلب الصلح من الإمام المؤيد (١) في شهر المحرم سنة ١٠٤٠ م .

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٦٢

ثم عقد صلح آخر في عهد الامام المؤيد سنة ١٠٤٥ م بينه وبين قانصوة باشا أيضا الذي حاول أن يقوم بانتفاضة أخرى لاعادة السيطرة العثمانية ، وتركزت جهود هذه المرة في زبيد والمخا حيث أرسل حملة إلى جيزان للاستيلاء عليها بفترة ، مما اضطر شيوخ تلك المناطق إلى اللجوء للإمام المؤيد والاستعانة به ضد العثمانيين ، وقد انسحبت جميع الحاميات العثمانية إلى تهامة لتركيز الدفاع عنها عندما علمت بتحريك جيوش الامام المؤيد إلى زبيد ، وأظهر العثمانيون حينذاك نشاطا حربيا ملحوظا ، حتى لا يضيق حولها النطاق ، لكن جهود الحسن ابن القاسم وقواته ، بالإضافة إلى التفاف أهالي المنطقة الجنوبية حوله ، أدت إلى الحاق الهزائم بالعثمانيين واضطر قانصوة باشا الى طلب الصلح في محرم سنة ١٠٤٥ هـ ، و

وهنا كانت نهاية العثمانيين في اليمن حيث طلب قانصوة باشا بعد هذا الصلح بشهر واحد مغادرة اليمن بدون شرط أو قيد ، وتم جنسلاء العثمانيين سنة ١٠٤٥ هـ = ١٦٣٥ م .

هذه المصالحات بالإضافة الى سوء السياسة العثمانية في اليمن جعلت استمرارهم فيه أمرا محال ، فان اليمن لم تنعم باستقرار في عهد واحد من الدول التي تتابعت عليها ، ومنيت البلاد بنظام مزدوج عجيب لم يصيب به جزء آخر من الجزيرة العربية ، فقد وجد في اليمن نظام الولاية ونظام الامامة ، وكان للوالي كما رأينا مناطق نفوذه ، وللدولة مناطق نفوذ أخرى ، وكانت

القوتان في عراق مستمر وكر وفسر ، وقد عرف هذا العصر بعصر ثنائية السلطة في غرب الجزيرة العربية أى في اليمن والحجاز حيث كان نظام الشرافة أو حكم الأشراف في الحجاز إلى جانب الوالى العثماني ، وهذه الثنائية في كل منهما كانت هي العامل الفعال في تشكيل تاريخ اليمن ، وتاريخ الحجاز في العصور الحديثة ، وقد تباينت سياسة العثمانيين في هذين الجزأين بشكل واضح ، فبينما سائر العثمانيون ظروف الحجاز وأقروها ، حيث كانت علاقتهم بأشراف الحجاز علاقة طيبة ذات نتائج مفيدة ، وقد غمر السلاطين العثمانيون الحجاز بالكثير من عطفهم ، وحسن سياستهم ، وكان كل منهم لا يتردد في اقرار الشريف على امارته ، وارسال الخلع والهدايا إليه ، ومن الواضح أن قرب الحجاز للدولة العثمانية بالنسبة لليمن ، ثم توفر العاطفة الدينية ، كان لذلك تأثير بعيد المدى في السياسة التي نعم بها الحجاز .

أما بالنسبة لليمن فقد كان له وضعه الخاص داخل الاطار العثماني العام نظرا لطبيعة البشرية والطبيعية ، ان أننا نجد أن البيئة اليمنية تختلف في تنوع سكانها فهناك الشافعي والزيدي والاسماعيلي ، وهناك السهلي والجبلي ، وقد رأينا التطاحن الذي حدث بين الزيدية والقوى السياسية المتمثلة في الدولة العثمانية ،

وكذلك أدى وجود الجبال والمرتفعات عموما إلى التقليل من فاعلية الجيوش العثمانية لتحصن أهل اليمن بها ودرايتهم بمسالكتها ، وجعل الفقر

الاقتصادى لهذه المناطق أهل اليمن أكثر حساسية من غيرهم ، لذلك نجد أن اليمن كانت أحق بسياسة التهدة من جانب العثمانيين ، ويزيد الحاجة إلى ذلك ، أن اليمن كانت تواجه منطقة الخطر البرتغالى ، وأن اليمن نقطة ارتكاز لمشروعاتهم فيما وراء البحر الأحمر ، غير أن ما حدث هو العكس ، فقد اقترن الفتح العثمانى لهذه المنطقة بسفك الدماء والهدم والتخريب ، وزاد الحالة سوءاً بعد هذه المنطقة عن عيون الدولة ، مما شجع الولاة العثمانيين على ارتكاب المظالم دون أن تدرى الدولة بذلك ، كما حدث فى عهد سنان باشا ، حيث كان الأهالى يرفعون مظالمهم إلى السلطان ، ولا يجيبهم عليها لعدم وصولها إليه بسبب تواطؤ سنان باشا مع أحد الوزراء فى الأستانة ، وعند ما مات هذا الوزير وجدت شكاوى أهل اليمن مخبأة عنده ، لذلك كان استقرار الحكم العثمانى فى اليمن أمراً صعباً ومكلفاً .

ونتيجة لذلك كله تغيرت نظرة اليمنيين إلى العثمانيين رغم سمو الهدف الذى أتت الدولة العثمانية من أجله إلى اليمن ، وهو حماية الأراضى المقدسة من الخطر البرتغالى الصليبى ، لكن سوء السياسة العثمانية فى اليمن ، وسوء تصرفات بعض الولاة والعمال والجنود العثمانيين كانت تشير ضيق اليمنيين وتذمرهم منهم ، فقد أتى هؤلاء ببعض التصرفات التى كانت تسمى إلى سمعتهم الأخلاقية والدينية رغم ما كانوا يشيعونه من أنهم حماسة الاسلام ، وكانت هذه التصرفات إما أعمال سلب ونهب فردية ، أو ابتزاز لأموال الأهالى لتغطية تكاليف الحياة التى كانت لا تتفق مع مرتبات العثمانيين المنخفضة حينذاك ، والتى كانت لا تتناسب مع ميلهم إلى الترف والبذخ ،

بالإضافة إلى الأخطاء الأخلاقية ، التي تقع دائما من جانب جنود جيش أجنبي عن البلاد ، مثل اقبالهم على الزنا وشرب الخمر والولع باللهو والطرب ، وغير ذلك مما كان يشير أهالي البلاد ، وكل هذه التصرفات جعلت الإمامة القاسمية تنظر إلى العثمانيين بأنهم رجال خارجين على أصول الاسلام ، ويتضح ذلك من السمات التي شاعت في هذه الفترة ، فكانوا كثيرا ما يطلقون عليهم الظالمين ، ويطلقون على أنفسهم جنود الحق أو المجاهدين .^(١)

وتظهر هذه النظرة بجلاء فيما أبرزه الكتاب والمؤرخون اليمنيون المعاصرون وقتذاك على اختلاف مواضعهم ، فقد أبرزوا الكثير من أخطاء العثمانيين الاجتماعية التي كانت تؤذي مشاعر اليمنيين ، ومن صور هذه التصرفات ما ذكره أحد المعاصرين قائلا : "وأما النسوان ففي كل مدانهم لهن حوانيت معروفة مأهولة للفساد ، متخذة لهذا المعنى ، وكل فاسدة تزين نفسها وبابها وتعرض لمن مر عليها ، وعليهن وال ، وعلى كل واحد اقبال يومية وشهرية" ^(٢) وذلك بعد أن تحدث عن معاشرة الجنود للصبيان ومجاهرتهم بذلك .

وقد استطرد الجرموزي في وصف العادات السيئة فقال "وأما الخمور فظاهرة تدار عليهم في الأسواق كما يدار بالماء ، . . . أما اللهو والطرب فهو عادتهم المعروفة وأخلاقهم المألوفة ، وأما المعاملة في الربا فظاهرة غالبية

(١) الشرفسى ، اللآلىء المضيئة ص ٢٣١

(٢) الجرموزي - النبذة المشيرة ص ٨٨

عليهم ولا يذكر فيه تحريم ولا تحليل ، وإنما يسمونه فايده ، والغدر بمن آمنوه
يسمونه دولا با ” (١) .

وكذلك ما كانوا يفعلونه من قتل والتمثيل بالقتلى وسلخ جلد الشخص وهو
حي ، ثم يأخذونه فيملؤونه تبنا ويلبسونه قميصا وعمامة وينصبونسه ، أو يدار به ،
وكذلك كما فعلوا بالسيد عامر عم الإمام القاسم ،

كل هذه التصرفات التي كان يقوم بها بعض الجنود والعمال في اليمن ،
كجعلت نظرة اليمنيين تتغير تجاههم بنظرة سيئة لا تتفق وسمو الهدف
الذي جاءوا من أجله ، فشحت النفوس كرها لهم وبغضا ، وأتى حين
كان الجهاد ضد العثمانيين أقدس واجبات الزيديين وأقرب إلى الجنسة
في رأي الزيدية ، وذلك أيضا كان من أهم الأسباب التي جعلت اليمنيين يلتفون
حول الإمام القاسم ويناصرون دعوته .

رغم خضوع اليمن للسيطرة العثمانية ، فإن هذه الصراعات المستمرة
جعلت من الصعب أن نوضح بالتفصيل حقيقة الوضع الإداري لليمن في
هذه الفترة ، لانصراف أغلب المراجع المعاصرة عن توضيح هذا الموضوع ،

غير أن الرسالة التركية التي اعتمد عليها ساطع الحصرى قد قدمت لنا بعض المعلومات الموجزة عن طبيعة الوضع الإدارى فى اليمن فى أوائل القرن السابع عشر^(١) ، إذ أنها أوضحت أن اليمن لم يقسم إلى إقطاعات عسكرية مثل أغلب الولايات التابعة للدولة العثمانية فى ذلك الوقت ، بل كانت عبارة عن إيالة أو ولاية ، تضم تسعة ألوية أو سناجق ، هى : صنعاء ، مخا ، زبيد ، تعز ، صهيلة ، كوكبان ، الطويلة ، مأرب ، عدن .^(٢)

وأوضحت هذه الرسالة من ناحية أخرى أن ضرائب الولاية اليمنية وتكاليفها المختلفة كانت تجبى باسم خزينة الدولة مباشرة ، أو عن طريق الالتزام ، وكان يخصص لأمرائها ورؤسائها رواتب مقننة ، تدفع لهم من الخزانة ، وتعرف باسم السليانة .^(٣)

(١) الرسالة التركية ، عنوانها قوانين " آل عثمان در مضامين دفتر ديوان " يعنى " قوانين آل عثمان فى ما يتضمنه دفتر الديوان " ، ألف هذه الرسالة عين على أفندى سنة ١٠١٨ هـ = ١٦٠٩ م الذى كان أميناً للدفتر الخاقانى .

(٢) ساطع الحصرى - البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٢٣٠ .

(٣) السليانة - المقرر السنوى .

واتضح لنا من خلال البحث أن الجهاز الإدارى الحاكم فى اليمن هو فى نفس الوقت الجيش المكلف بالمحافظة على السيطرة العثمانية ، وكان والى اليمن هو القائد الأعلى للجيش العثمانية به ، كما أن السناجق^(١) والكشاف وغيرهم من حكام المدن أو القرى اليمنية هم قادة الفرق العسكرية هناك ، وكان النظام الإدارى فى اليمن يقوم على شكل هرمى ، يقف والى عند قمته ، ثم يأتى بعده الكتخدا والدفتردار^(٢) ، ثم مجموعة حكام الأقاليم والمدن الهامة أى السناجق والكشاف ، ثم يأتى بعدهم أمراء الآلايات والصواشية^(٣) ، وهم قادة الفرق العسكرية الصغيرة ، وحكام المدن أو الأقاليم الأقل أهمية ، وقادة الحاميات الحصون ، ورؤساء للقوات المتناثرة فى أنحاء اليمن ، والتي كانت مهامها حفظ الأمن .

كما استعان العثمانيون بأهالى البلاد فى مختلف الوظائف والرتب فى الادارة والجيش ، بصرف النظر عن الاختلافات المذهبية ، فتولى اليمنيون حكم بعض الأقاليم ، وقادوا الفرق العسكرية ، وتولوا الوظائف الادارية والمالية المختلفة ، بل وتولى بعضهم الوظائف الكتابية فى

(١) السناجق - رؤساء الألوية .

(٢) الكتخدا - الوزير ، والدفتردار - رئيس موظفى الواردات والخزنة من الولاية .

(٣) الصواشية - من يقوم بأعمال الشرطة .

الديوان العثماني ، وذلك كما حدث مع أمراء آل شرف الدين ، الذين منحهم العثمانيون الألقاب المختلفة وعينوهم حكاما للمناطق الشمالية أو قادة للفرق العسكرية ، وذلك لخلق طبقة يمنية قوية تلتف حولهم لزيادة سيطرتهم على البلاد ، وكان ضعف الولاة أو فسادهم يؤدي الى انتشار الظلم أو الفوضى في البلاد لضعف الاشراف العملى على حكام الأقاليم ، وعلى تصرفات الجنود والضباط العثمانيين..

وقد رأينا خلال فصول الرسالة أن فساد بعض الأمراء كان يؤدي الى انتشار الفوضى في الأقاليم ، وأن الولاة الأقوياء مثل جعفر باشا ومحمد باشا كانوا يقفون ضد تفشى الظلم والفساد واستئصال أسباب شكوى الأهالى..

وقد تحرى السلاطين ورجال الدولة العثمانية الدقة في اختيار ولاة اليمن ، خاصة قبل أن ينتشر الفساد بين نظم الدولة وأجهزتها ، اذ كان يتم اختيار هؤلاء الولاة من بين ماليك السلطان الخاصة ، فيكون السلطان مطمئنا الى سياستهم وتصرفاتهم ، أو ممن تولوا نيابة غزوة أو مصر مثل محمد باشا ، وذلك ليكونوا على دراية بأحوال اليمن ، وعلى علم بأخباره ، غير أن تفشى الفساد في أجهزة الدولة أتاح الفرصة أمام بعض الولاة الضعفاء أو الفاسدين لتولى أمور اليمن ، فقد اعتمد بعض الولاة في اليمن للوصول إلى مناصبهم على الهدايا والرشوة لرجال

استانبول ، أو على قرابته إلى بعض الولاة ، كما رأينا من أمير صعدة العثماني الذي اعتمد على قرابته من أحد رجال الدولة في استانبول فعمل على عزل والي اليمن جعفر باشا رغم صلاحيته ، وذلك بعد أن عزله جعفر باشا عن أمارته ، وحاربته لتمرده ولميوله الاستقلالية .

ومن ناحية ثانية كان العثمانيون يشتهرون بدقة التسجيل واهتمامهم بالسجلات والدفاتر الحكومية ، وذلك منذ قيام دولتهم ،^(١) واتضح هذا بصورة كبيرة في اليمن ، وكان الولاة والعمال يهتمون بتسجيل التقسيمات الإدارية المختلفة ، كذلك عنوا بتسجيل أسماء مولى الخزينة العامة من ملاك وفلاحين أو تجار أو غيرهم ، كما حرصوا على تسجيل اتفاقيات الصلح التي يتم إبرامها بينهم وبين أمراء اليمن ، حيث كان يتم التسجيل الصلح في اجتماع كبير يحضره العلماء والأعيان وكبار الضباط وغيرهم ، ثم يدون محضر بذلك الاجتماع يوقع عليه الشهود لتوثيقه .^(٢)

واعتنى سنان باشا سنة ١٠١٣ هـ برسم دفتر في أوقاف صنعاء ومساجد ،^(٣) وكان على كل وال يجري عزله أن يعد دفاتره للوالي الجديد حتى يحاسبه

(١) علي همت - أبو الفتح السلطان محمد الثاني وحياته العدلية (ترجمه

من التركية محمد احسان) ص ٩٦ .

(٢) الموزعي - الاحسان ودخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٦٣

(٣) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٥٠

على المصروفات والواردات ، ويقدم له ما لديه من أموال وسلاح قبـل رحيله ، وكثير ما قتل الوالى المعزول دفترداره قبل رحيله ، حتى لا يظهر للوالى الجديد ما ارتكبه من ظلم وغش ، كما فعل سنان باشا بالأمرحسين دفترداره قبل رحيله .^(١)

ومن ضمن التنظيمات الادارية التى اتبعتها العثمانيون تجاه القبائل التوية التى تحتفظ دائما بتنظيماتها القبلية والتى تقطن المناطق الجبلية الوعرة ، أو المناطق البعيدة عن الزراعة المأهولة بالسكان ، والتى تكون أميل إلى الخروج على السلطة المركزية ، لأنها تدير أمورها بنفسه وفق تقاليدها الخاصة ، وكانت مصدر قلق كبير على العثمانيين ، وكثيرا ما كانوا يقومون بالغارات للحصول على حاجاتهم الضرورية نظرا لفقـر أقاليمهم ، وقد خشى العثمانيون هذه القبائل لشدة بأسها ، ولأنهم قبائل محاربة قوية ، تؤثرفى الحركات المناهضة للعثمانيين ، لذلك اتبعت معها الدولة الأساليب السياسية أحيانا لتقريبها إليهم ، كما قدم بعض الولاة لهم الهدايا والأموال لجذبهم إليهم ، أو منحهم ألقابا ،

وقد استخدم العثمانيون نظام الرهائن من القبائل والأقاليم لتحقيق الأمن والهدوء في البلاد ، ورغم أن سياسة جمع الرهائن كانت ظاهرة تقليدية في البلاد إلا أنها كانت سببا في كره اليمنيين للعثمانيين ، لأنهم أساءوا استعمالها ، فأكثر من عدد الرهائن التي كانوا يجمعونها ، كما أساءوا في معاملة هؤلاء الرهائن رغم أنهم دائما كانوا من بين ذوي المكان والرفعة وسط قبائلهم ، وذلك كما فعل سنان باشا الكخيا أثناء حروب الإمام في قبائل وادعة ، إذ أخذ من بينهم الرهائن من الرجال والنساء ، وأخذ المحاربين منهم ، وأرسلهم إلى المناطق الجنوبية من اليمن للانضمام إلى صفوف العثمانيين في حروبهم ضد قبائل يافع وغيرها .^(١)

أما النظم الحربية التي اتبعها العثمانيون في اليمن ، فقد نتج من اعتماد العثمانيين على القوة العسكرية في فرض سيطرتهم في اليمن أن التزموا باتباع سياسة معينة ، وهي ضرورة ارسال النجادات والامدادات إلى ولايتهم لتدعيم هذه السيطرة ، وذلك رغم عجز الدولة أحيانا عن تجهيز الامدادات القوية ، ورغم عزوف الجنود والولاة عن الذهاب إلى اليمن لكثرة الحروب به ولصعوبة الإقامة فيه .

وحين انشغلت الدولة العثمانية في الميادين الأكثر أهمية كانت توكل

أمر ارسال النجدة إلى اليمن لوالى مصر العثمانى ، ولكن عندما دب الخل فى نظم الدولة انعكس على جميع ولاياتها بما فيها مصر ، مما كان سببا فى تجميع الجيوش التى يطلبها ولاية اليمن من الفلاحين وعامة الناس ، ويدل على ذلك قول محمد باشا عندما استشار أصحابه فى صلح سنة ١٠٢٨ هـ قوله " والعسكر الموجود ليس فيهم من عسكر الأروام (العثمانيين) الذى عرف بالاقدام ومارسوا الحروب غير شرذمة يسيرة " (١)

وكان تعداد جيوش العثمانيين فى اليمن فى المتوسط حوالى عشرين ألف جندى منهم خمسة عشر ألف جنديا من العثمانيين ، والباقي من العرب من أهالى البلاد الذين كانوا يدخلون فى خدمة العثمانيين ، حيث كان هؤلاء يبقون فسى أقاليمهم للمحافظة على الهدوء أو يحاربون بجانب العثمانيين فيها ، وكان العثمانيون يحرصون على استخدام هؤلاء للاستفادة من خبراتهم بأحوال بلادهم ، أولخدمة أفراد الجيش أثناء الحرب أو السلم ، ويسمى الذى يقوم بالخدمة فى الجيوش باسم (الشفاليه) وهم طائفة من العرب مطلقين من كل قبيلة يأكلون العلوفة ، أى المرتبات العينية السلطانية ، ويخدمون العسكر سفرا وحضرا ويسمى الواحد منهم شغلوت . (٢)

(١) يحيى الحسين- أنباء أبناء الزمن ص ١٤٦

(٢) النهر والى- البرق اليماني فى الفتح العثمانى ص ٨٧

وقد اهتم الولاة بإنشاء الحصون ، وتعمير القلاع وشحنها بالسلاح والعتاد .

وقد سبقت الإشارة إلى أن القادة العسكريين هم أنفسهم القادة الإداريين ، أما الأدوات الحربية التي استخدمها العثمانيون في اليمن ، فكانت أحدث الأسلحة المعروفة في ذلك الوقت ، ومنها المدفعية الثقيلة ، والأسلحة الخفيفة مثل البنادق ، والمسدسات وغيرها ، وقد استخدم العثمانيون سلاحا يسمى كخا^(١) وهو يوضع على سنة قوس لرمى الحجارة الدقيقة ، وله رأسان مربعة الشكل يرمون خلالها هذه الحجارة فتشق رأس عدوهم ، واستخدموا الضربزنا ، وهي نوع من المدافع يحشى بالبارود ، وتشمل فيها النار فترمى قذيفتها ، والزيارات ، وهي آلة ضخمة تستخدم فى رمى النفط ، واستخدموا الرصاص والمكاحل ، وهي ما يشبه القنابل فى العصر الحديث^(٢) .

أما النظم المالية ، فقد اتبع المسئولون العثمانيون فى اليمن شتى الوسائل المتتوية للحصول على المال ، ولكن بعض الولاة مثل حسن باشا ، الوزير ، قد ألغوا بعض العادات السيئة التى كانت تهدف إلى الحصول على

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ٨١

(٢) الموزعى - الاحسان ودخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٢

الأموال بشتى الطرق ، ومنها عرف باسم الرسامة ، وهى الاتاوة التى كان يفرضها حراس السجون على المساجين والرهائن ، وكان حسن باشا قد اكتشف هذه العادة عن طريق الصدفة عند سماعه لصراخ أحد المساجين أثناء تعذيبه ، لاجباره على دفع هذه الاتاوة ،

ومن ناحية أخرى اتبع العثمانيون نظام الالتزام أو الضمان كما عرف فى اليمن ، لجمع الأموال المقررة على الأراضى ، وهو عبارة عن خراج ، وكان هذا النظام موضع سخط الأهالى وتذمرهم فى كثير من الأحيان ، لما كان به من ثغرات تسمح للقائمين بتنفيذه باستغلال الأهالى فى جمع ثروات خاصة بهم ، لأن العثمانيين لم يقسموا أرض اليمن إلى اقطاعيات عسكرية بل تركت الأراضى لأصحابها ، على أن يدفعوا الخراج المقررة عليها لخزانة الدولة .

والخراج قسمان : خراج مقاسمة وخراج وظيفه ، فخراج المقاسمة هو الضريبة التى تستوفى من الخارج من الأرض بواقع العشر إلى النصف حسب طاقة الأرض ، وخراج الوظيفة هو الضريبة المقررة على الأرض نفسها ، والمستوفاة سنويا ، وقيمة هذا النوع هى العشر حسب الشريعة الإسلامية ، بالنسبة لضرائب الأرض .^(١)

(١) على همت - ابو الفتح السلطان محمد الثانى وحياته العدلية ع ١٢٤

وقد لجأ العثمانيون إلى نظام الالتزام منذ عهد السلطان محمد الثاني سنة ١٤٥١ - ١٤٨١ م ، وذلك لضمان تحصيل الضرائب كاملة ، وكان حكام الأقاليم هم الذين يلتزمون أحيانا بجمع الخراج ، فكان هؤلاء يبيعون بالتالي لغيرهم وهكذا ، وكان جميع هؤلاء يحرصون على جمع الثروات الكبيرة من وراء بيع التزاماتهم ، أو من وراء القيام به ، مما كان يزيد في النهاية من الأعباء على عاتق الفلاح ويزيد من متاعبه •

ولهذا فقد كان من المحاسن التي أتى بها حسن باشا ثم جعفر باشا هي بعض الأعمال الإصلاحية في هذا الشأن لأنه استجاب لشكوى أهالي وادي زبيد ، والفى الضرائب التي تجبى على النخيل غير المشرأو على النخيل الذي تم قطعه لاستعماله في أغراض البناء أو غير ذلك ، وكذلك تجميد الضرائب على النخيل والبقر ، فكان الحياة يحصلون الأموال المقررة في سجلات الدولة من أصحاب النخيل أو من ذريتهم كما هي بغض النظر عما اذا كان هذا النخيل مازال قائما أو لا ، وكذلك الحال بالنسبة للماشية " فأذهب عنهم جعفر باشا رحمه الله ، هذه المظلمة المطلوبة على المفقود ، ولم يبق عليهم الطلب الا فيما هو موجود " (١) .

أما العملة في اليمن ، فقد اهتزت في بعض الفترات تبعا للأحوال

السياسية وتطور الأحداث ، وذلك لأن العملة في أى بلد من البلاد هـى المؤشر الصادق للأوضاع الاقتصادية فى هذا البلد ، إذ أن ارتفاع وثبات قيمة العملة يدلان على ازدهار اقتصاد البلاد واستقراره ، وعلى عكس ذلك فإن انخفاض قيمة العملة واهتزازها باستمرار يدلان على مدى انهيار الأوضاع الاقتصادية ، أو عدم ثباتها ، وقد تلاعب بعض الولاة العثمانيين فى قيمة العملة ، إذ كان هؤلاء يعتمدون على انقاص قيمة الذهب والفضة عند سك العملات المختلفة ، ثم الاستيلاء على هذه الفروق ، وذلك طمعا فى تكوين الثروات الخاصة ، وكان التلاعب فى قيمة العملة وغشها يؤدى إلى الاضرار بأحوال الأهالى الاقتصادية ، وذلك كما حدث فى عهد سنان باشا الكخيا ، حيث ضرب السكة التى عرفت باسم المنافير السنانية . (١)

ولكن تغير السكة من حين لآخر كان يؤدى إلى الاضرار بالناس ، فقد ذكر يحيى بن الحسين عن سنان باشا الكخيا قائلا : " وما جرى من سنان فى اليمن تغير السكة حتى أضر بالناس ضررا عظيما ، فإن السكة لا ينبغي تغيرها عن حالة واحدة ، وكذلك الزيادات فى المكاييل والموازين يحصل بسببه الخل " . (٢)

(١) الموزعى - الاحسان ودخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٧

(٢) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ٤٩

وكان رد الفعل الطبيعى عند الأهالى الإعراض عن تعاملهم بها ، وذلك كما فعلوا مع السكة التى ضربها محمد باشا أثناء ولايته لليمن ، وأصر الأهالى على التعامل بالسكة القديمة " حتى أن أهل البوادر كانوا يشترطون فى قيم سلعهم سكة قديمة " (١) أما العملة التى كانت مستعملة فى هذه الفترة فهى العملة القديمة المعروفة قبل الحكم العثمانى مثل الدرهم ، البقشة ، حرف ، حرف أحمر ، الققلة ، الكبير ، القرش الفضة أبو شط ، وكان يضاف إلى أسماء هذه العملات لفظ عثمانى أحيانا تعبيرا على أنها ضربت فى العصر العثمانى ، وهناك بعض النقود التى ضربها الولاة العثمانيون أنفسهم ، خلال حكمهم وسميت بأسمائهم مثل المناكير السنانية وهى من النحاس كبيرة الحجم ، وكان كل منقار منها يساوى أربع قفال ، والبقشة الفضة أربعة مناقير سنانية .

أما بالنسبة للنظم العمرانية ، فإننا عرفنا خلال فصول الرسالة بأنه طبقا لنظرية الحكم فى العصر العثمانى ، أن الإصلاحات أو الخدمات العامة فى اليمن لم يعطها الولاة الأهمية الأولى ، بل كان هؤلاء يقومون

(١) الموزعى - الاحسان ودخل اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ع ١٠٨

بها أحيانا للتقرب إلى الأهالي ، ولتسهيل مهمة حكمهم ، أولزيادة مسوارد الأهالي لزيادة موارد خزانة الدولة ، أو من أجل رغبة بعض الحكام فى تخليد ذكراهم باقامة المنشآت الكبيرة كالمساجد والمدارس أو القسـلـاع والحصون ، أو بمد طرق وتعبيدها ، إلى الامكن البعيدة أو الوعرة ، وذلك لأن مهمة هذه الحكومة هى تحقيق الأمن والعدل فى داخل البلاد من ناحية ، والمحافظة على الحدود أو توسيع رقعتها من ناحية ثانية ،

وطبقا لهذه النظرية نجد أن المؤرخين المنحازين للعثمانيين يهللون عند ذكر الأعمال الخيرية لأحد الولاة ، أو عند ذكر اهتمام هذا الوالى أو ذاك برفع احدى المظالم الادارية أو المالية ، وكانت حصيلة أعمال العثمانيين الانشائية فى اليمن كثيرة فى الواقع ، تزخر المخطوطات اليمنية التى رجعت إليها بذكر هذه المنشآت العمرانية ، وخاصة الولاة الأقوياء الذين ساد الهدوء فى ولايتهم مثل حسن باشا ، فمن مآثره بناء قببة البكرية فى صنعاء ، وعرفت بهذا الاسم نسبة إلى بكـير أفـا متولى بنائها ، وكانت مبتكرة ولم يسبق إلى مثلها أحد ، وفى سنة ١٠٢٩ هـ أكمل محمد باشا عمارة مسجد طلحه ومنارته المشهورة ووسعه فصار جامعا فيه منبر وفرشه بأجمل الفرش ^(١) واهتم سنان باشا سنة ١٠١٣ هـ بتعمير المساجد وبناء الأضرحة والتكايا والمدارس والربط . ^(٢)

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح ج ٢ ص ١٠١

(٢) الموزعى - الاحسان ودخل اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٦

وكان يرتبط بالاهتمام ببناء المساجد أو تجديد القائم منها ، القيام ببعض الأعمال الخيرية ، ذات الصفة الدينية ، مثل قيام الولاية بزيارة الأضرحة والاشتراك في الاحتفالات الدينية أو الاهتمام بالمحمل اليمنى ، ومن ذلك اهتمام محمد باشا بتجهيز المحمل ، غير أن أعمال الولاية الانشائية لم تقف عند حد تعمير المساجد أو الأعمال الخيرية بل اهتموا أيضا باصلاح الطرق والمدرجات وبناء الجسور للمارة على مياه تربيعى طرقها ، فقد أصلح سنان باشا مدرج نقيل شهارة من وادى رجم إلى الباب الغربى من شهارة ، ورصه بالحجارة المحكمة .^(١)

ولم يقتصر القيام بالأعمال الخيرية والانشائية على الولاية فقط ، بل كان عمال المدن والأقاليم يقومون بدورهم بتنفيذ مثل هذه الأعمال فى داخل مناطقهم ، وذلك مثل ما فعل محمد بن سنان سنة ١٠٢٢ هـ فى ولاية جعفر باشا ، من بناء الساقية فى مدينة تعز ، وهى ذات مياه عذبة وجعلها سبيل لاسقاء الناس ، وجعل بها حوضا يجتمع فيه الماء لشراب البهائم والمواشى .^(٢)

كما اهتم الولاية العثمانيون بانشاء السماسر لغايتها المالية والاجتماعية ، فقد عمر سنان باشا السمسرة المشهورة بمدينة تعز حيث " جعلها سبيلا

(١) الموزعى - الاحسان ودخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٦

(٢) الموزعى - الاحسان ودخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٨

للمسافرين ، ومأوى للنازلين ، وجعل فيها كناسا ، وسقا ، وسراجا دائما ، وجعل من خارجها الدكاكين ووقفها على مصالحها ، وجعل أجره خدامهم من كراء الدكاكين ” (١)

ونحن نلاحظ أن مدينة تعز كان بها اهتمام عظيم عند العثمانيين لأهميتها بالنسبة للمناطق الجنوبية ، حيث أقاموا بها الكثير من المباني والقصور الضخمة واهتموا بتعمير المدارس والمساجد الموجودة بها ، وعملوا على تسوية طرقها على شكل مدرجات وأدخلوا المياه بعد حفر القنوات الموصلة إليها من جبل صبر القريب منها ، وغير ذلك من الأعمال التي أدت إلى ازدهارها نظرا لأهميتها الاقتصادية في زراعة البن .

هذه لمحة من أبرز النظم العمرانية والإدارية والمالية ، التي سلكها العثمانيون في اليمن ، ورغم مرونة نظم الحكم العثماني وخاصة في فترة نسو الدولة ، وقدرة الدولة على أن تستوعب النظم التي وجدت في البلاد المفتوحة ، إلا أنه كانت في هذه النظم بعض الثغرات التي حاول منها بعض الولاة العثمانيين في خلال فترة ضعف الدولة ، أن يجدوا منها طريقا للظلم والفساد في اليمن ، وبذلك نجد أن بعض الولاة العثمانيين قد مهدوا الطريق من حيث لا يدرون لقيام دولة الإمامة في اليمن ، إذ صاحب ضعف الدولة

(١) الموزعي - الاحسان ودخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٦

العثمانية وعجزها عن البقاء في اليمن ، نمو قوة يمنية جديدة هي الإمامة الزيدية التي استطاعت أن تفرض وجودها في اليمن خلال المعارك الطويلة التي خاضتها ضد العثمانيين ، حتى استطاعت أن تحل محل العثمانيين عند خروجهم من اليمن .

وأخيرا فانه يمكن القول بأنه كما كان لدى العثمانيين ما شغلهم عن اليمن أو ما أضعفهم عن البقاء به ، أو الرجوع إليه في ذلك الوقت ، فقد كان لدى اليمنيين ما دفعهم إلى محاربة العثمانيين حتى اضطروهم إلى الخروج من بلادهم ، وبذلك جاءت إمامة الإمام القاسم كدور جد خطير في تاريخ اليمن ، وفي تاريخ شبه الجزيرة العربية ، بل وفي تاريخ الدولة العثمانية .

الملاحق

الطحق الأول

* السلاطين العثمانيون الذين عاشوا
عهد الإمام القاسم بن محمد

١٠٠٦ - ١٠٢٩ هـ

١٥٩٨ م - ١٦٢٠ م

- | | | |
|----------------|---|--------------------------|
| ١٠٠٣ - ١٠١٢ هـ |) | ١ - السلطان محمد الثالث |
| ١٥٩٥ - ١٦٠٣ م |) | |
| ١٠١٢ - ١٠٢٦ هـ |) | ٢ - السلطان أحمد الأول |
| ١٦٠٣ - ١٦١٧ م |) | |
| ١٠٢٦ - ١٠٢٨ هـ |) | ٣ - السلطان مصطفى الأول |
| ١٦١٧ - ١٦١٨ م |) | |
| ١٠٢٨ - ١٠٣١ هـ |) | ٤ - السلطان عثمان الثاني |
| ١٦١٨ - ١٦٢١ م |) | |

* اعتمدنا في كتابه الطحق الأول على مخطوطة : محمد بن محمد أبي اليسر
- المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ص ٧٥ ، ٥٩ ، ٥٢ و ٧٢

المحقق الثاني

* الولاة العثمانيون في اليمن في عصر
الإمام القاسم بن محمد

٩٨٨	-	١٠١٣ هـ	١ - حسن باشا
١٥٨٠	-	١٦٠٤ م	
١٠١٣	-	١٠١٦ هـ	٢ - سنان باشا
١٦٠٤	-	١٦٠٧ م	
١٠١٦	-	١٠٢٥ هـ	٣ - جعفر باشا
١٦٠٧	-	١٦١٦ م	
١٠٢٥	-	١٠٣١ هـ	٤ - محمد باشا
١٦١٦	-	١٦٢١ م	

* محمد بن محمد أبي السرور - المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (مخطوط)
ص ٧٥ ، ٥٩ ، ٥٢ ، ٧٢

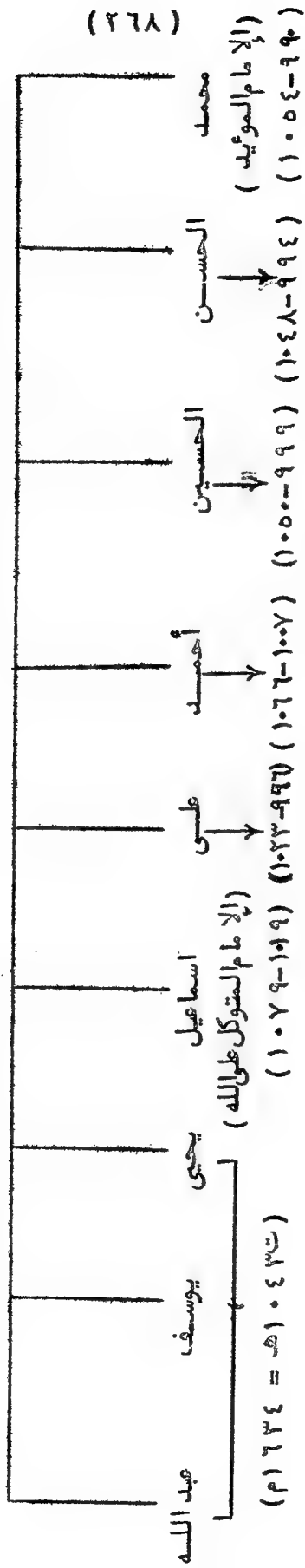
الطهق الثالث

أولاد الامام القاسم بن محمد

(١) الامام القاسم بن محمد

٩٦٦ هـ - ١٠٢٩ هـ

١٥٥٨ م - ١٦٢٠ م



(١) اعتمد نافي كتابة الطهق الثالث على مخطوطة / الجرموزي / النبهة المشيرة
 في كتاب / الواسعي / فرجة الهوم والخرن في حوادث وتاريخ اليمن
 في كتاب / المحبسي / نعمة الريحانة ٣

ملحق خاص بالمراجع

رأيت أن أقدم تحليلا موجزا لمصادر ومراجع هذه الرسالة ، لأنه يصعب في الحقيقة الحديث عن مصادر هذا البحث حديثا مختصرا ، كما أنه من الصعب الأسهاب في تحقيق جميع المراجع ، فالمخطوطات التي اعتمدت عليها في رسالتي كانت تمثل العمود الفقري لها ، لأن هذا لولاها ما أمكن كتابة هذه الرسالة ، أو التفكير في كتابتها ، لأن هذا البحث جديد في الكتابات الحديثة .

وهذا البحث أثره مجموعة من المخطوطات النادرة ، عكفت على دراستها وتحليلها ، منها مخطوطة اللألي المضيفة للشرفي ، وكذلك النبذة المشيرة للجرموزي .

وتقوم أهمية هذه المخطوطات على أساس أن كتابها قد عاصروا تلك الأحداث التي تناولها البحث ، أو أنهم عاشوا في فترات تلي تلك الأحداث مباشرة ، ولذلك نخرت تلك المخطوطات بالتفصيلات المطولة التي ساعدتني على كتابة هذه الرسالة ، وعلى فهم أبعادها والظروف التي أحاطت بها .

لكن قبل الحديث عن كل مخطوطة على حدة ، لابد أن نعرف أن هناك سمات عامة شملت مجموعة المخطوطات التي استخدمتها ، وهي أن هذه المخطوطات اتصفت بوجه عام بضعف الأسلوب والركاكة ، والميل إلى

السمجع في أغلبها ، كذلك امتلأت بالكثير من الألفاظ العامية ، وذلك لانحطاط اللغة في ذلك العصر .

ومن ناحية أخرى ، تشابهت هذه المخطوطات في رداءة الخط الذي كتبت به حتى اضطرتت إلى استخدام آلات التكبير وجهاز للقراءة Reader وصبرت على قراءة هذه المخطوطات لكي أستفيد منها وأفيد ، كما أن ناسخى هذه المخطوطات يغفلون وضع الكثير من النقاط على الحروف ، مع عدم استخدام الهمزات ، مما كان يجعلنى أفسر الكلمة عدة تفسيرات حتى أصل إلى المعنى المطلوب ، فكان ذلك يأخذ من الجهد والوقت الكثير .

وقد التزمت هذه المخطوطات بطريقة الحوليات ، وهى الطريقة التقليدية فى تدوين التاريخ فى العالم الاسلامى حتى ذلك الوقت ، مما كان يؤدي إلى تفتيت الأحداث التاريخية بين عدد من السنين ، بالإضافة إلى أن أغلب هذه المخطوطات كتبت بأقلام منحازة ، إذ كان لكل مؤلف من مؤلفيها موقف خاص من الأحداث التى عاصرها ، فقد انحاز البعض إلى جانب العثمانيين ، وانحاز البعض الآخر إلى جانب الزيديين ، مما أدى إلى صعوبة الاستفادة من هذه المخطوطات ، كما أدى إلى ضرورة الحذر الشديد والتريث عند الرجوع إليها ، حتى أتخلص من نزعات الرضى أو السخط فى الأخذ منها .

كما أن هذه المخطوطات جميعها اهتمت بالجانب السياسى ، دون الاهتمام بالنواحي الاقتصادية أو الاجتماعية السائدة فى الدولة العثمانية أو الدولة القاسمية إلا ما جاء عابرا فى قصص تروى فيها دون القصد من أنها ناحية اجتماعية أو اقتصادية ، بالإضافة إلى أن تلك المخطوطات قد امتلأت بالمدح أو الذم للقوى المعاصرة وقتذاك ، إذ كان ذلك من طابع هذا العصر الذى نحن بصدده الحديث عنه ، فنجد أن من انحاز إلى جانب العثمانيين يطنبون فى مدح السلاطين والولاة ، ويطلقون عليهم الألقاب العظيمة ، ويبالغون فى وصف أعمالهم وفى تمجيدهم إلى حد بيعت الطل مثل مخطوطة الموزعى ، الاحسان فى دخول اليمين تحت عدالة آل عثمان ، وفى نفس الوقت يكثرون من مهاجمة القوى الأخرى بنعوت مبالغ فيها حتى تدفع المرء إلى الشك فى الأخذ بتلك الاتهامات .

كذلك فعل من كتب بأقلام زيدية فقد نعتوا العثمانيين بصفات الكفر والاحاد والخروج على الدين ، وأخذوا يسفهن أعمالهم ويحقرونهم ويطلقون عليهم الظلمة .

كما أننا نجد أن أكثر من كتب هذه المخطوطات من رجال الدين والفقهاء ، والقضاة والوعاظ وغيرهم ، فقد كان رجال الدين بوجه عام يمثلون الطبقة المثقفة فى ذلك العصر ، وكانوا هم الذين يكتبون التاريخ ويؤلفون فى نواحي المعرفة الأخرى ،

كذلك التزم مؤلفو هذه المخطوطات بالمنهج السائد في تلك القرون ، فقد كانوا مؤلفو هذه المخطوطات يعتمدون إلى توثيق المعلومات التي يسوقونها في مخطوطاتهم ، والتي لم يعاصروها ، فيذكرون في مقدمتها المراجع التي نقلوا عنها ، مع الإشارة بنظرة فاحصة إلى أهمية كل منها ، أما الأحداث التي عاصروها فانهم يعتمدون إلى ذكر الأشخاص الذين روى هذه الأحداث ، فيشيرونها إلى هؤلاء الأشخاص بقولهم : حدثني فلان ، إلى غير ذلك من تلك العبارات الدالة على المصادر ، أما الأحداث التي شاهدوها بأنفسهم فكانوا يعتمدون إلى الإسهاب في وصفها ، مع ذكر الشخصيات الكبيرة التي احتكوا بها .

كما حرص هؤلاء المؤلفون في مقدماتهم على ذكر المنهج الذي التزموه في كتاباتهم ، فيوضحون الغرض الذي دفعهم إلى الكتابة ، سواء كان غرضاً شخصياً مثل تكليف أحد الولاة لهم بكتابة تاريخ اليمن أو جزء منه ، أو حتى للتقرب إلى هذا الوالي أو ذاك ، أو مثل الدفاع أو الهجوم على إحدى القوى المعاصرة حينذاك ، أو لتقديم العظة والاعتبار للمسلمين الذي كان من أهم الأغراض لكتابة التاريخ عند مؤرخي المسلمين وقتئذ .

ثم يواصل هؤلاء توضيح منهجهم فيذكرون في مقدماتهم أيضاً الطريقة التي قسموا بها مخطوطاتهم إلى أبواب وفصول ، ويوضحون أسباب هذا التقسيم وأسباب إبرازهم لبعض الأحداث دون البعض الآخر ، وأسباب تمسكهم

بطريقة الحوليات .

غير أن هذه النقائض والملاحظات جميعها لم تقلل من أهمية هذه المخطوطات بالنسبة لموضوع الرسالة ، فقد تميزت بوفرة مادتها ، وباتصال هذه المادة بموضوع البحث مباشرة ، ومتنوع وجهات نظرها .

فرغم عيوب كتابة التاريخ على طريقة الحوليات على سبيل المثال ، فإن هذه الطريقة نفسها تعطي الفرصة لذكر الكثير من التفاصيل التي لا غنى عنها لتوضيح الصورة العامة لأحداث تلك الفترة ، مما كان يساعد باستمرار على توضيح وجهات النظر المختلفة مما كان يعمق في النهاية فهمنا لتطور الأحداث .

لذلك يمكن أن نحلل كل مخطوطة على حدة لأن كلا منها كانت تتميز بميزات خاصة مهما صغر حجمها أو قلت مادتها ، وسأبدأ بالأهم فالمهم : وأولى هذه المخطوطات هي مخطوطة " النبذة المشيرة " إلى جمل من عيون السيرة في أخبار المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي " لمؤلفها الجرmozى : مطهر بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن المنتصر أبو الشريف الحسنى الجرmozى ولد سنة ١٠٠٣هـ = ١٥٩٥ م وتوفي سنة ١٠٧٧هـ = ١٦٦٧ م وله تاريخ جمع فيه أحوال الأئمة الثلاثة الإمام القاسم وولديه المؤيد والمتوكل على الله اسماعيل ذكر فيها كثير من وقائعهم ، وأحوالهم ومكائباتهم ، والمؤلف

الثانى له : الجوهرية المضيفة فى تاريخ الخلافة المؤيدية ، وقد حضر تولى
الإمام المؤيد ، وله أيضا " سيرة الإمام المتوكل على الله اسماعيل " .

تولى الجرموزى على بلاد عتمة فى عهد الإمام القاسم بن محمد ، وكان
أحد قواد جيشه ، واحتوى مخطوط النبذة المشيرة على رسائل للإمام القاسم
للأفراد والجماعات ، وعهد الإمام وتعيينات الأشخاص فى بعض الأقاليم ،
وهى تظهر رأيه فى أنه لا يتولى هذه المناصب إلا أهل البيت ، وفيها قصائد
بمناسبة النصر والرتاء ، كما احتوت على أهم مؤلفات الإمام القاسم ومناسباتها
وأعمال الإمام العمرانية ، كما قسم دعوة الإمام القاسم إلى أربع نهضات ، حتى
انتهى إلى النهضة الرابعة بوفاته سنة ١٠٢٩ هـ .

واعتمد الجرموزى فى هذه المخطوطة على ما جاء فى مخطوطة الألسى
المضيفة للشرقى والتى سنتكلم عنها بعد ذلك ، واعتمد كذلك على مخطوطة
روح الروح لعيسى بن لطف الله ، وبعض الأحداث التى رآها هو بنفسه
أو أنه نقلها عن لسان ولد الإمام القاسم محمد (المؤيد) .

واتصفت مخطوطة النبذة المشيرة بعنف لهجتها ، وشدة معارضتها
للعثمانيين ، كما اعتنت هذه المخطوطة بالكثير من التفصيلات التى تدل على
قرب مؤلفها من الأحداث ، ولا غرابة فى ذلك إذ أن مؤلفها من كبار
أتباع الإمام القاسم وأولاده ، وقد شاركوه فى دعم دعوته ، وبالإضافة إلى ذلك

فانه قد حرص على ذكر أسماء من أخذ عنهم الأحداث التي لم يشاهد هـا
وجميع هؤلاء كانوا من قادة جيش الإمام القاسم أو من كبار علماء الزيدية ،
أو من رؤساء القبائل الذين انضموا إلى الإمام ، أى ممن كانوا يشاركون
الأحداث عن كثب .

كانت هذه المخطوطة هى الركيزة الأولى التى اعتمدت عليها فى
رسم الاطار العام لرسالتى ، واعطتني فكرة واضحة عن أعمال الإمام القاسم
ونصائحه ، وتمسكه بتعاليم الاسلام ، وقد بذلت مجهودا كبيرا لقراءة هذه
المخطوطة ، لأنها كانت الأولى بالنسبة لى فى قراءة المخطوطات مـما
استغرق منى وقتا طويلا وفالك يرجع لردائة الخط من جهة وانها كانت على
ميكرو فيلم ، مما اضطررنى إلى استعمال آلة القراءة لساعات طويلة ، وكذلك
طولها من حيث الكم حيث بلغ عدد صفحاتها حوالى ثلاثائة صفحة تقريبا ،
ولكن رغم ذلك تغلبت على صعوبتها بالصبر والمثابرة واستطعت أن أخرج
منها بنتائج قيمة عرضتها فى نتائج وتحليل هذه الرسالة ، وتعتبر رسالتى
هذه دون مبالغة وكأنها نشر لهذه المخطوطة .

المخطوطة الثانية : الآلى المضيئة فى أخبار الأئمة الزيدية ومقتصدى
العترة الزكية ومن عارضهم من سائر البرية ، لمؤلفها أحمد بن محمد بن صلاح
ابن محمد بن أحمد بن محمد بن القاسم بن يحيى بن الأمير داود ، المعروف
بالشرفى ولد سنة ٩٧٥ هـ وتوفى سنة ١٠٥٥ هـ ، بدأ كتابة هذا المخطوط سنة

١٠٢٨ هـ ، وله مصنفات منها : شرح الأساس ، وشرح الأزهار ، فى أربع مجلدات وله أشعار ، وهو تلميذ للإمام القاسم بن محمد .

تكلم فى هذه المخطوطة عن ستة من الأئمة الزيدية من بينهم الإمام شرف الدين وابنه المطهر ، والإمام القاسم بن محمد ، والإمام المؤيد بالله والحسن بن القاسم ، والحروب التى خاضوها ضد العثمانيين ، كما ذكر عن دولة الشراكسة ، وحكام آل عثمان ، وكيفية فتح إقليم اليمن .

واعتمد فى تأليف هذه المخطوطة كما ذكر فى مقدمته لها ، على قصيدة السيد صارم الدين ابن ابراهيم بن محمد التى عارض بها قصيدة البسامية وهى شرح حافل فى ثلاثة مجلدات ، كما اعتمد على مشاهداته الخاصة لأنه شاهد أكثر الأحداث بنفسه .

وفى ذلك يقول فى مقدمة المخطوطة : أما بعد ، فقد ذكرنا فى الجزئين الأولين من الكلام ما عرض ذكره لنا من حوادث الزمان ، وتقلب الدهر ، لما انتهى شرح ما ذكره السيد ابراهيم بن محمد فى البسامية ، وذلك ما نتج من الحوادث إلى زمانه وزمان مصنف الشرح وهو الفقيه محمد بن على الرجيف الصعدى ، والحق بعد ذلك فى الحوادث المتأخرة السيد العلامة داود بن الهادى بن أحمد بن المهدي بن الحسن بن على بن أمير المؤمنين المؤيد أبياتا ضمنها بعض الحوادث المتأخرة وشرحها ،

وكانت لهذه المخطوطة أهميتها أيضا بالنسبة للرسالة ، لأنها كانت تفسير ما غمض على في مخطوطة النبذة المشيرة ، كما أن كاتبها كان يكتب الأحداث ويعلق عليها ويعللها ولم يكف بسردها فقط ، بل كانت له طريقة تحليلية في شرح الأحداث مما ساعدني كثيرا في معرفة وجهة نظر من عاش الأحداث وعاصرها ، ولكن رداءة الكتابة وعدم وضوحها بالاضافة إلى عدم الاهتمام بالنقاط والهمزات أخذ مني الجهد الكبير .

كما أنني لاحظت عند قراءتي للمراجع التي استعنت بها في بحثي ، أن أحدا لم يأخذ عنه ، ولا أدري هل هذا يرجع لندرة وجود المخطوطات أو لصعوبة الاستعانة بها للأسباب التي ذكرتها من قبل أو أنهم اكتفوا بمن أخذ عنه مثل الجرموزي ، ويحيى بن الحسين في مخطوطته أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن .

المخطوطة الثالثة : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، لعيسى بن لطف الله بن المطهر بن الامام شرف الدين اليماني الكوكباني ، توفي في عهد المؤيد بالله محمد بن القاسم سنة ١٠٤٨ هـ ، كتب هذه المخطوطة في ثلاثة أجزاء واختص بها الوزير محمد باشا وذكر فيه ما كان من أحداث القرن العاشر الهجري ، ١٦ م من الفتوح كما ألف مخطوطة أخرى لمحمد باشا تسمى " النفحة اليمينية في الدولة المحمدية " ، والجزء الثاني من هذه المخطوطة بدأه من سنة ٩٠١ هـ إلى سنة ١٠٢٩ هـ ، والجزء

الثالث أكمله ابنه عن لسانه وهو يبدأ من سنة ١٠٢٩ هـ إلى سنة ١٠٦٧ هـ ،

واتبع عيسى بن لطف فى كتابة مخطوطته الطريقة التقليدية فى تسجيل الحوادث التاريخية ، وهى طريقة الحوليات ، وقد ذكرت أن عيسى بن لطف الله كتب هذه المخطوطة بتكليف من الوالى محمد باشا الذى عاصر اشتداد دعوة الإمام وحرره ، لذلك كانت كتابته فى كثير من المواضع متعاطفة مع العثمانيين من ناحية ، ولكنه حافظ على تعصبه للزيديين لا نتمائه إليهم ، فهو حفيد المظهر ابن الإمام شرف الدين ، ومن أجل ذلك عادى الإمام القاسم عند بداية دعوته ، وذلك تبعاً لعداوة أسرة الإمام شرف الدين لهذه الدعوة حينذاك ، لتضارب المصالح ، كما أوضحت ذلك خلال فصول الرسالة .

وانعكس هذا الموقف على ما جاء بمخطوطة عيسى بن لطف الله ، فقد تحيز لتاريخ أسرته كثيراً ، وساعده على ذلك أن هذه الأسرة لم تكن هى العدو الحقيقى للعثمانيين فى زمن عيسى بن لطف الله ، بل كان أغلب أفرادها قد دخلوا فى طاعة العثمانيين ، وأصبحوا من أدواتهم فى اليمن ، وفى نفس الوقت لم يعاد العثمانيين كثيراً فى كتاباته ، بل عادى الإمام القاسم ودعوته عند بداية قيامها ، ثم اعتدل فى موقفه منها وخاصة بعد أن توالى انتصارات الإمام على حساب العثمانيين وسيطرته على أكثر الأقاليم ، وذلك قيل انه كتب قصيدة مشهورة فى أواخر أيامه أرسلها إلى الإمام القاسم بنفسه عن نفسه ما أشيع عنه من ناحية انحيازه للعثمانيين ، يقول فيها :

ما شافنى سجع الحمامة سحرا ولا برق اليمامة

ويظهر هذا الموقف المعتدل بجلاء في الجزء الثالث من مخطوطته ، ولهذا نجد المحبى في كتابه خلاصة الأثر - الجزء الثالث ، ص ٢٣٦ فى ترجمة حياته يقول " وله التاريخ المشهور الذى سماه روح الروح ، صنفه فى الظاهر للأروام (العثمانيين) .

المخطوطة الرابعة : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ، ليحى بن الحسين بن الإمام القاسم بن محمد المتوفى سنة ١٠٠ هـ ، وقد حققت هذه المخطوطة حديثا فى كتاب مختصر تحت عنوان " غاية الأمانى فى أخبار القصر اليمانى " وقد انبع المؤلف فى هذه المخطوطة الطريقة التقليدية المعروفة بالحوليات ، حيث بدأ هذه المخطوطة من الهجرة النبوية إلى أحداث سنة ١٠٥٦ هـ ، كان يحى بن الحسين أكثر اعتدالا من عيسى بن لطف الله ولم يكن متحيزا إلى جانب دون آخر ، فيتميز أسلوبه بالاعتدال والالتزان وقلة اندفاعه وانفعاله بين الأطراف المتنازعة ، وقد يرجع اعتدال يحى بن الحسين وموضوعيته رغم تعصبه للزيدية لانتائه إليهم ، إذ كان حفيد للإمام القاسم بن محمد ، إلا أنه لم يعاصر التهاب الأحداث فى اليمن ، أو اشتداد العداء بين الزيديين والعثمانيين لأنه عاش بعد خروج الأخيرين من اليمن .

وتعتبر هذه المخطوطة من أهم المراجع التى تناولت تاريخ اليمن فى تلك

الفترة ، ، وذلك لكثرة تفاصيلها ، ولقرب مؤلفها من الأحداث ، ولأنها كتبت بقلم مؤلف موضوعي النظرة غير متحيز وهذه من أهم المميزات التي يجب أن تتوفر في المؤرخ .

المخطوطة الخامسة : تاريخ دولة الترك ، مؤلفها مجهول ، ولكن يظهر من أسلوبه في كتابة المخطوطة أنه يعني زیدی متحيز للزيدية ، وقد احتوت المخطوطة على كثير من حروب الإمام القاسم ، وقد دافع فيها عن وجهة نظر الأئمة الزيديين ، وتحيز للدفاع عن قضيتهم ، وهاجم العثمانيين واتهمهم بالخروج على الدين ، والصق بهم الكثير من التهم الشائنة ، وكان تحيزه واضحا في كل المخطوطة .

وقد بدأ مخطوطته من سنة ٩٨٦ هـ إلى سنة ١٠٥١ هـ أي من إمامة الحسن بن علي بن داود إلى عهد الحسن بن القاسم بن محمد .

المخطوطة السادسة : الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ، للقاضي شمس الدين عبد الصمد بن اسماعيل بن عبد الصمد الشهير بالموزعي - لم يعرف تاريخ وفاته - كان نائب الشريعة في مدينة تعز ، وقام بالتدريس بها على مذهب الإمام محمد بن ادریس أي المذهب الشافعي

كتب هذه المخطوطة في عهد السلطان عثمان الثاني سنة ١٦١٨ م =

١٦٢٢م ، وقد كتب مخطوطته للتقرب من حاكم تعز الأمير محمد بن سنان باشا الكخيا ، وقد اتضح انحيازه بشكل كبير للعثمانيين سواء في الأسلوب أو طريقة معالجته للموضوعات أو الطريقة التي عرض بها الأحداث التي حاول ابرازها ، وقد يرجع ذلك إلى اتباعه للمذهب السني الذي يعتنقه العثمانيون .

غير أنني أرى أنه بجانب اتباعه للمذهب السني فهناك أسباب شخصية ومادية دفعتة للموقف في جانب العثمانيين ، إذ أنه كما ذكرت يشغل منصب قاضي شريعة تعز من قبل العثمانيين ، كما أنه كتب هذه المخطوطة للتقرب من محمد بن سنان حاكم تعز .

ولكن كتابا تلهم تقف عند حد الترجمة لهذا الحاكم ، بل اهتم بدراسة تاريخ اليمن منذ عهد السلطان عثمان الاولى إلى عهد الأمير محمد بن سنان أي في عهد المؤلف ، لذلك نرى انحياز المؤلف واسبابه في مدح العثمانيين إلى أقصى الحدود ، كما أن هذه المخطوطة تكشف لنا عن الأعمال العمرانية التي قام بها الولاة العثمانيون ، مما أعطانا نموذجا واضحا لطبيعة الحكم العثماني في اليمن ولسياسة الولاة هناك من الناحية السياسية والاجتماعية والعمرانية ، لكن هذه المخطوطة لم تذكر المقاومة اليمنية ضد حكم العثمانيين بطبيعة الحال ، ورغم ذلك يمكن أن نعتبر هذه المخطوطة كتابا تاريخيا متكاملًا ذات ملامح واضحة ، رغم ما يشوبها من التحيز ومن التطويل في بعض المواضع .

المخطوطة السابعة : اللطائف السنينة في أخبار الممالك اليمنية ،
 لهدر الدين بن محمد بن اسماعيل بن محمد الكبسى الحسنى سنة ١٢٢١ هـ -
 ١٣٠٨ هـ = ١٨٠٦ م - ١٨٩١ م ، يتميز أسلوب الكبسى بالاتزان
 والاعتدال سواء من جهة العثمانيين أو من جهة
 الزيديين ، بدأ كتابة هذه المخطوطة من أول ذكر عمال الرسول صلى الله
 عليه وسلم على اليمن الى سنة ١٢٩٣ هـ ، وقد أفادتني هذه المخطوطة كثيرا
 لأنها عرضت تاريخ اليمن بصورة موجزة ، مما ساعدتني على فهم بعض الأحداث
 التي غمضت على أو تاهت في المخطوطات الأخرى المطولة .

وهكذا فقد أفادتني هذه المخطوطة في توضيح الصورة العامة لأحداث
 دعوة الإمام القاسم بن محمد وإكمال بعض تفاصيلها الهامة ، وإن كانت
 تعتبر أقل أهمية عن المخطوطة الأولى والثانية التي كانتا الركيزة الأولى
 في الرسالة .

المخطوطة الثامنة : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ، لمحمد
 ابن محمد أبى السرور زين العابدين بن محمد البكرى الصديق المعروف
 بابن أبى السرور سنة ١٠٠٥ - ١٠٨٧ هـ = ١٥٩٦ م = ١٦٧٦ م .

ألف هذه المخطوطة بعد تأليفه للتاريخ المسمى "عيون الأخبار ونزهة
 الأبصار" فقد طلب منه إكمال هذا التاريخ ، وإن يفرد فيه ذكر الدولة

العثمانية مع زيادات يذكرها فكتب هذا المخطوط ، وخص به للسلطان العثمانيين من بعد دخول مصر في ظل الحوزة العثمانية حتى عهد السلطان مصطفى الأول سنة ١٦٢٢ - ١٦٢٣ م واهتم بذكر ولاية مصر وبعض أعمالهم ،

ورغم أن هذه المخطوطة كتبها مؤلف مصري ، واختصت بتاريخ مصر إلا أنني استفدت منها كثيراً ، وذلك لارتباط مصر باليمن في تلك الفترة من جهة كما أنها انفردت عن غيرها من المخطوطات بمعلومات خاصة عن تجهيز الحملات من مصر إلى اليمن مثل محمد باشا مثلاً الذي كان متولياً لمصر ثم نقل إلى ولاية اليمن . فهذه التفاصيل لم تذكرها المخطوطات اليمنية .

المخطوطة التاسعة : قرّة الميمون في أخبار اليمن الميمون ، لأبى الضيا عبد الرحمن بن الديبع الشيباني الزبيدي الشافعي ، ولد في المحرم سنة ٨٦٦ هـ بزبيد ونشأ بها وحفظ القرآن واشتغل بالفقه والحساب والجبر وله مؤلفات منها " بغية المستفيد بأخبار زبيد " و " الفضل المزيّد " توفي سنة ٩٤٤ هـ .

في هذه المخطوطة عرض عام لتاريخ اليمن من صدر الاسلام حتى الدولة الطاهرية آخر الدول السنية في اليمن سنة ٩٢٣ هـ = ١٥١٧ م ، ورغم أن تاريخ هذه المخطوطة بعيد عن موضوع بحثي إلا أنني استفدت منها في بعض النقاط مثل كيفية دخول المذهب الزيدي إلى اليمن ، ووصول العثمانيين لأول

مرة إلى شواطئ اليمن أيام السلطان عامر بن عبد الوهاب .

المخطوطة العاشرة : تاريخ دخول الأتراك إلى بلاد اليمن ومن ملك اليمن من طوائف المختلفة في زمن الاسلام ، مؤلفها مجهول ، تحدث فيها المؤلف عن الولاة العثمانيين في اليمن من أول دخول حسن الكردي سنة ٩٢٢ هـ إلى زبيد ، إلى الوالي فضل الله باشا سنة ١٠٣١ هـ ، وبها بعض الحكايات والاشعار والنوادر كما تحدثت المخطوطة عن اختطاط مدينة زبيد منذ سنة ٢٠٤ إلى سنة ١٠٣٢ باختصار ، وكتبت هذه المخطوطة سنة ١٠٣٢ هـ وهي مختصرة جدا الا انني قد استفدت منها فقد كنت في حاجة إلى هذه القلة القليلة من المادة التاريخية التي جاءت في هذه المخطوطات .

وأخيرا ، فلا شك أن مجموعة المخطوطات التي تمثل العمود الفقري لهذه الرسالة كما ذكرت سابقا ، هي المصادر الأصلية التي تتصف بأنها دراسات جادة متعمقة والتي لولاها لما استطعت كتابة هذه الرسالة والوصول الى هذه النتائج .

أما المراجع العربية المطبوعة حديثا ، فلها أهميتها أيضا في هذه الرسالة لأنها تضم كتابا تركيا مترجما وهو كتاب على هت ، وترجع أهميته إلى أن تأليفه عاصر نفس الفترة التي كتبت فيها المخطوطات التي رجعت

إليها ، وقد أعطاني فكرة عن الدولة العثمانية في استانبول ، ونظمها ، مما لم يأت في المؤلفات التي ألغت عن الدولة العثمانية حديثا ، كما اننى كنت أود الرجوع لمراجع تركية أصيلة ، أو كتب تركية مترجمة أكثر من ذلك ، لكننى لم أتمكن لعدم توفرها في مكتبات المملكة العربية السعودية ولصعوبة استعارتها من مكتبات استانبول .

كما تضم مجموعة المراجع الكتب التى تخصصت فى التراجم عن الشخصيات الهامة فى اليمن مثل كتاب " خلاصة الاثر للمحبى ونفحة الريحانة لنفس المؤلف " والبدر الطالع للشوكانسى ، فقد كنت فى حاجة لهذه الكتب لأعطى صورة متكاملة عن الشخصيات التى أتحدث عنها فى الرسالة أو حتى للترجمة عن مؤلفى المخطوطات لما لهذه التراجم من أهمية تنعكس على كتاباتهم ، بالإضافة إلى ذلك فإن هذه المراجع تضم أيضا الكتب التى كتبت بأقلام يمنية سواء من القدماء أو المحدثين ، مثل كتب الواسعى والويسى ، وعبد الله الثور ، وأحمد شرف الدين ، والعرشى .

وقد أفادتني هذه الكتب من الناحية الجغرافية للبلاد ومواقع كلا منها ، والقبائل التى تسكن اليمن .

وهناك الكتب التى تحدثت عن الدولة العثمانية نفسها ونظمها مثل كتاب الدولة العلية ، وقد رجعت إلى مرجع انجليزى " تاريخ اليمن السعيد "

المؤلف *A History of Arabia Felix or Yemen- Ropert Blayfaine* لمؤلف
لأتعرف على وجهة النظر الأجنبية من موقف العثمانيين في اليمن ، ومحاولة
صد أى تدخل أجنبى فى البحر الأحمر باعتباره بحيرة اسلامية .

وهذه المراجع تأتى فى المرتبة الثانية بعد المخطوطات لأن مؤلفيها
قد نقلوا عن غيرهم ، أو انها قد أخذت مادتها من المراجع الأصلية التى
رجعنا إليها نحن أيضا ، وهذه المراجع أغلبها تعالج موضوعا معيناً ،
أو نقطة محددة ، لذلك لم أعتمد عليها الا فى نقاط متفرقة كما يتضح فى
فصول الرسالة .

وأخيرا ، فرغم تقصيرى فى التعريف عن جميع مراجع الرسالة كلا على
حدة أو بشىء من الاستعاضة لضيق المجال هنا ، لأن هذا يحتاج
إلى بحث خاص يضيق المجال عن تناوله بهذه الصورة .

الا أننى يمكن أن أقول بأن مصادر ومراجع هذه الرسالة تتصف
بالأصالة ، وبأنها دراسات جادة متعمقة ، وهذا لا ينفى أن بعضها كان
قليل الأهمية ، أو يعتبر من المراجع الثانوية ، غير أنها تضافرت فى
معالجة موضوع الرسالة ، وساعدتنى فى كتابة فصولها ونقاطها ، وجعلتنى
اتوصل فيها إلى نتائج هامة تمثل إضافة ، ألا وهى نظم الدولة

(٢٨٨)

القاسمية التى لم يعمرها أحد من قبل بالأهمية .

فلعلنى أكون وفقت فيما أردت أن أظهر من الحقائق ، وفيما أبديت
من آراء وتعليقات ، فانسى لم أبتغ غير الحقيقة ، ولم أستهدف الا المنفعة
العامة .

ثبت المراجع

أ- المخطوطات

- ١ - أبى السرور : محمد بن محمد أبى السرور زين العابدين
ابن محمد البكرى الصديق المعروف بابن أبى
السرور - ١٠٠٥ - ١٠٨٧ هـ = ١٥٨٦ م -
١٦٧٦ م :

* المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ، أفرد
من كتاب عيون الأخبار ونزهة الأبصار وزاد عليه ،
رقم المخطوط ١١٠٥ بجامعة الدول العربية ، معهد
المخطوطات العربية ٨٤٠ تاريخ

- ٢ - ابن الديبع : عبد الرحمن بن على بن محمد الشيبانى الزيدى
الشافعى وجيه الدين المعروف بابن الديبع
٨٦٦ - ٩٤٤ هـ = ١٤٦١ - ١٥٣٧ م :

* قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون ، (ميكروفيلم)
بمكتبة قسم التاريخ رقم (٢) مصورة عن ميكروفيلم
بالمكتبة الوطنية بباريس رقم ٦٠٥٨ .

٣ - الجرْموزى : المطهر بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن المنتصر أبو علي الشريف الحسنى الجرْموزى

١٠٠٣ - ١٠٧٧ هـ = ١٥٩٥ - ١٦٦٧ م :

* النبذة المشيرة الى جمل من عيون السيرة فى أخبار المنصور بالله رب العالمين القاسم بن محمد ، فرغ من كتابتها سنة ١٠٦٤ هـ = ١٦٥٤ م (ميكروفيلم)
مصور من مكتبة المتحف البريطانى رقم ٠٣٣٢٩

٤ - الشرفى : شمس الدين أحمد بن محمد بن صلاح الشرفى

٩٧٥ - ١٠٥٥ هـ = ١٥٦٧ - ١٦٤٧ م :

* اللآلىء المضئية فى أخبار الأئمة الزيدية ، (ميكروفيلم)
مركز البحث العلمى بجامعة الملك عبد العزيز ، مصور عن مخطوطة موجودة فى مكتبة برونزانا فى ميلان رقم
٠ ١٠١

٥ - الكبسى : محمد بن اسماعيل بن يحيى بدر الدين الكبسى

الحسنى ، سنة ١٢٢١ - ١٣٠٨ هـ = ١٨٠٦

- ١٨٩١ م :

* اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية ، مكتبة القاضى

محمد بن على الأكوخ الخاصة بتمز رقم ٠٢٣٦

٦ - الموسوعي : القاضي شمس الدين عبد الصمد بن اسماعيل بن عبد الصمد الشهير بالموزعي نائب الشريعة في مدينة تعز :

* الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان (ميكروفيلم) محفوظ بدار الكتب تحت رقم ٢٣٧٩ ، وهي منقولة عن نسخة (الميكروفيلم) المحفوظة بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية ، وهي مأخوذة عن نسخة مكتبة علي أميرى باستانبول .

٧ - عيسى بن لطف الله بن المطهر بن الامام شرف الدين يحيى ، توفى سنة ١٠٤٨هـ = ١٦٣٨م :

* روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، الجزء الثانى والثالث ، (ميكروفيلم) من معهد المخطوطات العربية رقم ج ٤٠٦ تاريخ

٨ - المؤلف مجهول :

* تاريخ دولة الترك ، تاريخ المخطوطة سنة ١١٠١هـ = ١٦٩٠م (ميكروفيلم) محفوظة بالمكتبة المتوكليسة اليمنية بالجامع الكبير بصنعاء رقم ٣٧ بتاريخ

٩ - المؤلف مجهول :

* تاريخ دخول الأتراك الى بلاد اليمن ومن ملك اليمن
من الطوائف المختلفة فى زمن الاسلام .
أنهى المؤلف أحداثها الى سنة ١٠٣١ هـ فى ولاية
فضلى باشا (ميكروفيلم) بمعهد المخطوطات العربية
بجامعة الدول العربية رقم ٤٥١ تاريخ

١٠ - يحيى بن الحسين بن الامام القاسم بن محمد ، توفى سنة ١١٠٠ هـ =

= ١٦٨٩ م :

* أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ، مخطوط محفوظ
بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٤٧ تاريخ .

ب - الكتب العربية

- ١١- ابن خلدون :
* مقدمة ابن خلدون - القاهرة - دار الشعب .
- ١٢- الأب انستاسى مارى الكرملى البغدادي :
* النقود العربية وعلم النميات ^(١) ، القاهرة ، المطبعة
العصرية سنة ١٩٣٩ م .
- ١٣- أحمد حسين شرف الدين :
* تاريخ الفكر الاسلامى فى اليمن ، مطبعة الكيلانسى
١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
- ١٤- أحمد حسين شرف الدين :
* اليمن عبر التاريخ ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية
الطبعة الثانية ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٨ م .
- ١٥- أحمد حسين شرف الدين :
* تاريخ اليمن الثقافى ، الجزء الرابع ، القاهرة ، مطبعة
السنة المحمدية سنة ١٩٦٧ م
-
- (١) علم النميات : هو علم تعرف به انواع النقود والرصائع التى ضربت فى أزمان
مختلفة وبلاد شتى الاب انستاس ص ١٢١

- ١٦- أحمد السعيد سليمان :
* تاريخ الدولة الاسلامية ومعجم الأسر الحاكمة .
جزءان ، القاهرة ، دار المعارف سنة ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م
- ١٧- أمين دويستدار :
* صور من حياة الرسول ، القاهرة ، دار المعارف ،
الطبعة الثالثة .
- ١٨- اسماعيل سرهنتك :
* حقائق الاخبار عن دول البحار ، القاهرة ، بولاق ،
الطبعة الأولى سنة ١٣١٢ هـ .
- ١٩- الهمزاني : أبي محمد الحسن بن أحمد الهمزاني المتوفى
سنة ٣٣٤ هـ .
* صفة جزيرة العرب ، ليدن ، ١٤٨٤ هـ
- ٢٠- الواسعي : عبد الواسع بن يحيى الواسعي :
* تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث
وتاريخ اليمن ، القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها
سنة ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٨ م .

- ٢١- جاد طه ، د :
* سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، القاهرة ، دار الفكر
العربي سنة ١٩٦٩م - ١٩٧٠م .
- ٢٢- حسين بن علي الزينسي :
* اليمن الكبرى ، القاهرة ، النهضة العربية سنة ١٩٦٣
٢٣- السيد مصطفى سالم ، د :
* تكوين اليمن الحديث - القاهرة ، مكتبة سعييد
رأفت ، الطبعة الثانية سنة ١٩٧١ .
- ٢٤- السيد مصطفى سالم ، د :
* الفتح العثماني الأول لليمن - القاهرة ، المطبعة
العالمية سنة ١٩٦٩م .
- ٢٥- ساطع الحصري :
* البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ، دار العلم
للملايين ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٥م
- ٢٦- الشوكانسي : الشيخ محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ
* البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، جزآن ،
القاهرة ، مطبعة السعادة ، الطبعة الاولى ١٣٤٨ هـ .

٢٧- العرشى : حسين بن أحمد العرشى :
* بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن
من ملك وامام (مخطوطة) نشرها وحققها الأب
انستاسى دمارى الكرملى- القاهرة ، مطبعة البرتسييرى
سنة ١٩٣٩م

٢٨- العقيلسى : محمد بن أحمد عيسى العقيلسى :
* تاريخ المخلاف السليمانى ، أو الجنوب العربى فى
التاريخ ، جزء أول فى مجلدين ، الرياض ، مطابع
الرياض سنة ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٨م .

٢٩- على همت :
* المعاهل العثمانى أبو الفتح السلطان محمد الثانى
فاتح القسطنطينية وحياته العدلية ، ترجمه من التركية
الى العربية ، محمد احسان بن عبد العزيز الخانجى ،
القاهرة سنة ١٩٥٣م .

٣٠- عبد الحميد البطريق ، د :
* من تاريخ اليمن الحديث ، القاهرة ، معهد البحوث
والدراسات العربية ، التابع لجامعة الدول العربية
سنة ١٩٦٩م .

- ٣١- عبد العزيز سليمان نوار ، د :
* الشعوب الاسلامية ، بيروت ، دار النهضة العربية
سنة ١٩٦٣ م .
- ٣٢- عبد العزيز محمد الشناوى ، د :
* أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ، الجزء الأول ، القاهرة
دار المعارف سنة ١٩٦٩ م .
- ٣٣- عبد الله بن حامد الحبيد ، د :
* سفارة الامام المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم الى
البلاط الملكي فى عاصمة الحبشة .
مقال فى مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ،
العدد الثالث ، مكة المكرمة سنة ١٣٩٧ هـ ، ١٣٩٨ هـ .
- ٣٤- فاروق عثمان أباطة ، د :
* الحكم العثمانى فى اليمن ١٨٧٢ - ١٩١٨ م ، القاهرة ،
وزارة الثقافة ، المكتبة العربية سنة ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥ م .
- ٣٥- فاروق عثمان أباطة ، د :
* السياسة البريطانية فى البحر الأحمر ، القاهرة ، الهيئة
المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦ م .

- ٣٦- قطب الدين النهروالى :
* البرق اليماني في الفتح العثماني ، الرياض ، دار اليمامة
الطبعة الأولى سنة ١٣٧٨ هـ = ١٩٦٧ م .
- ٣٧- كارل بروكلمان :
* تاريخ الشعوب الاسلامية ، نقله الى العربية نبيه أمين
فارس ، ومنير البعلبكي ، بيروت ، دار العلم للملايين
الطبعة السادسة سنة ١٩٧٤ م .
- ٣٨- لويس معلوف :
* المنجد - بيروت - الطبعة العاشرة سنة ١٩٤٧
- ٣٩- ل . ج . شيني :
* تاريخ العالم الغربي ، ترجمة محب الدين حفي ناصف
القاهرة ، دار النهضة العربية .
- ٤٠- المحبى : محمد بن الأمين بن فضل الله بن محب الله
ابن محمد المحبى الحموى الدمشقى الحنفى
ت سنة ١١١١ هـ = ١٦٩٩ م .
- * خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر ، ٤ مجلدات
بيروت ، دار صادر .

٤١- المحبى :

* نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، تحقيق عبد الفتاح
الحلو ، الجزء الثالث ، القاهرة ، دار احياء الكتب
العربية ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م .

٤٢- محمد أبوزهرة :

* الامام زيد ، حياته ، عصره ، آراؤه وفقهه ، - القاهرة
دار الفكر العربى سنة ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٩ م .

٤٣- محمد عبد اللطيف البحراوى ، د :

* فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولى من البر
الى البحر ، القاهرة ، دار التراث ، الطبعة الأولى
سنة ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م .

٤٤- محمد عبد اللطيف البحراوى ، د :

* حركة الاصلاح العثمانى فى عصر السلطان محمود الثانى ،
القاهرة ، دار التراث ، الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ =
١٩٧٨ م .

٤٥- محمد فريد بك المحامى :

* تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجيل
سنة ١٣٩٨ هـ = ١٩٧٧ م .

٤٦- مصطفى بن عبد الله الشهير حاجى خليفة :

كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون ج٢- وكالسة
المعارف ومطبعتها ١٣٦٢ هـ - ١٩٤٣ م .

- ٧- محمد كمال الدسوقي ، د :
* الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، القاهرة ، دار
الثقافة سنة ١٩٧٦ م
- ٨- محمد يحيى الحداد :
* تاريخ اليمن السياسى ، دار الهنا للطباعة ، الطبعة
الثالثة سنة ١٣٩٦ هـ = ١٩٧٦ م .
- ٩- محمد مختار باشا :
* التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية
بالسنين الافرنكية والقبطية ، القاهرة ، المطبعة الأمير
ببولاق سنة ١٣١١ هـ = ١٨٩٤ م .
- ٥٠- نور الدين حاطوم:
* تاريخ عصر النهضة الأوربية - لبنان ، دار الفكر الحديث
سنة ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٨ م .
- ٥١- هارولد . ف . يعقوب . ك . س . أى - ترجمة أحمد الضواحي
* ملوك شبه جزيرة العرب ، وترجم الكتاب تحت اسم عدنان
وجنوب اليمن ، الجزء الأول ، دمشق ، دار النهضة
العربية ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م .

٥٤- هارى . و . هازارد :

* أطلس التاريخ الاسلافى ، ترجمة ابراهيم زكى خورشيد
القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية .

٥٣- يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن على :

* غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، تحقيق سعيد
عبد الفتاح عاشور و محمد مصطفى زباره ، الجزء الثانى
القاهرة ، دار الكتاب العربى سنة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م
وهو مختصر لمخطوطة أنباء أبناء الزمن .

(٣٠٣)

ج - الكتب الأجنبية

Robert L. Playfair :

- ٥٤

A history of Arabia Felix,
or yemen
Amsteram philo prers
st. Leonatds 1970.

»

فہرست الموضوعات

- المقدمة : ١ - ٨
- التمهيد : ٩ - ٣٨
- أ - نبذة عن الامامة الزيدية
- ب - انتهاء امامة أولاد المطهر بن شرف الدين وأسر الامام الحسن .
- ج - فترة الاستقرار .

- الفصل الاول : الامام القاسم ٣٩ - ٧٩
- أ - نسب الامام القاسم ونشأته وظهور دعوتيه سنة ١٠٠٦ هـ .
- ب - حروب الامام في الكرة الأولى مع حسن باشا
- ج - استقرار الامام في السود سنة ١٠٠٨ هـ ، وبقية حروب الكرة الأولى .
- د - اشتداد الحصار على شهارة سنة ١٠٠٩ هـ وخروج الامام الى برط .

- الفصل الثاني : ولاية سنان باشا سنة ١٠١٣ هـ - (النهضة الثانية)

- أ - عرض الصلح على الامام القاسم في ولاية سنان باشا سنة ١٠١٣ هـ .
- ب - التطورات في النهضة الثانية وفكرة رحيل الامام للبصرة .
- ج - انضمام الأمير عبد الرحيم بن عبد الرحمن للامام وبقية التطورات .
- د - عودة شهارة للامام القاسم سنة ١٠١٥ هـ ثم عقد الصلح مع سنان باشا قبيل رحيله

الفصل الثالث : صلح سنة ١٠١٦ هـ ونتائجه ١٠٧ - - ١٢٩

- أ - سياسة جعفر باشا .
- ب - صلح سنة ١٠١٦ هـ ، استقرار الامام فى شـهـارة .
- ج - تفرغ جعفر باشا للأمير عبد الرحيم ——— عبد الرحمن .
- د - أسر عبد الرحيم ونفيه سنة ١٠١٨ هـ .

الفصل الرابع : الحالة بعد عزل جعفر باشا ١٠٢١ هـ ١٣٠ - - ١٦٤
١٠٢٩ هـ
(النهضة الثالثة والرابعة)

- أ - عودة جعفر باشا للولاية بعد عزله وموت ابراهيم باشا وما أعقبها من تطورات ١٠٢١ هـ - ١٠٢٥ هـ (أسر الحسن بن الامام - موقعة غارب أثلة - موقعة الشقاب)
- ب - الوالى محمد باشا وسياسته ١٠٢٥ هـ
- ج - الصلح مع الامام ١٠٢٨ هـ
- د - وفاة الامام القاسم ١٠٢٩ هـ

الفصل الخامس : الخلل فى الاستانة ١٦٥ - - ١٨٧

- أ - نظرة عامة فى أهم النظم العثمانية
- ب - الخلل فى الاستانة وأثره على اليمـن
- ج - التوازن بين الامامة والولاية

(٣٠٧)

الخاتمة

٢٦٤ - ١٨٨

النتائج والتحليل

٢٦٨ - ٢٦٥

الملاحق

- الملحق الاول :

٢٦٦ السلاطين العثمانيون الذين عاصروا الامام

- الملحق الثانى :

٢٦٧ الولاة العثمانيون فى اليمن فى عصر الامام

٢٦٨ - الملحق الثالث :

٢٨٨ - ٢٦٩

ملحق خامس بالمراجع

٣٠٣ - ٢٨٩

ثبت المراجع

طبع : سيدة زكى